## مفاهع اسلاميته



حرجلال كشك

مكتبة بي أو التوزيع الطباعة والنشر و والتوزيع ١٢ رشاع إنجهورية والقاهدة



إلى الذين لايطيقون قول الحق المر . .

ولا حتى يطيقون سماعه . .



## خطبة الكتاب

هذه بعض قراءات فى سفر تراثنا الإسلامى . . لا نويد بها أن نجتر ماضينا ، ولا أن ننتشى بخمر الاسلاف . . بل أن نفتح عيوننا على هول ما يدبر لنا ونتلس الطريق الوحيد الذى يمكن من خلاله أن نلهب حماسة الجماهير ونطلق طاقات الامة العربية ، ونجمع حولها إرادة العالم الإسلامى لنحرر أرضنا المحتلة ، ومسجدنا الاسير ، وتاريخنا الذى دنسته الصهيونية ، ونستنقذ شرفنا الذى يوشك أن يجلل بعار لا يمحى أبد الدهر . .

والحق أن الحضارة الإسلامية ، بشموخها وجلالها ، قادرة على أن تنسى مرارة الزمان ، وانهيار المسكان . . وكم تخدرت أجيال من أمتنا أمتنا باستغراقها في تلاوة التراث . . وكم استهانت أجيال من أمتنا

بخطر ما يدبر لها من أعداء العروبة والإسلام ، لأن نور مجدها قد بهر أعينها ، فعجزت عن أن ترى ما يتحرك فى الظلام . .

غير أن تراثنا يعلمنا ألا نستهين بدأب الجرذان أو دابة الأرض . . فالأولى ظلت تأكل فى سد مأرب حتى طاح به السيل ، وتبددت حضارة سبأ . . وذوت الجنتان . . والثانية أكلت منسأة سليان فسقط وانطلق الجن فرحين . .

ومهما يكن شموخ تراثنا وعظمة اسلافنا . فلاشك أن قرونا من الظلام قد سادت الوطن الإسلامي . . وأن قرون التخلف قد فرضت آثارها على كل شيء . . وعلى الإنسان المسلم أولا وقبل كل شيء . .

ولاشك أن قوى العداء الأبدى للسلين . . وهى الحضارة الغربية الصليبية ! ، ثم وريئها الشرسة ، الصهيونية . لاشك أنهما قد أجادا استغلال فترة الظلام هذه ، فتسللوا . . وضربوا . ولاشك أنهم حركوا عوامل التخلف لصالحهم ، وفى الاتجاه الذى يخدم هدفهم، وهو القضاء على الإسلام ، وإذلال المسلمين ، والتصرف فى أقدارهم ، وانتزاع أرضهم ، وما وهبهم الله من ثروات . .

ولاشك أن المسلمين قادرون ، على أن يواجهوا الخطر المحيق

<sup>(</sup>١) الحضارة الغربية الصليبية هي الحضارة الاوروبية — الاسم يكية بصرف النظر عن انقسامها إلى دول أو نظم أوكنائس مختلفة

يهم . . قادرون على تحرير إرادتهم ، واستخلاص أرضهم ، وإنزال الهزيمة بعدوهم ، وبعث حضارتهم من جديد . .

يستطيعون ذلك لو أدركوا حقيقة الخطر الذي يواجههم ، حقيقة الدوافع التي تحرك الحقد الاستعارى للحضارة البيضاء ضدنا . كيف كان لشعار : وقاتلوا المسلمين ، فعل السحر في أوروبا وأمريكا في صيف ١٩٦٧ أي في النصف الثاني من القرن العشرين . . حتى هبت الجماهير في فرنسا تتبرع خلال أربعة أيام بمليار فرنك . . وهو مالم يحمع لشعب فيتنام في أربع سنوات ! . . تبرعوا بها لاسرائيل من أجل قتل المسلمين ! وهكذا كانت الصحف تنشر في صدر صفحاتها ألحل ، وهكذا كانت اللافتات تقول في المظاهرات ! وهكذا كان

« قاتلوا المسلمين 1 » 1

فتحرك الحقد الصليبي الموروث. .

وما من عاقل يظن أن الدافع هو حب اليهود . . أو الخوف على اليهود من تصريحات الشقيرى . ! فالانسان الاوروبي لا يكره

<sup>(</sup>۱) لم يجد الفيلسوف الوجودى سارتر مايعتذر به عن رفع هذا الشعار في فرنسا ، وسيره هو شخصيا في مظاهرات ترفع هذا الشعار الصلبي ٠٠ لم يجد ما يعتذر به إلا أنه خطأ فقد عرف بعد ذلك بوجود مسيحيين عرب! ٠٠٠ ربما يصحح في المرة التادمة ي: قاتلوا المسلمين والمسيحيين العرب!

<sup>﴿</sup> رَاجِعَ حَدَيْتُهُ فِي الْأَهْرَامُ ٣/٧/٣)وانظر كَتَابِنَا ﴿ أَخْطُر ۗ مِنَ النَّكَسَةُ ﴾

بعد المسلمين إلا اليهود .. والحس الغربي المتبلد الذي لم تحركة مذابح الاستمارية والطغيان الوحشي طوال هذه السنين .. ما باله ينفعل على هذا النحو لمجرد منع سفن اسرائيل من المرور في خليج العقبة ؟!

لقد آن أن نمرف أن أوروبا وأمريكا تعادينا لاتنا :

- ه مسلبون
  - ءرب
- لاننا التحدي الحضاري لهم
  - لأن قيمنا أعلى وأسمى
- لان أرضنا أغنى وأخصب وأقدر على بناء حضارة أكثر ازدهارا ..
  - لأنهم يسرقون ثرواتنا ، ويستغلون خيراتنا . .
- لان حضارتهم قامت على استغلال ونهب آسيا وافريقيا حيث يعيش المسلمون ، وحيث كانت حضارة المسلمين .

هذا هو العداء الأصلى ، وفى إطاره يجب أن نعمل ، فلا تطوح بنا أوهام اقناعهم أو كسبهم .. فهم لا يحبون اليهود ، ولكن يتمنون. أن يقتل اليهود لهم العرب .. ويذلوا المسلين .. وهم ان يسمحوا أبداً بقيام دولة عربية أو إسلامية قوية فى مستوى العصر .. لا بد أن ينتزع ذلك من براثنهم انتزاعاً بالدم والحديد والنار .. فهذا هو قانون التاریخ الابدی. . ما من قوی کبری تسمح راضیة بقیام قوة کبری. جدیدة .

لنستغل تناقضاتهم كما نشاء ، وكلما أمكن ، على أن يكون واضحاً أنه مامن قوة كبرى يرضيها أن يكبر ويقوى الآخرون ..

إذا ما عرفنا طبيعة العداء الذي نواجهه ونوعية التحدي الذي يفرض علينا فسنعرف طريق الخلاص .. إنه البحث عن جذورنا .. والامتداد العميق بهذه الجذور في أرضنا .. لانها وحدها هي التي تستطيع أن تورق .. وأن تصمد للاعاصير التي تريد أن تقتلعنا وتطوح بنا ..

وقد تنبه حس الجماهير بعد الخامس من يونيو .. فانفجرت طاقات من الشوق إلى الإسلام ، بعيدة كل البعد عن أن تكون غيبوبة صوفية ، كتلك التي كانت تنتشر في الوطن الإسلامي في أعقاب الهزائم والانهيارات .. بالعكس ، فرغم كل مبررات اليأس القاتل .. إلا أنه من الممكن أن نتلمس في هذا الحنين إلى الإسلام والشوق إليه؛ ملامح إرادة بعث ، وتصميم على النصر ، وإدراك للدور الذي يمكن أن تقوم به العقيدة في مواجهة الخطر الصهيوني .. ويقين أنها لبست عقيدتنا التي هزمت .. بل نحن الذين تخلينا عنها ..

لكن .. هذا الشوق يمكن أن يضلل .. وهذه الإرادة يمكن أن يويف طريقها ، لا بمجرد الشعارات الجديدة التي بدأت تصدر عن

جيف النظريات والحركات العقائدية ، ونفايات المذاهب التي قذف بها المحيط الصليبي عند شواطئنا .. هذه الشعارات التي تدور حول ضرورة التخلص من الدين لنصبح مجتمعاً علمانياً . . وإن لم يكلفوا أنفسهم عناء اخبارنا بما هي مظاهر التمسك بالدين التي عاقت زحقهم ا

إن هذه الشعارات لاتهدف فى الحقيقة إلى ابعاد الدين عن السياسة ،كما يدعون ، فهو مبعد ، والحمد لله ، منذ سنوات اكبر من عمرهم ، وعمر من غرروابهم !

الهدف الحقيق ، هو سد الطريق على أية محاولة لتلمس الحل الحقيق . .

إلا أن هذه المحاولات لا تعمل وحدها ، بل لا يقل عنها خطورة عما ولا الله عنها خطورة عما ولات إشباع شوق الجماهير ، بتقديم قشور الندين الشكلي . . بل التنطع وليس التدين . إخفاء جوهر الدين ، إخفاء طبيعته الحية «المتطورة ، وتحويله إلى أوراد وأذكار ودروشة .

لذلك وجدتنى فى هذه الفترة ، أحاول أن أعود لقراءة التراث .. بحثاً عن فهم جديد .. ينير الطريق .. فسكانت هذه القراءات .. نشرت بعضها فلقيت استجابة واسعة فأحببت أن أجمعها وأضيف إليها وأقدمها علقارىء المسلم لعلنا معاً نبدأ بفهم جديد وإيمان جديد .. وعمل جديد..

وقد سميتها باسم: «الحق المر» وهو عنوان الفصل الذي خصصته للابي ذر رضي الله عنه ، مقتبساً من جملة طالما كان يكررها كلما واجه

﴿ لَنَاسَ بِالْحَقِ فَصَافُوا بِهِ ، وَصَافُوا بِالْحَقِ .. فَـكَانَ يُعتَذُرُ قَائِلاً : ﴿ لَقَدُ عَاهَدُنَى خَلِيلِي أَنَ أَقُولُ الْحَقِ مَهُمَا يَكُنَ مُراً .. ،

فإن كان بعضنا لا يطيقون قول الحق ، فلعلهم لا يغضبهم أن يقوله غيرهم .. ولا يبلغ بهم العجز حد الحقدعلى قائليه .. هم الذين عناهم الله سبحانه وتعالى بقوله :

د يحسبون كل صيحة عليهم .. هم العدو فأحذرهم.

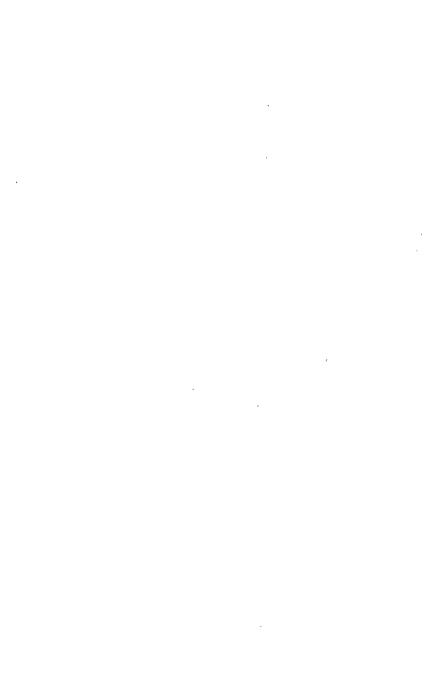
فشر الناس هم أوائك الذين لا يقدرون على قول الحق ولايطيقون سماعه .. ولهم أهديت هذا الحديث حتى نبلغ منهم وفيهم ما يرضى الله .

جهول كشك

۲۴ ربیع الثانی ۱۳۸۸ ۱۹۲۵ تموز ۱۹۲۸ ۲۳ ب بهجت علی الزمالك



مدخسل



يحن نؤمن أن التاريخ الإسلامي صنعه المسلمون ، بإرادة الله تعالى فى كل جزئية من تفاصيله .

غير اننا لا نلزم أحدا بايماننا هذا ، ولا نفرضه كقضية يشترط. التسليم بها قبل النقاش . . بل من حق من يشاء أن يستخدم أى منطق. يثبت أنه على فى مناقشة هذا الناريخ والحكم عليه .

ونؤمن أن الله قد اراد لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام أن ينقل آخر كلمات السهاء اللارض . . فأعلمنه و خاتم النبيين ، واعلن بعد فتح مكة أنه قد أتم نعمته واكمل الدين واختار لنا الإسلام دينا! .

<sup>(</sup>۱) لو لم تكن للاسلام من معجزة الا هذا التبليغ الذى لايصدر بهذا اليقين.. الا ممن بيده الأمر • • خالق الكون • • ثم تتأكد مشيئته ، فلا يظهر نبى آخر ، ولاحتى دعى ناجح • . لو لم يكن لديننا الا صدق هذه الآية عبر أربعة عشر قرنا • • ثم توفر الادلة على انها ستصدق إلى أن يرث الله ، الارض ، ومن عليها • •

أقول لو لم يكن ف ديننا الا هذه المعجزة لـكانت الحجة التي لا تعلوها حجة -

ولأن إرادة الله قد شاءت أن يكون محمد هو خاتم النبيين، وأن يكون الإسلام هو آخر كلمات الساء الأرض.. فإن حكمته تعالى اقتضت أن تكون هذه الرسالة صالحة لـكل زمان ومكان.

إذ لوكانت الرسالة محدودة بزمن معين ، أو موجهة لبلد بعينه ، أو جيل أو جنس ، أو جماعة من الناس . . لكان دورها ينتهى بانتهاء من وجهت إليهم ، بانقضاء هذا الزمن المحدد ، أو بزوال هذه الامة المعينة . . أو بانتقال الإنسان عبر المكان بما شاء له الله أن يخترق حواجز المسكان ، وأبعاده ، لينتقل إلى بيئة غير بيئته وظروف غير الظروف التى نزلت لها الرسالة وبها . .

فالإيمان بأن الإسلام هو خاتم الاديان. مرتبط بالإيمار بصلاحيته لكل زمان ومكان. . لأن القول بغير ذلك يعنى أن صلة السياء بالارض تنقطع في مرحلة من عمر الإنسان على هذه الارض. .

أى أن الناس يستقبلون زمنا يعفون فيه من محاسبة السهاء، ويضطرون إلى إقامة مجتمعهم بغير هدى السهاء وبغير التزام أمامها .. قد أعفتهم السهاء من ذلك بانهاء رسالتها . .

ولكن إرادة الله اقتضت أن تستمر الساء فى هداية الإنسان، كما اقتضت أن تكون رسالة محمد هى آخر التوجيهات وآخر كلمات الساء فى شئون الارض ا .

<sup>(</sup>١) الا ماشاء الله بغير الرسل والانبياء

وهذا لا يتأتى \_كا قلنا \_ إلا بأن تتضمنهذه الرسالة من عناصر الحلود ما يجعلها صالحة لـكل زمان ومكان. أى لـكل الاجيال وكل القرون وفى كل بقعة من أرجاء هذا الكون يصل إليها الإنسان.

وإذا كان علماء الطبيعة والفلك يعرفون الكون بأنه محدود ولا نهائى . . فلا بدأن تكون الرسالة الني جاءت لتنظيم هذا الكون. « محدودة ولا نهائية » .

تستطيع أن تؤمن بهذه القضية انطلاقا من إيمانك بأن الإسلام هو خاتم الاديان . . وتستطيع أن تؤمن بها من خلال دراسة الإسلام كمنهاج لاطلاق طاقات الإنسان وتحقيق انسانيته في هذا الكون . .

فالرسالة المحمدية نزلت خلال زمن محدود ؟ ٢٣ سنة .. وفي مكان محدود . . أرض العرب .. وبين جيل محدود هو الجيل الآول الذي عاش سنوات البعثة .

وقواعد الإسلام، قد حفظها كتابالله، وتعهد، خير من وفى، أنه سيحفظه من التبديل والتحريف. وصدق وعده، فحفظ كتابه، فى عهود ماكان أصعب حفظ كتاب — فيها ا

ورغم كل ما انتاب العالم الإسلاى من أخطار وهزائم واغارات. سلم كتاب الله فلم تمتد له يد بتشوية أو تحريف، واختلف المسلمون فى كل شىء ولم يختلفوا فى حرف من كتاب الله . .

(م — ۲ الحق المر)

ومن حقائن هذا الكون \_ الني لا تحتمل الجدل \_ هي أنه قد نظم وفقا لقوانين نستطيع أن تكتشفها ونوجهها والكننا لا بملك إلا الخضوع لها كبداية للسيطرة عليها . .

وان الأديان ساعدت الانسان على اكتشاف هذه القسوانين والسيطرة عليها ، سواء آمنا انها جاءت من الساء أم من عبقرية مصلحين إجتماعيين . .

والاسلام ــ كما نرى ــ هو أفضل النظرات التى تفسر هذا الكون ، وتهدى إلى بذل الخير .

وفى تفسيرنا الدينى أن الله الذى وضع قوانين الكون ، شاء لها أن تعمل ، وشاء لنا أن نتعلم كيف نسيطر عليها ، وكيف نبنى حياتنا فى اطارها ، متخطين حتميتها بالخضوع لضرورتها . .

فالناس يصنعون حياتهم من خلال علاقة تفاعل، متغيرة باستمرار، بين ما ترسمه أفكارهم ومبادئهم من مثل، وما تتبيح لهم إمكانيات عصرهمن وسائل مادية لبناء الحياة وفقا لهذه القيم .. أى بين أحلامهم، وقدرتهم على الافتراب من هذه الاحلام وتجسيدها فى تشريعات. وعلاقات إجتاعيه وسياسية واقتصادية وأخلاقية .

ومن هنا فإن الرسالات والنظريات والفلسفات، يمكن الحكم عليها من ناحية قدرتها على تذليل الكون للانسان ..

- فالنظريات التي تدعو لارتقاء الإنسان يفترض فيها أن تتضمن :
- مثلا تدفع الانسان إلى رفض الواقع ، ساعيا إلى وضع أفضل في ا علاقاته مع نفسه ، ومع الكون ..

لان القيم والمبادىء التى تبارك الواقع وترضى به ، قد تحدث للانسان سعادة مورفونية ، ولكنها لا تدفع الانسان إلى الارتقاء . .

• قيم واقمية ، تبدأ من إنسان المسكان والزمان المعينيين لتصنعفيه، وبه ، التغيير .. فإن عجزت عن احداث هذا التغيير ، كانت بحرد خيالات وأفكار عن جنة في عالم آخر ، ولكائن آخر غير هذا الانسان . .

ان القيم والمثل والفضائل التي لاتجد ناسا يطيقونها ولابجتمعات تمارسها ، هي كقدرات آلهة اليونان والجن الخرافية ، لاسبيل إليها، ولا يعيب الانسان أن يتغاضى عن إمكانية إدراكها . . بل يبدد وقته، ويفسد حياته ، من يحاول الوصول إليها . .

مدى صلاحيتها لتخطى حدود الزمان الذى عبرت عنه ، وحدود المكان الذى ظهرت فيه وحملت بصماته فى تكوينها وصياغتها . . فذلك ما يحدد امتداد الدعوه وشمولها وعالميتها . .

والاسلام – كما قلمنا – يفترض فينا أن نؤمن بصلاحَيته لـكل زمان ومكان . .

وقلنا أن القرآن قد ضبطت آياته وحروفه ، وأنه من غير المعقول

أن نفترض اننا سنجد فيه قوانين الجاذبية لينوتن،أو النسبية لانشتين.. أو الانتخابات بالقائمة . . والنظام الرئاسي . . ونظم إدارة القطاع العام !

ومهما بلغ جهد البعض في استخراج التفاسير ، فستبق هناك قضايا تفصيلية لم ينص القرآن عليها .

ولولا ذلك ما وضع فقهاء المسلمين ، القياس والاستحسان والإجماع . . واكتفوا بعلم واحد هو التفسير . .

بل اكتشف فقهاء المسلمين هذه البديمية العسيرة على إدراك الكثيرين . . الا وهى : محدودية النصوص ، ولا نهائية المشاكل التي تثيرها الحياة! .

بل ان معجزة ديننا أن القرآن الملزم لنا حرفيا ، ليس فيه هذا الاغراق في التفاصيل الذي تتسم به بعض الكتب المقدسة ، ومن شم فإنه مامن مسلم قد وجد نفسه في حرج أمام فصمن نصوص القرآن في أي عصر من العصور . .

فرعم نسبية المعرفة وتطورها باستمرار فيما يتعلق بنظرة الانسان إلى الكون وقوانين المادة وحركتها إلى حد تعارض النظريات مع معضها، تعارضا تاما، فما من نص في القرآن تستطيع أن تقول أنه

١ — الشهرستاني ــ الملل والنحل •

يشل إنطلاق أى علم من العلوم، أو يجعل المسلم يغمغم كما فعل جاليلو: « ورغم ذلك فإنها تدور، أو يشعر بذلك الحرج الذى عانا، الرجل الطيب الذى زار فلسطين فى العصور الوسطى لأوروبا، وعاد إلى روما يقول هامسا أن انهارها لا تفيض لبنا وعسلا ا

بلكان وعمر ، يشير إلى هذا المعنى كلما حدثه : وكعب ، اليهودى الأصل ، عن إشارات وردت فى التوراة عن سلوك عمر ، فيتساءل عمر دهشا مستنكرا : و أتجد عمر فى التوزاه ، ؟ ا

ولقد حرر الاسلام المسلمين من تراث التفصيليات الواردة في الكتب السابقة عليه بأن أعلن أنها حرفت وشوهت وبدلت ، ومادام لم ترد نصوص كافية تحدد مواقع التحريف على وجه الحصر فإن من حقنا أن نرفض كل خبر فيها لايتفق وديننا . . وعقلنا . .

فالقرآن هو وحده النص الذي لا يحتمل خلافا. . ثم تأتى السنة وهي سلوك الرسول وإجاباته على قضايا مجتمعه وعصره . .

وقد شاءت إرادة الله الا تدون السنه كما دون القرآن ، بل صد المسلمون عن ذلك صدا . . وكان من المماكن أن تضبط سنة الرسول وتقيد فى كتاب كما حدث فى القرآن واذن الاصبح لدينا القرآن . . وضبط دقيق لسلوك الرسول وأقواله فى مدة حيانه ، والاصبح الكتابان ملومين ، غير قابلين للنقاش أو الجدل . . وهو ما تنبه له العبقرى الملهم ، عمر بن الخطاب ، عندما سمع أنهم كتبوا الحديث ، فنى رواية عبد الله

ابن العلاء أنه سأل القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، أن يملى عليه حديثا ، فقال ان الاحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب، فأنشـــد الناس (أى طالبهم) أن يأتوه بها ، فلما أتوه بها أمر بتحريقها ثم قال : . مثناة كمثناة أهل الكتاب ا ، قال فنعنى القاسم يومئذ أن أكتب حديثا . . . .

ثم كانت الحلافات وفساد الرعية ، ودس المخربين والمتآمرين من أعداء الاسلام والعاملين في التنظيم الصهيوني . . فزورت على رسول الله الاحاديث . .

وهو أمركان معروفا ومتوقعا . . حتى قبل أن يتوفى رسول الله ، وكأنه كان مدبرا تدبيرا لحكمة نحاول فى هذه الدراسة أن نتفهمها . .

فرسول الله ينذر: , من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، وقال الزبير بن العوام: , والله ما قال متعمدا ، وانتم تقولون متعمدا ، .

وكان كبار الصحابة يمتنعون عن الحديث عن رسول الله ، ويتحرجون من ذلك اشد التحرج ، فعن السائب بن زيد ، انه صحب سعد بن أبي وقاص من المدينة إلى مكة ، قال فما سمعته يحدث عن النبي حديثا حتى رجع . . !

١ — أى التوراة والتلمود.

وسئل سعد بن أبي وقاص ، عن شيء ، فأستعجم فقال : ﴿ إِنْ أَخَافَ أَنَ احدثُكُم وَأَحدا فَتَزيدُوا عَلَيْهِ المَائَةُ ﴾ ·

وعن عمر بن ميمون: اختلفت إلى عبد الله بن مسعود سنة ما سمعته يحدث فيها عن رسول الله ، ولا يقول: قال رسول الله ، إلا أنه حدث ذات يوم بحديث فجرى على لسانه: قال رسول الله ، فعلاه الكرب حتى رأيت العرق ينحدر عن جبهته ثم قال إن شاء الله ، اما فوق ذاك ، اما قريب من ذاك ، واما دون ذاك . . . ا

بل يعرف رسول الله بوحى النبوة أن الحديث الصحيح، اى السنة الصحيحة ستختلط بالمدسوس، فيضع لنا ،منهاجا علمياً ، إنسانيا ، رائعاً ، أساسه الدين ، في تمحيص الباطل من الحق :

يقول صلوات الله عليه :

« إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب ، فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا إبعدكم منه . .

فنحن مطالبون بتقديم التمحيص على التسليم ، أما بالنسبة للنص القرآني فإن التسليم والإيمان يسبقان التفكير والتأمل . . ولكن

رسول الله يجعل قناءتنا نحن البشر هى الحسكم فى قبولنا أو رفضنا لمسا يقدم لنا على أنه سنة نبينا . .

ثم شاءت إرادة الله أن يختلف كبار الصحابة كأشد ما يكون الاختلاف ، ويحملون السلاح ضد بعضهم البعض .. ثم ينتقل الحلاف إلى جمهرة المسلمين فيتقاتلون ، ويقتل بعضهم بعضا .. وهم يستندون جميعاً إلى تأويل لنص ، اجتهدوا فيه .

ومن تأويلهم للنصوص ، وما دسه الأشياع المتأخرون أصبحنا مطالبين أن نقدم الفكر والمناقشة ، وأن نرد النص أو الحادث إلى المبادى. الاساسية للاسلام على ضوء ، ما وصلت إليه معرفتنا ، وما يتفق واحتياجات الزمان والمكان ..

بهذا وصلت حرية الفكر فى الإسلام إلى ذروتها .. فقد رفض الإسلام مبدأ الكهنة والكهانة ، أى الجماعة المختصة باصدار رأى السهاء فيما يجد من شئون الحياة .. فهذا الحق مباح لآى مسلم يستطيع أن يفهم النصوص ويستوعب معرفة عصره ، ثم يكون قادرا على أن يستخرج من النص تشريعاً يتلاءم مع احتياجات الزمان والمسكان .

فباب الإجتهاد مفتوح ، ولكنه ليس كباب الخان لاتهر كلابه من كثرة الطراق .. بل لا يجتازه إلا من ملك مفاتيحه ، وهي بعد ذلك متاحة لكل من صدق العزم ..

ولانه ليس لدينا نص محدد لكل ما تجابهنا به الحياة المتجددة. دائماً ؛ فن واجبنا أن نجتهد ، أى أن ندرس وان نستنبط .

وقد نشأ علم الحديث من هذه الاسس . التفكير والتحقق قبل التسليم .. ولا جدال أنه يعد أدق علوم التاريخ .. فقد كان على علماء الحديث أن يمحصوا عدداً هائلا من الروايات حفظت ونقلت دون أن تكتب .. وانتقلت إليم عن طريق العنعنة المشهوزة أى يوويها أحدهم نقلا عن آخر نقلا عن ثالث حتى تصل إلى الصحافي الذي يحكي عن رسول الله .

وبالطبع كان بوسع أى إنسان أن يقول: وحدثنى فلان ... الذلك بدأ علماء الحديث بأن أجروا علمية حصر شاملة ، هى بلا جدال ، الأولى من نوعها فى التاريخ .. أحصوا جميع الصحا بةالذين كانت لهم صحبة مع رسول الله تسمح لهم بالحديث عنه .. شموضعوا جدو لا زمنيا دقيقاً إلى حد السكال بتاريخ اسلامهم ، والمواقع التى شاهدوها ، وتاريخ وفاتهم ا فإن نقل أحده حديثاً عن أبى ذر فى غزوة بدر ، كان من السهل الحسم بكذبه ، لأن أبا ذر لم يشهد غزوة بدر بل جاء إلى المدينة بعد الخندق .

وبلغ من الدقة التي يعجز عنها صحفى اليوم .. أن أبا موسى الأشعرى. وصل هو وقومه إلى المدينة فى نفس اليوم الذى وصل فيه المهاجرون من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب .. فأرخ البعض أن أبا موسى. وجماعته من المهاجرين للحبشة ، ولكن التمحيص الدقيق أثبت أنهم أختلطوا بالقادمين من الحبشة فأشيع أنهم من المهاجرين ا وفند

مؤرخو السنة المعتمدين هذا الوهم ..

وفى المكتبة العربية عدد من المراجع تحمل ترجمة لجيل الصحابة مقبل أن يظهر Who is Who الكثر من ألف عام ا

ثم انتقلوا لدراسة تاريخ حياة التابعين والرواة عن التابعين إلى الجيل المماصر للذين دونوا السنة لاول مرة

وهذه الدراسة امتدت فشملت تاريخ الحياة . . سنة المولد وسنة المولد وسنة الموفاة . . والبلاد التي عاش فيها ومشاهير الرجال الذين عرفهم . . حتى يمكن تحديد الزمان والمسكان الذي تم فيه التلتي عن الصحابي أو التابعي، وضبطها على تاريخ كل من المصدر والناقل عنه . . فيقال هذا : ووهل، أي خطأ ، لأن فلانا مات في الشام سنة عشرين وفلان لم يذهب إلى الشام إلا في سنة ٢٢ هجرية فتبطل الرواية . .

مم امتدت هذه الدراسة فشملت معرقة أخلاق المروى عنهم وصفاتهم الشخصية والجسدية . . فيقال أنه كان كثير النسيان ، أوضعيف البصر، أو ضعيف السمع أو كان يثق بفلان الخارجي ، فكان يدس عليه .الحديث ، أو كانت له ميول كذا و ذذا . .

وكل هذه المعلوماتكانت توضع فى الاعتبار عند تمحيص الحديث ﴿ وَتَحْقِيقَ الرَّوَايَةِ مَا . .

من هنا نستطيع القول ان علم الحديث في مصادره المتفق عليها

قد بلغ أقصى ما يمكن أن يصل إليه علم وضعى من الدقة واليقين • • علم تبقى هذه النسبة من حق التفكير التى ترجع لكونه من إنشاء بشر يجوز عليهم الخطأ والنسيان ، وصلى الله عليه وسلم القائل : ﴿ إِنّمَا أَنَا بِشَرِ مَثْلُكُمُ أَنْدَى كَمَا تَنْسُونَ ، فإذا نسيت فَذَكُرُونَى • • • •

هذه النسبة من حق التفكير هي التي تؤكد ملاحية الإسلام لكل رئمان ومكان . . فنحن لا نسير مقيدين بأغلال النصوص . . .

ومن هنا نتبين أن الدعوة لرفض السنة ، هي دعوة لإلغاء حرية الفكر في الإسلام ، أو دعوة مشبوهة لما يسمى بالفصل بين الدين والحياة . .

غير أنى لا أقف فى هذا الحديث عند ضرورة التفكير فى نصوص السنة . . بل أقف عند جانب آخر من روعة هذا التراث .

فكما قلمنا إن السنة هي إجابات الرسول على أحداث محدودة الزمان والمكان . . فكيف يكر أن نستفيد بها نحن مع إختلاف المكان ، ونأى الزمان ، واختلاف ظروف الحياة . ؟

انضرب مثلاً ، ونستغفر الله الذي لا يستحى أن يضرب مثلاً . ما بعوضة فما فوقها :

البترول . . موجود مر قبل ظهور الإنسان ، وكان الهنود الحمر يستخدمونه كدواء مسهل . . وكان الناس في العصوز الوسطى

لا ينتفعون منه إلا بالقطران يرصفون به أو يداوون به جرب الابل. وفي بداية القرن العشرين استخدموه كوقود في لمبات الجاز . . اما الآن. فيصنع منه بادفان وطعام وملابس . . ولاحد لما يمكن أن يستخرج منه جهد الإنسان وفكره . .

وكانت نيران الفرس التي لاتنطق هي آبار بترولهم تشتعل . . وكان الفرس المجوس سعداء بذلك إلى حد الامتنان بعبادة هذه النار والفزع من انطفائها . . ولكن احفاد هؤلاء الفرس اليوم يفزعون لوشبت النار في بئر بترول لاخوفا من ردة إلى المجوسية ، بل خوفا على شكل الانتفاع الجديد من البترول . .

ولاشك أن المادة المكونة للبترول لم تتغير عبر هذ القرون ، ولكن معرفتنا هى التى تتغير وحاجتنا إليها هىالتى تطورت .. وانتفاعنا بها هو الذى يتبدل ويتقدم . .

فسنة رسول الله وأفعاله قد لبت حاجة الزمان والمـكان اللذين. عاصرا الرسالة ، ولكنها ـ اى سنته ـ تحمل من الحير والهدى والقيم ماتستطيع شتى الاجيال أن تصل إليه، وتثرى به حياتها، وتنير طريقها .

وقدكان السلف الصالح من المسلمين ، رائعين فى موقفهم من إثبات. السنة ، فلم يقيموا من أنفسهم أوصياء على الاجيال القامة يتخيرون. لها ما يليق وما لايليق . .

أن عمر رضى الله عنه القائل: ﴿ لَا تَخْلَقُوا أُولَادُكُمْ بِاخْلَاقَكُمْ

فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانه كم ، كان يعبر عن وعى هذا السلف بسنة التطور ، وبحق كل جيل أن يفكر فى حدود احتياجات عصره وقيم عصره .. ولو أقام هؤلاء من أنفسهم رقباء على الأجيال فتخيروا لنا وحذفوا ، لفرضوا بصات تفكيرهم واجتهادهم على التاريخ الإسلامى كله .. بل ولطوقوا حركة هذا التاريخ بقيود قيمهم . وما وسعهم فهمه .. ولفرضوا قيود الزمان والمهكان على رسالة أريد لها الخلود في كون متغير الزمان لا نهائى المهكان ..

ولو أنهم جمعوا كل ما وصل إليهم من روايات واثبتوه دون نقاش وألغوا عقولهم ، مسلمين بصحة كل ما وصل إليهم ، لسقطوا في الجانب الآخر من الخطأ .. وهو إلغاء حتى المناقشة والاعتراض.. حتى الاجتهاد والاستنباط والقياس ..

ولكنهم أختاروا أسلم الطريقين فاثبتوا كل ما وصل إليهم من روايات ، فابقوا التراث سليا كاملا .. ثم أعملوا عقلهم ومنطقهم فقبلوا ما اقتنعوا وآمنوا به ، وشكوا فيالم تثبت صحته بالدليل القاطع ، ورفضوا ما ثبت لهم بطلانه ، بادلتهم العلمية المتاحة لهم .. وبمنطق فهمهم لروح الدين .. ثم تركوا لـكل جيل أن يدلى بدلوه ..

ومن هناكنا مكلفين أن لا نقف عند الابعاد العارضة للحادثة موضوع الحديث . . بل علينا أن ننمى مداركنا ونعيد المحاولة كى نحقق أنصى درجات الفهم والهداية . . خذ مثلا حادث السحر . . فقد تردد الحديث عنه ، لا قول أخيراً عناسبة ما كتب ، بل منذ بداية كتابة علم الحديث وأنكره جانب كبر من العلماء . .

وحديث السحر في شتى الروايات عن عائشة وعن عمر مولى غفره، وعن عمر بن الحاكم، أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر النبي، ثم أن جبريل وميكائيل عليهما السلام . أخبرا النبي بذلك فدعا جبرابن إياس الزرق، وهو أحد الذين شهدوا بدرا، فدله على موضعه في بئر ذروان فخرج جبير حتى استخرجه ، وقيل ان الذي استخرج السحر قبس بن محصن .

فقالت عائشة يا رسول الله : فأخرجه للناس ..وقالت الاتحرقه ... (أى السحر) . . ألا تقتله ؟ (الساحر) فقال . . لا أفتح على أمتى . بابا للشر . . أوكرهت أن أثير على الناس شرا . .

وفى حديث زيد بن أرقم : فما حدث به ولا رئى فى وجهه ! ،

وعن « الزهرى » فى ساحر أهل العهد قال : ولا يقتل . . فقد . سحر رسول الله رجل من أهل العهد فلم يقتله ،

وبرى النووى أن السحر ليسكفرا فى حد ذاته ولكن يعتبر. كفرا ، إذاكان ضن طقوسه إجراءاتكافرة ، وقال و لا يقتل عندنا . وقال مالك الساحر كافر . . ويقتل بالسحر ، .

وقال النووى , وعندنا ليس بكافر ، فإذا ثبت أن الساحر قتل. إنسانا بسحره ، واعترف أنه مات بسجره وأنه يقتل غالبا لزمه القصاص. وقال أصحابنا ولا يتصور القتل بالسحر بالبينة وإنما يتصور باعتراف الساحر . .

واول ساحر قتل فى الإسلام، هو ذلك الذى جاء ذكره فى حادثة جندب بن كعب بن عبد الله ، وسبب ذلك أن الوليد بن عقبة بن أبى معيط لماكان أميرا على الكوفه ، حضر عنده ساحر فكان يلعب بين يدى الوليد ، ويه أنه يقتل رجلا ثم يحييه ، ويدخل فى فم الناقة ثم يخرج من حيائها ، فاخذ سيفا من صيقل واشتمل عليه وجاء إلى الساحر فضربه ضربة فقتله وقال : أحى نفسك ، ثم قرأ : د اتا تون السحر وأنتم تبصرون ، فوضع فى السجن فلما رأى السجان صلاته وصومه خلى سبيله ، فاخذ الوليد السجان فقتله ، وقيل بل سجنه حتى . أتاه كتاب عثمان بإطلاقه ، وقيل بل حبس الوليد جندبا فجاء أخوه فاخرجه فانطلق إلى أرض الروم ، فلم يزل يقاتل بها المشركين ، حتى . مات لعشر سنوات مضين من خلافة معاوية . . .

اعترف انني توقفت عند ما قرأت الحديث . .

كيف يسحر رسول الله ؟

كيف يتقبل عقل علمي السحر؟ . .

بل إن , ماكس ويبر ، يستشهد بحديث السحر على أن الإسلام,

يفتقر إلى المقلانية ، ومن ثم لا يستطيع أن يبنى المجتمع الصناعى ا

مم عدت اقرأ الحديث . . ولنقرأه معا :

• الفعل قد تم .

لبيد بن الأعصم مارس السحر ضد رسول الله ، والدليل عليه "لا يقبل الشك أو الطمن ، فهو بشهادة رسول الله عن تبليغ من جبريل وميكائيل . . شاهدان يرجمان أهل الأرض جميعاً . .

فالشهادة جاءت مر نفس المصدر الذي يرجع إليه ديننا كله.. فا من مسلم أو مسلمة يحق لهما أن يتشكسكا في جريمة لبيد بن الأعصم، بعد أن يشهد رسول الله نقلا عن جبريل ..

الدليل المادى على صحة تبليغ جبريل قد وجد وهو أشياء تستخدم عادة فى السحر ، مطمورة فى البئر .

افترح على رسول الله أن يحرق مادة السحر لكى يبطل مفعولها ، وبالطبع كان سيصاحب الحرق بعض الطقوس ، من المؤكد أنها ماكانت لتكون من طقوس الوثنية ، أو فيها ما يغضب الله . . بل تلاوة لآيات من القرآن وبعض الدعاء .

رفض رسول الله رفضا قاطعا أن تجرى هذه الطقوس، وقال: لا فتح على امتى بابا للشر. . والرسول هنا يتحدث عن الشر الذى ياتى لا من السحر الأسود، بل من فعل ابطال السحر. . إذا ما اتخذ شكل طقوس معينة ، فهنا أبصر صلوات الله عليه إبسيرة النبوة ، أى شر يمكن أن يفتح على أمته لو أصبح إبطال السحر إسنة عن نبيهم . .

أى حرفة ستنشأ تحت اسم: وإبطال السحر ، أى قلق سينتاب الناس طالما أن السحر الموجه ضدهم لم يبطل . أى ثقل ستكتسب عملية السحر ذاتها ، من خلال الإيمان بضرورة إبطالها بأفعال مادية وغير مادية . . فذلك وحده دليل لايدحض على تأثيرها . . وخطورة الستمرار هذا التأثير . .

كل هذا أغلقه رسول الله برفضه إجراء طقوس ..

- فما ذكره له رسول الله ولا رآه فى وجهه . . أى أن رسول الله لم يواجه مرتكب فعل السحر بأى اتهام ، ولا عبس فى وجهه ، ولا بدا عليه أية ملامح تشير إلى اتهام . .
  - الساحر لم توقع عليه عقوبة ، ولاوجه له اتهام، ولاحتى عومل بنفور . . ورفض رسول الله أن يقتله حتى لا يفتح بابا للشر!

وقد استند فقهاء المسلمين إلى ذلك فى عدم قتل الساحر . . والذى قرر قتله ، لم يقتله لآنه ساحر بل لآنه كافر . . وقال الآخرون أنه إذا استخدم فى سحره ما يفضى إلى الكفر . . كان مرتدا . . والصحابي المذى قتل الساحر قتله لآنه قال أنه يحيى الموتى وألقت السلطة الاسلامية القبض عليه ، وأودعته السجن ، لولا أنه هرب بمعونة أخيه ،

۳۳ — الحق المر)

أو بمعونة الحارس إلى الشام حيث مات فى جهة القتال . . وتذكر أن القاتل المقبوض عليه صحاف . . والساحر شخص بجهول لعله من الفرس اسلم أو لم يسلم . . ومع ذلك لم تتردد السلطات الاسلامية فى القبض على الصحابى . .

ونستطيع أن نستخلص من الحديث مبدأ تشريعيا عاما ، وقاعدة قانونية خاصة . . فرغم ثبوت التهمة دينيا بطريق القطع . • إلا أنها تفتقر إلى الدليل المادى . . إلى دليل أرضى . . فأدلة الإثبات مهاوية كلها ، وهي تبليغ جبريل إلى الرسول بأن ذلك السحر من فعل لبيد بن الأعصم ، ثم إرشاده إلى جسم الجريمة المدفون في البئر والذي شم ضبطه . .

ولكن منحق المواطن اليهودى أن يشهر فى وجه العدالة الاسلامية دفاعا بطلب دليل مادى يثبت أن هذا السحر الموجود بالبئر يخصه ومن فعله . . ومن حقه أن يطلب جبريل الى الشهادة ويخصمه . . ومن حقه أن يطلب جبريل الى الشهادة ويخصمه . . ومن حقه أن يطعن فى شهادة رسول الله فهو لا يؤمن بأنه رسول الله ، وقد كفل له الإسلام حرية العقيدة ، فليس لنا أن نجبره على التسليم بصدق من لايؤمن به . .

إذن فلا دليل ماديا يبيح لعدالة الاسلام أن توقع عقوبة مادية ٠

فادامت الآدلة من الساء . . فلتكن العقوبة فى السهاء . . وليس. من حق العـــدالة الاسلامية أن تعاقب ولا أن تتهم ولا أن تتجافى لمواطن يهودى يستظل بعدلها ، مادامت لاتملك دليلا ماديا من أدلة هذه الأرض . .

وبعد هذا الحديث بمشرة قرون كانت أوروبا تشهد حرق الساحر والساحرة أحياء كاحتفالات روتينية 1 ، وربما لايزيد الدليل عن وجود مقشة أو تقوس بأنف الضحية يكنى لإدانتها بالسحر 1 . .

والقضاة الانجليز، أدانوا، وضميرهم مستقر، جان دارك بالسحر بينها رفض الفقهاء ثبوت تهمة القتل على الساحر إلا بالاعتراف... لاستحالة توفر دليل مادى على القتل بفعل غير مادى بمقاييس ذلك العصر ٢...

نظلم أنفسنا إن وقفنا من الحديث عند التساؤل . . هل سحر رسول الله أو لم يسحر . . فالسحر مازال يمارس إلى الآن . . فهو كخرافة أو كحقيقة موجود في المجتمع . . والحديث لايدفع أى مسلم للخوف من السحر أو الإيمان به أو الاشتغال به فقدد رفض الني كارأينا أن يقوم بأى طقوس لفك السحر . .

<sup>(</sup>۱) فى الفترة من ۱٤۸٠ إلى ۱۷۸۰ قتل فى أوروبا ثلاُعائة ألف سيدة على زعم أنهن ساحرات .

<sup>(</sup>الاهرام ۸/٦/۸۱ صفحة ۱۰)

 <sup>(</sup>۲) إذا اعتبرنا أن التأثير النفسى أو الايحاء فعل مادى • • بعد تقدم
 علم النفس •

ولكن أبعاد الحديث أعمق وأبعد من هذه القضية . • فإنه كما رأينا يضع الأساس في وقاية المجتمع الاسلامي من فتنةالسحر. • وأعنى المواطنين الابرياء من أن تنكل بهم غوغائية الجماهير ، أو أحقاد السلطة باسم السحر . •

انه قمة خالدة فى الشرعية. . فى الأركان الواجب توافرها للادانة . . فى المساواة المطلقة أمام القانون . .

ان هذا الحديثهو أساس المبدأ القانونى الرائع و لايقضى القاضى بعلمه ، فرسول الله خير من علم وأعدل من قضى . . ولكنه لايقضى بعلمه . . ولا ينزل عقوبته بمواطن يهودى . .

كم من اليهود أعدموا وسجنوا فى حضارة القرن العشرين فى الغرب لجرد أنهم يهود ١٠٠ بل كم من اليهـــود أدينوا بلا دليل إلا كونهم يهودا ٠٠٠

أى قمة تسمو بها حضارتنا فى هذا الحديث ، وبعض الدول تعاقب على التعرض لرئيس الدولة بالإشارة 1

ولكن محمدا رسول الله لم يجد نصا قانونيا يبيح له أن يعبسفوجه من مارس السحر ضده !

لاحد لل يمكن أن تكتشفه البشرية فى تقدمها من قيم فى سنة رسول الله . .

وبعد

\* \* \*



## من أحوال المصطفى



سئلت عائشة أم المؤمنين وزوجة رسول الله :

« كيف كان رسول الله في بيتة ؟ أ»

فقالت:

«كان بشراً كالبشر يصلح نعله ويرقع ثوبه ويخدم نفسه » نعم كان صلى الله عليه وسلم ، بشراً كالبشر ، وتلك هي معجزة السماء . . ولكن البشر كل البشر ليسوا كمحمد بن عبد الله . . وحسب البشرية أملا في الاستمرار والارتقاء . . أن يحاول البشر الاقتداء بسيرة رسول الله . .

ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتنيما فى يوم الاثنين ١٢ ربيع «الأول الموافق ٢٩ أغسطس سنة ٨٠٥ ميلادية .

وكان عليه الصلاة والسلام متوسط الطول . . ليس بالقصير ولا بالمفرط الطول . . كبير الرأس . . بوجهه بعض الاستدارة . . عريض الجبين يوشك حاجباه أن يلتقيا ، بينهما عرق ، إذا غضب انتفخ واحمر ، أسود العينين ، في سوادهما شيء من الحمره ، طويل رموش العين ، شديد سوادهما ، بأنفه تقوس . . حسن الثغر . . . أفلج . . كبير الفم . . عظيم اللحية ، متموج شعر الرأس . . طويل الدراءين . . دقيق الساقين . . أبيض اللون مشربا بحمرة . . . مشدود العضلات . . ليس في جسده استرخاء ولا ترهل . .

كان إذا غضب احمر وجهـــه . . وإذا حزن أكثر من مس لحيته . . وإذا تـكلم أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها . . وإذا

- استغرق فى الحديث ضرب راحة يده البينى ببطن إبهامه اليسرى • وإذا رأى ما يكره أشاح بوجه وإذا عطس غطى وجه •
  - ﴿ وَكَانَ يَضْحُكُ حَى تَبِدُو نُواجِدُهُ . وَكَانَ أَكَثَرُ النَّاسُ تَبْسُمَا . .



وكان فى طعامه لا يرد موجوداً ولا يتكلف مفقوداً ، فما قرب. إليه شىء من الطيبات إلا أكله . إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير. تحريم . وما عاب طعاما قط . إن اشتهاه أكله وإلا تركه . .

كان يحب الحلو البارد . . ويحب العجوة . ، ويأكل البطيخ بالرطب والفثاء بالملح . . وكان يفطر في رمضان على الرطب ـ البلح المرطب ـ فإن لم يجده فعلى جرعة ماء .

وكان يأكل بثلات أصابع . . ولا يأكل متكثا . . بل قال أنا أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد . . كان يجلس على الارض . .

كان قدحه من خشب غليظ مضبب بحديد . . وأرسل له المقوقس. قدحا من زجاج فكان يشرب فمه

كان إذا سقى أصحابه شرب آخرهم . . وإذا شرب أولهم أعطى. الذى على يمينه كائنا من كان الذى على يساره . .

وإذا لم يجد الطعام صبر حتى إنه ليربط على بطنـــه الحجر ...من الجوع . .

كان يعمل فى حفر الخندق يوم غزوة الآحزاب ، فرأى صحابته الحجر على بطنه من شدة الجوع .

ما شبع من خبر القمح ثلاثة أيام متتالية حتى فارق الدنيا . . ولا أكل خبراً منخولاً منذ أن بعثه الله نبيا إلى أن توفى . . أما الشعير فيكانوا ينفخونه بالفم .

وكان يمر عليه الشهر لا يجد ما يخبزه . . ويمر عليه شهران لايوقد على بيته نار . . أى لا يطبخ

, ولكن كان لنا جيران من الانصار نعم الجيران . . كانوا . . . يهدوننا بعض الطعام . . .

وقالت عائشة أيضاً . . : « لوكان لدينا مصباح . . لا كلناه ، الله كلت ويت المصباح

,كنا نعيش على انتمر والماء،

وصلى عليه الصلاة والسلام، مرة، جالسا من شدة الجوع قدموا له عصير اللوز: فقال أخروه عنى، هذا شراب المترفين. وتوفى ودرعه مرهونة عند يهودى، اشترى منه ثلاثين قدحا من الشعير أخذها لطعام أهله. وبعث يشترى من يهودى ، على أن يؤجل الدفع ، فرفض أن. يبيعه . . وقال ما لمحمد زرع ولا ضرع فن أين سيسدد ؟

لم يكن لديه قط قميصين معاً ، ولا ردائين ، ولا ازارين ولا نعلين. أحب الثياب إليه القميص ، وكان عنده قميص من القطن قصير. الـكمين إلى الرسغين واسعهما ، فوق الـكعبين.

وأهدى إليه من الشام جبة وخفان فلبسهما حتى تمزقا . . وحجج: فى قطيفة لاتساوى أربعة دراهم .

كان يلبس الصوف ـ أرخص شيء وقتها وأكثره إيلاما للجسد ـ. ويخصف النعل ويرقع القميص ، ويركب الحار .

وكانت له حصيرة ينام عليها . . ويبسطها فى النهار فيجلس عليها . ونام عليها حتى أثرت فى جنبه .

وكانت له مخدة من جلد حشوها ليف ، واحيانا ينام على عباءة. تشى مرتين . . فطوتها زوجته حفصة ؛ مرات . . فلما نام عليها ، كان من لينها ورفاهيتها أن استغرق صلى الله عليه وسلم فى النوم حتى . فاتمته صلاة الليل . . فنهى « حفصة ، عن ذلك وأمرها أن تعيد العباءة ، إلى وضعها الأول . .

ورأت امرأة من الانصار ماينام عليه فأهدته مرتبة من الجلد حشوها صوف . . فأمر عائشة بأن تردها . . أمرها ثلاث مرات . . وعائشة أم،

المؤمنين وزوحة رسول الله تقول: وفلم أزَّدها حتى أمرنى ثلاث مرات ... لانني كنت أحب أن يكون في بيتي مثل هذا! . . .

اشتهت زوجة سيد الحلق أن يكون فى بيتها مخدة من جلد حشوها الله صوف . . فنهاها رسول الله دفعا للترف ا

وكان إذا نام يضع يده تحت خده وينام على جنبه الآيمن .



ولم يكن يحب الفقر . . ولا يرضى به . . وكان فى دعائه يستعيذ منه ، رأعوذ بالله من الجوع ضجيعاً . . ، وكان يستطيع أن يملك شروة جزيرة العرب كلها .

وكان يعطى كما وصفه أعرابى: «عطاء من لا يخشى الفقر» ولو احتفظ بنصيبه فى الغنائم كائى فرد من جيشه لـكان من أغنياء العرب.

ولكن مادامت البشرية قد كتب عليها أن تعيش قروناً عديدة وفيها الفقر والغنى . . فير نظام تصل إليه . . هو ذلك الذى يجعل حكامها فى جانب الفقراء . .

فما أبشع أن تجتمع السلطة والغني في جانب واحد . .

وما أبشع أن يستأثر المترفون بالسلطة . . أو أن تستأثر السلطة بالرفاهية . .

\* \* \*

كان يحب النظافة وحسن المظهر . . ينامأول الليل ، ويستيقظ في أول النصف الثاني فيستخدم السواك , فرشة الاسنان ، ويتوضأ ويصلي .

وكان إذا خرج للقتال أعدت له عائشة ما يحتاجه في سفره . • فتضعدا عطرا) ومشطا ومرآة ومقصين ومكحلة وسواكا . •

وكان له خانم من فضة كتب عليه:

الله

رسول محمد

وهو الذى حمله أبو بكر ثم عمر . . ثم عثمان ست سنوات حتى وقع منه فى بئر أريس . وفشلت كل الجهود فى استخراجه رغم قلة الماء فى البئر . . فتشاءم المسلمون . . وأدركوا أن الحكم لابد له من أن يقع فى الشر . . وما كان خاتم رسول الله ليـــوقع به شر

(م ٤ - الحق المر)

29

الحاكمين . . فذهب وذهب معه حام لولا أنه حفظ بكل دقائقه ماصدق البشر . . أن بشرا عاشوا مثل هذه الآيام . .



كان يسهر يسمر مع زوجاته ليلا . . ويحلس بعد صلاة الفجر مع أصحابه إلى صلاة الصبح . فيذكرون حديث الجاهلية فيضحكون ويبتسم كان يمزح مع أصدقائه . . كان له صديق بدوى يأتى لزيارته مرة كل سنة . . فرآه الرسول في السوق . . فجاء من ورائه وغطى عينيه وقال من أنا ؟

وتسابق مع عائشة وهى صغيرة فسبقته . . فلما كبرت وامتلات وزنها سابقها فسبقها . . فقال : هذه بتلك . . أىواحدة بواحدة وكان يخرج لسانه لحفيده الحسين فيضحك الحفيد . .

وقال : إنى أتزوج النساء وآكل اللحم وأنام وأقوم وأصوموأفطر فن رغب عن سنتي فليس مني .

ناداه رجل یاسیدنا و ابن سیدنا وخیرنا و ابن خیرنا . . فقال ت لایستهوینکم الشیطان . . أنا محمد بن عبد الله . . عبد الله ورسوله . . والله ما أحب أن ترفعونی فوق منزلتی . وكان أصحابه إذا رأوه قادما عليهم لم يقوموا إليـه وهو أحب الناس إليهم . . ولما يعرفون من كراهيته لقيامهم .

وكان يكره أن يمشى أصحابه وراءه . . ويأخذ بيد من يفعل فيدفعه إلى السير بجانبه .

رآه رجل فارتعد . . فقال رسول الله : هون عليك فإنى لست ملكا . . إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد . .

كان لايأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الارملة والمسكين فيقضى حاجته . . وكان يخصف حذاء الرجل المسكين . . ويخيط ثوب الارملة

كان يعود المريض . . حتى غلاماً يهودياً كان يخدمه . .

وماكان يغلق دونه الأبواب ، ولا يحول دون مقابلته حجاب . ولا يغدى عليه بالجفان ، ولا يواح عليه بها . . كان من أراد مقابلة هي الله يقابله . .



كان يحب لامته أن تنتقد . . وأن تطالب بحقها ، وأن تعترض ، وتبدى رأيها في ماينفعها ، وما يريها من سلوك الامراء . .

كان يهشى وقد لبس ثوباً غليظاً فجــاء أعرابي فجذبه من الثوب بعنف فاعر حرف الثوب الغليظ في عنقه حتى ترك أثراً واضحاً به . وصاح الاعرابي : يا محمد ، أعطني من مال الله الذي عندك . فضحك رسول الله وأمر له بعطاء .

وجاء يهودى فجدب رداءه حتى سقط عنه ، وقال ادفع دينك يامحمد فقد اشتهرتم يا بنى عبدالمطلب بالمماطلة . فارتعد عمر من الغضب وقال للرجل أتقول هذا ياعدو الله لرسول الله ؟ فابتسم الرسول وقال : أنا وهو أحوج إلى غير هذا الاجدر أن تامرنى بدفع الدين ، وتأمره بحسن المطالبة به . وتعينه على تحصيل حقه . اذهب وادفع له حقه وزده عشرين صاعا من التمر .

وعندما جلس يقسم الأموال فى غزوة حنين اعترض أعرابى فقال، هذه قسمة لاعدل فيها . . ولا أريد بها وجه الله ، وصاح فى وجه النبى اعدل يامحمد . فقال النبى : . و من يعدل إذا لم أعدل . وإذا كنت لااعدل فقد خبت اذن و خسرت ، واستأذن عمر فى قتل الرجل . فقال الرسول : . معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى » .

دفعرجل فى بطنه بجريدة من النخل ، فجاء الرجل يطلب أن يقتص، فكشف النبي بطنه للرجل وأعطاه الجريدة ليضربه بها فقبل الرجل بطن النبي وقال : د بل أردت أن يرتدع الجبابرة من بعدك ، وداس أعرابى على قدم الرسول أثناء الحرب فضربه بالسوط، فلما انتهت المعركة دعاه وأعظاه السوط وطلب منه أن يجلده، فاستعاذ الرجل أن يجلد نبيه فطلب منه الذي أن يعفو عنه.



كان يكره أن ينقسم الجدّمع على نفسه أو تفترسه الطبقية أو الذل ، أو الوشاية والتجسس .

قال :

د من اطلع في بيت قوم بنير إذنهم ففقاًوا عينه ... فلا دية له ولا قصاص. ..

قال:

« لايبلغنى أحد منكم عن أحد ،ن أصحابى شيئًا . . فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر »

قال:

داياكم والظن ، فان الظن أكذب الحديث . ولاتجسسوا ولاتحاسدوا ولاتباغضوا .. وكونوا عباد الله إخوانا، .

قال:

المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ، ولا يحقره ٠

بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه ..

•ن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته .

ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة .

ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة. . .



كان يكره أن يذل الإنسان نفسه بالاعتراف ، فنهى عن أن يفضح نفسه وقد ستر الله عليه . .

جاءه ما عز بن مالك . . وكان يتيا رباه هزال الاسلى بوصية من أبى ما عز ، فلما بلغ مبلغ الرجال جاء ماعز وصيه فقال له إلى كنت أحب امرأة فنلت منها . . وقد ندمت على ما فعلت فا رأيك فأمره أن ياتى رسول الله ، فيخبره . .

ففعل . .

فيراجعه رسول الله . لعلك قبلت . . لعلك غمزت . . والرجل يصر على أنه زنى أربع مرات

فيسأله رسول الله بصريح العبارة وكان يكنى دائمًا ، فاعترف الرجل. فعاد يسأله أسئلة دقيقة تفصيلية لعل الرجل يجد مخرجا يعفيه . ... أو لعل القانون يجد مخرجا له..ولكن ماعزا يصر . .

فعاد رسول الله يسأله : هل تعرف ماهو الزنى ؟

فيسأله رسول الله . وأبك جنون ، . . ويسال أصحابه ، فينفى الرجل . . وينفى أصحابه . .

فيسأل رسول الله . . . فاذا تريد بهذا القول ؟، يقول ماعز . . . أديد أن أتطهر بالعقاب .

ويشرع رسول الله أن هذا المعترف لو أنكر عند بد. التنفيذ أو هرب منه . . وجب إيقاف التنفيذ . .

ولما عاب بعضهم صنيع ماغز . . قال رسول الله لقد تاب توبة الوتابها طائفة من أمتى لاجزت عنهم .

وقال رسول الله للوصى : , ياهزال بئس ما صنعت بيتيمك ! «لو سترت عليه بطرف ردائك لـكان خيرا لك » .

وهو القائل: «ادرأوا الحدود بالشبهات» أم القاعدة القانونية الحديثة: «الشك يفسر لصالح المتهم».



كان يحب المرأة . . إنسانه . . وأما . . وزوجه . . وبنتا . . هوشريكة في الحياة . .

سئل: من أحق الناس بمودتي:

قال: (أمك . . ثم أمك . . مم أمك ثم أبوك ،

وقال:

من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما ، فات فدخل النار
 أبعده الله ،

وقال:

« لم نر للمتحابين مثل الزواج »

وأمر الذين سألوه . . أن يزوجوا ابنتهم للفقير الذي تحبه لا للغنى الذي يريدونه هم . .

وكان صلوات الله عليه يقبل عائشة ، وإذا شربت من الإناء أخذه هوضع فمه في موضع فمها وشرب . . وكان يتكى، فى حجرها ويقرأ القرآن ورأسه فى حجرها وكان. يقبلها وهو صائم . .

وزاحمته على الخروج من باب المنزل .

وغضب مرة مع عائشة فقال لها هل ترضين أن يحكم بيننا أبو عبيدة. ابن الجراح . فقالت : لا،هذا رجلان يحكم عليك لى ..

قال هل ترضين بعمر ؟ قالت لا . . أنا أخاف من عمر . .

قال هل ترضين بأبي بكر (أبوها).. قالت: نعم!..

فجاء أبو بكر ، فطلب منه رسول الله أن يحكم بينهما . . ودهش. أبو بكر وقال أنا يارسول الله ؟ ! . .

مم بدأ رسول الله يحكى أصل الخلاف . .

فقاطعته عائشة قائلة وأقصد يارسول الله، أى قل الحق . • فضربها أبو بكر على وجهها فنزل الدم من أنفها ، وقال : فن يقصد إذا لم يقصد رسول الله ، فاستاء الرسول وقال ماهذا أردنا . . وقام فغسل لحا الدم من وجهها وثوبها بيده .

وكان إذا غضبت زوجته وضع يده على كتفها وقال اللهم اغفر لهـا ذنبها وأذهب غيظ قلبها ، وأعذها من الفتن .

وتغضب عمر على زوجته ، فراجعته . فأنكر أن تعارضه ، فقالت وجته لماذا تنكر أن أراجعك ، فوالله إن زوجات النبي

حلى الله عليه وسلم ، ليراجعنه . وتهجره إحداهن إلى الليل . . .

وكان إذا دخل على أهله ليلا سَلم تسليماً لا يوقظ النائم ويسمع اليقظان وكره أن يفاجىء الرجل زوجته إذا عاد من السفر فجأة . . بل يبعث لهما من يبلغها بوصوله . .

واتمكائت عائشة على كمتفه تتفرج على رقص وغناء بعض الاحباش حتى سئمت .

دمن ربی بنتین جاء یوم القیامة أنا وهو . . ، وضم أصابعه أی . ...متساویین . أو متجاورین .

رفض أن يعزل (أى منع الحمل) . . إلا بموافقة المرأة . فليس من حق الرجل أن يتخذ هذا القرار بمفرده ؛ ولا له أن يتصور المرأة بجرد أداة لاشباع رغبته الجنسية ، وليس ثمة إهانة لامرأة أكبر من رجل لا يريدها أن تحمل منه وهي تريد . .

قال و الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، قال و ان من أثر الناس عند الله منزلة يوم القيامة ، الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ، ثم ينشر سرها . .



كان رقيق القلب شفيقا ، محبا لاهله وأحمدقائه والابرباء الذين. لم يرهم .

لما أصيب زيد بن حارثة ذهب لزيارته ، فبكت ابنة زيد ، فبكى رسول. الله . وتساءل بعض أصحابه عرب بكائه فقال هذا شوق الحبيب إلى حبيبه . .

وحضر وفاة حفيدة له فدمعت عيناه .

واشتكى سعد بن عباده فلما دخل عليه رسول الله بكي . .

وقبل سعد بن مظمون عندما أصيب وبكى بكاء طويلا . .

وسمع من رجل كيف وأد (قتـــل) ابنته فى الجاهلية . . فبكى رسول الله حتى صاح الجالسون فى الرجل : أحزنت رسول الله . . . فنهاهم الرسول ، وطالبه أن يميد القصة . . وبكى الرسول حتى نزلت دمعة على لحيته . .

وعاش ابنه إبراهيم حتى بلغ ١٨ شهرا ، وكان يحبه ويصعد إلى الجبل. ليراه عند مرضعته وهي زوجة حداد . . ويقبله ويلاعبه . .

وكان فرحا به . . رزق به فی شيخوخته . . وما كان له من صبية - ذكور ا غيره ، ثم أدركه وهو يموت ، فجعلت عينا رسول الله - تذرفان الدمع .

## وقال:

إن المين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ...
 وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون ،

وكسفت الشمس ، وقال المسلمون الذين رأوا حزن نبيهم · · · · « الشمس كسفت لموت إبراهيم » ، · ·

فسارع إلى المنسبر يخشي الفتنة على أمته فقال : ﴿ إِنَّا الشمس.

<sup>(</sup>۱) اعتقد ـ وأستغفر الله قبل القول وأرجو أنّ بردنى من له علم ــ أن الرادة الله شاءت الا يكون لرسول الله أولاد ذكور وقضى الله بذلك قبل أن يولد إبراهيم في الآية الـكريمة « ماكان محد أبه أحد من رجالهم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . فلو عاش إبراهيم وأصبح من رجال المسلمين لنسخت الآبة . .

و بقدر ما هي معجزة آلهيه صدرت قبل مولد إبراهيم. وصدقت بعد نزولها بسنين . . فهي أيضا تفتح باباً لا نهاية له للحديث عن موقف الإسلام بما يسمى. بالقدر والمكتوب . . فإن هذه الآية المتضمنة للحكم قاطع ، لم تمنع رسول الله من. أن يفرح بابنه وبرجو له أن يعيش ويحزن على موته . .

والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته .

قال:

هِن كَانَ يُؤْمَنِ بِاللهِ وَاليُّومُ الآخرِ فَلْيَكْرُمُ ضَيْفُهُ ، وَلَيْكُرُمُ جَارِهُ ،



جاء يدعونا للعزة . . فاما أن نعيش كراما ، نمارس الحق ، وتحميه ، ولنا اليد العليا ، والعزة في أرضنا وديننا . . أو نموت شهداء مدافعين عن الحق . . عن اوطاننا ، وما أعظم مكانة الشهيد ، ومكانة المقاتل في سبيل الحق . .

قال , إن الله تعالى يقول ما من عبد من عبادى خرج مجاهدا فى سبيلى إلا ضمنت له أن أرجعه مأجورا غانما. . أو شهيدا أغفر له وأرحمه وأدخله الجنة ،

وقال رجاهدوا فى سبيل الله فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، ينجى الله به من الهم والغم ،

وقال: , من جاهد فى سبيل الله فأنا أضمن له بيتا فى أعلى غرف الجنة . . .

- « من أرسل نفقة في سبيل الله فله بكل درهم سبعائة درهم »
- من أعان بجاهدا في سبيل الله أظله الله يوم لاظل إلا ظله .

40

(م ٥ - الحق المر)

## من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمها الله على النار ،

دمن جرح فى سبيل الله ختم له بخاتم الشهداءله نور يوم القيامة . . ويأتى جرحه له لون الزعفران وريح المسك يعرفه بها الاولون والآخرون ويقولون فلان عليه طابعالشهداء. .

وقال: «رباط يوم ـ يعنى اتخاذ موقع فى مواجهة العدو والسهر على حراسة الموقع ـ فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها . . ، « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه . .

مقام أحدكم فى سبيل الله خير من عبادة أحدكم فى أهله ستين سنة.
 من رابط فى شىء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام أجزأت عنه رباط سنة.

وحرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلما (أى.
 في الصلاة ) ويصام نهارها .

« حرمت النار على عين سهرت في سبيل الله » .

« من حرس من وراء المسلمين فى سبيل الله تطوعا لايأخذه النوم لم ير النار بعينيه ،

من تعلم الرمى ( الرماية ) ثم تركه فقد عصاني ،

وعليكم بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، ومن مات ولم يغز أوبجهز غازياً أو يخلف غازيا فى أهله بخير ، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة ،

وقال د إذا ضن الناس بالدينار والدرهم ، وتبايموا بالمين ،

واتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد فيسبيل الله ، أنزل الله بهم بلا. فلم يوفعه عنهم حتى يرجعوا إلى دينهم . . .

الشهيد يغفر الله له فور أول نقطة دم تنزل منه ، ويرى مقعده من الجنة ، يحلى حلية الإيمان ويزوج من حور العين ، ويعنى من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار . ويشفع في سبعين إنسانا من أقاربه .

وقال , ما يجد الشهيد من القتل إلاكما يجد أحدكم من القرصة ،

« ولا تجف الأرض من دمه إلا جاءت إليه حوريتان من الجنة فيأخذان بيده ومعكل واحدة حلة من الجنة ،

الذى لا يفر من العدو ويظل صامدا فى موقعه , أولئك فى الغرف العلا من الجنة ، ويضحك إليهم ربك ولا حساب عليهم . ،

والذى جاهد بنفسه وماله حتى إذا لتى العدو قاتله حتى يقتل . .
 فذاك الشهيد الممتحن فى خيمة الله تحت عرشه لا يفضله إلنبيون إلا بدرجة النبوة .

و إنّ السيف عاء الخطايا ،

وقال , إذا تركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لاينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم .

وفسر صحابته قوله تعالى , ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، بأنها ترك الجهاد . . لأن ذلك يغرى بنا العدو فيأتى ويهلكنا . .

وكان إذا أراد غزوة تحدث بما يفهم أنه يقصد غيرها . . كأن يكون هدفه غزوة حنسين ، فيسأل عن طريق نجد . . ويسكلف من بجمسع المعلومات عن مياهها وطرقها . .

وكان يقول: الحرب خدعة .. وكان يبعث العيون (الجواسيس) يأتونه بخبر عدوه ، ويطلع الطلائع (دوريات استكشاف ) ويبيت الحرس ، وكان يرتب الصفوف عند القتال بيده ويقول تقدم يا فلان . . تأخر يا فلان . . وكان يجعل لا صحابه شعارا يعرفون به إذا تسكلموا . .

وكان يلبس الدرع والخوذة ويتقلد السيف ويحمل الرمح والقوس العربية .

ويأبى على القائد إن لبس عدة الحرب أن يرجع عن قتال العدو . . وكان لايأمر أصحابه بما لا يفعله . . فهو فى الحرب أشجع المسلمين ، وأقربهم إلى صفوف الغدو . .

يقول على بن أبي طالب:

«كنا إذا اشتد القتال نتق برسول الله ، وأشجعنا هو الذى يقترب من هوقمه »

ولما انهزم المسلمون فى موقعة حنين ثبت رسول الله ، وأمر. العباس أن ينادى :

أنا النبي لاكذب

أنا ابن عبد المطلب .

فعاد المسلمون وانتصروا . .

قاتل . . وجرح . . وهزم . . وانتصر . .



## كان يؤمن بالرجال الاحرار الذين يصنعون النصر ٠٠

عندما خرج فى غزوة بدر . لم يخرج حتى استشار المسلمين واستقر رأيهم على القتال والتزموا به . . ولم يكن يرضى بانتزاع الموافقة العلنية من فوق المنبر لما فيه من إحراج . . بل كان فى الجيش نظام العرفاء . . قل ضباطا أو مسئولين سياسيين . . يطلب منهم التعرف على رأى الجنود ونقل رغبانهم التى لايحبون إعلانها أمام الجميع . .

وقاد رسول الله الجيش يوم بدر ، حتى وصل إلى موقع ما فأمرهم أن يعسكروا فيه ويتخذوا مواقعهم . .

وتقدم منه أحد الجنود فساكه: أهذا الموقع هو أمر من الله ليس لنما أن نتقدم عنه أو نتائخر .. أم هو الحرب والرأى والمكيدة . .؟ وربماكان إيمان المسلمين بأن هذا الموقع من اختيار الله ، له تأثيره الفعال في رفع معنوياتهم ، ولكن . . إن سيرة الرسول - كما رأينا - ليس المقصود بها هو الفترة الزمنية التي عاشها الرسول ، بل الزمن الذي ستعيشه الرسالة . .

وأهمية وغزوة بدر, ليست في انتصار ثلثمائة مسلم على تسعانة وخمسين مشركا.. إنها من الناحية العسكرية ، مجرد اشتباك يمكن أن يحدث في أحد أحياء الزنوج با مريكا.. أو إحدى قرى الصعيد ..

في بحد بحياء برموج ب تعريف به بريادي و التي أرستها ، والقيم التي أعرتها .. ومنها هذه القصة :

قال الرسول: «لا. هو الحرب والرأى والمكيدة ، أى من تدبير واختيار رسول الله

ولم يتردد الجندى المسلم .. اعترض .. انتقد ..

قال:

و فليس هذا بالموقع يارسول الله . . انهض حتى تنزل أول الله . . . الخ ، . . الخ ، .

أى اقترح موقعاً آخر يعسكر فيه المسلمون..

ومن المؤكد أن المؤرخ العسكرى كان سيؤيد الرسول ، لو أنه رفض الانتقال . . فهذه أول معركة يخوضها المسلمون . وأول قرار عسكرى يتخذه رسول الله ينتقده ويخطئه جندى عادى فى الجيش ؟ ما تا ثير ذلك على معنويات الجند ؟ . .

ولكن رسول الله يعلم البشرية ، ولمثات القرون والأجيال . . فيبادر قائلا : الرأى ما أشرت به . . انهضوا » . ويصدر أمره فيتحرك الجيش ، ويعسكر حيث أشار الجندى.. وينتصر جيش الاحرار..

كان يا تيه الوحى من السهاء.. وكان كما تصفه عائشة: . مارأيت وجلا أكثر استشارة للرجال من رسول الله..



قالت عائشة مارأيت أحداً شد عليه الوجع من رسول الله .

وكان يدخل يده فى قدح به ماء ثم يمسح به وجهه ويقول اللهم أعنى. على سكرات الموت". .

لما دفن قالت فاطمة ابنته : « يا أنس كيف طابت أنفسكم أن تحثو آ على رسول الله النراب . . .

#### وكان يدعو :

«اللهم إنى أعوذ بك مرس العجز والكسل والجبن والهرموالبخل. وعذاب القبر .

اللهم إنى أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة. . وأعوذ بك من أن ِ أظلم أو أظلم .

اللهم إنى أعوذ بك منقلب لايخشع ، ونفس لاتشبع، وعلم لاينفع ، . ودعوة لا يستجاب لها . . .

آمين يا رسول الله .

وقال من ذكرت عنده إفلم يصل على فدخل النار فأبعده الله . .. وقال من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا . .



حكايات عنعهمر



ما أعظمه من راعٍ . . وما أعظمها رعية . .

وما أصدقها عقيدة أنجبت الراعي والرعية .



إذا كان الشاعر قد رأى أن من أعظم ما يبتلى به الفتى فى أيام محنته > أن يرى حسنا ما ليس بالحسن ! . . فإن أعظم من ذلك بلاء . . أن يرى الفتى ، أو ترى الأمم سيئا ما هو الحسن كل الحسن . . فتتنكر للعظمة فى تاريخها ، وتنوء تحت ثقل ما تظنه نقط ضعف فى فلسفتها . . . وهى القوة كل القوة !

ويفسد خصومها عليها أمرها فيصورون مواقف المجد كأنها قضاياً عجرجة ، ويثيرون شكها في القيم الحالدة التي تنبع منها عظمتها وتشرق. فمها روحها الحقيقية . .

وما أكثر ما زيف خصوم الإسلام تاريخنا ، وما أكثر ما نشروا من بلبلة حول أيامنا الحالدة ، وقيمنا التي ما زالت البشرية تتعثر. عاولة الوصول إلى سفحها . .

وخلال قرون المحنة التي مر بها العالم الإسلامي ، في تخلفه المادي ، وانهزامه أمام حضارة أوروبا ، المنتشية بحديدها ونارها . . ومع

الإحساس بالهزيمة المادية ، استطاع علماء الغرب ومزيفوه أن يشككوا المثقفين المسلمين في كثير من الحقائق ، على نحو جعل هؤلاء ينساقون خلف المبشرين والمستشرقين ، فيشكون في أروع مواقفنا . . وبدلا من أن تكون هذه المواقف حجة لهم على خصوم الإسلام ، اذا بهم بتأثير السم الغربي يتخاذلون إلى حد الشك في هذه المواقف والظن بأنها نقط ضعف تحتاج إلى تبرير . .

ومن هذه القضايا . . قضية الحكومة الإسلامية . . هل كانت عظمة هذا النظام نابعة من قوانينه ومن تكوينه الاجتماعي ، أم من عظمة حكامه وارتفاعهم إلى مستوى فوق طاقة البشر ؟

ومعنى الإجابة على السؤال بالشق الأول منه ، أن النظام صالح اللتطبيق فى ذاته ، جدير بالمحاولة . . أما لو قلمنا إن العظمة ترجع الرجال العظام ، رغم ما فى ذلك من إغراء لما فيه من تمجيد لمؤسسى الدين ورجاله الأوائل . . فإن ذلك يعنى أنه لا سبيل إلى عودة هذا النظام إلا بأن نفتش عن المهدى المنتظر الذي يملاها عدلا بعد أن ملئت ظلما . .

وقبل أن نجيب على هذا السؤال ، يجب أن نقرر حقيقة كشيراً .ما يغفل عنها الدارسون . . ألا وهى نسبية الحسكم على النظم . . فالذين عاشوا أيام النبوة والحلافة الرشيدة ، روعهم الانتقال إلى الحسكم "الاموى ، فانكروه ، وثاروا عليه ، ونقلوا عبر التاريخ غضبتهم هذه ،

حتى ليخيل للدراس اليوم أن معاوية كان طاغية أو حاكما مستبدآ يظلم الأمة ، وينكر علمها حقوقها . .

والحق أن الانتقال إلى عصر الأمويين ، بدا مروعا ومذهلا ولا يمكن قبوله للذين عاشوا عدل عمر وزهد على . .

ولا شك أن الأمر يخالف هذه النتيجة التي نخرج بها من دراسة فترة الصدام الحاد بين الذين أرادوا للخلافة الراشدة أن تستمر ، وبين الذين رأوا أن الناس قد تغيروا ، وأن النظام الكامل لا يقوم على الحكومة الصالحة وحدها ، بل يقوم أولا على رعية صالحة . . وعرفوا أنه لا معنى للعن الدهر . . فإن الناس تفسد وليس الدهر . ،

نخطىء إذ نظلم هذا الحسكم الذى وضع قاعدة ارتباط الحاكم بالمحكومين . . وصور ضرورة هذا الارتباط ومسئولية الحاكم فى المحافظة عليه ، إلى حد تشبيه بأن : , لوكان بينى وبين الناس شعرة لما انقطعت . . إذا أرخوها شددتها ، وإذا شدوها أرخيتها . . ،

وما أكثر الحكومات التى لا تكتنى بقطع الشعرة ، بل تنسف الجسور الحديدية بينها وبين شعوبها . .

وكما كان يقول فقهاء ومؤرخو المسلمين فى العصور التالية . . د لو رأيتم معاوية ، لقلتم أنه المهدى المنتظر ،

فالحقيقة الأولى التي يجب أن تركز عليها ونعيها في هذه الدراسة ، في أن النظام الاسلامي الذي قام ابتداء من معاوية ، لم يكن أرقى

النظم فى عصره فحسب ، بل ولقرون عديدة . . بل ولا زالت أكثر جوانبه . وأكثر قيمه تتفوق على كل ما وصلت إليه البشرية فى تطورها . .

واننا نظم هذا النظام عند ما نقارنه بفترة نادرة من عمر البشرية ، هى تلك الفترة التى عاشها المجتمع الإسلامى ، منذ أن هاجر الرسول إلى المدينة ليبنى لأول مرة بحتمعاً إسلامياً . . إلى أن قتل عمر . . أو إلى أن اختلف الناس حول عثمان . . ثم كانت تلك الفترة المخالفة للبكل قوانين النطور عندما قامت حكومة على كرم الله وجهه ، ، عندما تفوقت الحكومة ربما لأول وآخر مرة ، على الشعب ، ، كانت حكومة وعلى ، أعظم وأكبر من أن تطيقها أمته ، ، فلهم وملوه ، ، وكان يتعجل أشقاها بخلصه من هذه الرعية التى تظلم أمراءها !

#### حكومة عمر

من هنا فإن محاولة التعرف على خصائص هذه الهترة النادرة من عمر البشرية ، تتطلب دراسة حكومة عمر بن الخطاب ، والتكوين الاجتماعي للدولة التي حكمها . . ففيها وصل النظام إلى التطبيق المكامل ، بعد ماتم في عهد الرسول وخليفته تشكيل المجتمع الإسلامي في أرض العرب ، وتأمين حرية هذا المجتمع في أن يفكر وأن ينظم وأن يحكم نفسه بنفسه ، ولا يمكن الحكم على مجتمع من المجتمعات إلا إذا أمن خطر التدخل الخارجي ، ولا يمكن أن تمتحن فلسفة إجتماعية إلا إذا أتيحت لها الفرصة لمكي تمارس جقها في التطبيق بحرية كاملة وأمن من خطر الابادة الشاملة . .

وفى عهد عمر وصلت الدولة الإسلامية إلى قمة أمنها الداخلى الخارجى ، وأتبح للفلسفة الإسلامية أن تمتحن فى التطبيق ، لا من خلال العلاقات فى مجتمع المسلمين ، بل وكفلسفة توجه سلوك المؤمنين بالإسلام . .

ففى عهد عمركان الاسلام ثائراً مغيراً ، وكان حاكما مسئولا ، ، وفى عهده ظهرت القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، التي أمتحنت قدرة الفلسفة الاسلامية على التشريع لمواجهة ما يجدمن مشاكل

من هنا كان المؤرخون على حق فى توكيز اهتمامهم على دراسة الدولة العمرية ، فى دراستهم للفلسفة الاسلامية فى أكمل تطبيقاتها

ولكن المؤرخين يقعون في خطأين أساسين :

- الأول هو دراسة الدولةالعمرية كظاهرة منفصلة ، وهى ليست أكثر من التطبيق الشامل للمبادى. التى رسخت وتشربتها النفوس وتخلقت بها فى المجتمع الاسلامى بالمدينة منذ العام الأول للهجرة
- الثانى ، ، هو استغراقهم فى تحليل شخصية عمر بن الخطاب
   رضى الله عنه ، ومحاولة تفسير روعة الحمكم بعظمة عمر وحدها

وإذا كانت الآمم المتعطشة للعدل ، لها العذر ، فى أن تتطلع إلى حلم لولا أنه حفظ بكل تفاصيله ، لما صدق الناس ، أن بشراً مثلهم ، قد تمتعوا بمثل هذا الحكم ، ،

البشرية معذورة إن اكتفت بنصيحة ابن عباس: أكثروا من ذكر عمر ، فإنكم إن ذكرتموه ذكرتم العدل ، وبذكر العدل تذكرون الله . . . .

ولكن المؤرخين ، والمسلمين منهم بالذات ، لا عذر لهم في الوقوف

عند شخصية عمر ، فصدر العظمة الحقيقى فى مجتمع عمر إينبعث من ثلاث حقائق:

- العقيده التي صاغت سلوك الامة ، وسلوك الحاكم ، وحددت العلاقة بين الحاكم والامة .
- الامة التي كونها الاسلام، وتعلمت على يد الرسول، وعرفت واجباتها، وحقوقها، وما كانت لتقبل انحراف حاكم أو تفرط في مثقال ذرة من حقوقها.
- شخصية عمر التي تشربت خلق الاسلام ، ووعت جوهره على يد خير البشر وسيد المرسلين • فسكان عمر نموذجا إسلاميا كاملا ، اتيحت له فرصة نادرة في عمر التاريخ ، وهي تولى السلطة فترة زمنية كافية لامتحان أفضل فلسفة في التطبيق ، بين ، ومجهود ، خير أمة أخرجت للناس •

فالعهد العمري هو مزاج هذه الحقائق الثلاث:

18 -- 1

الحاكم المسلم

أما العقيدة ، فإن مداد البحر لا يكفي للكتابة عنها .

وأما الحاكم المسلم ، فان ما يجب أن ينتبه إليه الدارس لشخصية

عمر هو الدور الذى لعبته العقيدة فى صياغة شخصيته وخلقه من جديد . . فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام . ولكن العقيدة تعيد صياغة المؤمن ، فتستأصل عناصر الشر ، وتتألن إمكانيات الخير ، وتفجر العبقرية الكامنة . .

وعمر المصارع فى الأسواق صاحب الخر والنساء فى الجاهليه ، هو كله من صنع الإسلام ، صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ؟

عمر الذى صنع فى الجاهلية صنما من وعجوة، فلما جاع أكله . . يتفوق بالمعقلية الإسلامية ، حتى يقطع جذع الشجرة الذى با يع المسلمون النبي تحته مخافة أن يفتن الناس ، ويقول للحجر الاسود : « والله إنى لاعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما فعلت . . .

وعمر الذى زعموا أنه دفن ابنة له حية فى الجاهلية ، بالإسلام يصبح عمر أزق وأحن قلب عرفته البشرية بعد رسول الله . . حتى لليطوف ليلا على رعيته ، فإن سمع بكاء طفل لا ينام ، ولا يهدأ حتى يراجع أمه ويقرعها : . إنك لام سوء ما بال طفلك يبكى ؟ ، فترد المرأة كعادة رعية عمر فى الاحتجاج ، بمهاجمة رئيس الدولة . . . الله بيننا وبين عمر ، !

فرض المرتبات الأطفال من سن الفطام ، فأنا أحاول أن أجبر الطفل على الفطام وهو يأبي . . .

يبكى عمر ويرتعد ويبيت الليل يؤنب نفسه: . ويلك ياعمر ، كم قتلت من أيناء المسلمين ، .

وما أن لاح الفجر حتى هب ينادى : ولا تعجلوا اولادكم على الفطام . . قد فرضنا مرتبا لسكل طفل يولد فى الإسلام . . .

بالإسلام . . وحده . . تحول القلب الجاهلي إلى رحمة المسلم . . بايمانه بدين الرحمة .

وحتى عند ما نقارن بين عمر قبل الإسلام ، وأى مسلم أو مسلم نجد عمر هو الاضعف !

جارية عمر المسلمة . . أقوى من عمر . . يضربها حتى يكل ساعده، وتؤهد نفسه ، وهي على إيمانها ، فيتركها قائلا : . انى اعتذر اليك . . أنى لم اتركك الامللا . . . فترد جاريته بشجاعة المؤمنة : . هكذا فعل الله بك ، .

وعندما توجه عمر إلى بيت اختة مهددا منذرا متوعدا .. تواجهه اختة باسلامها فتقهره ، بل وترفضان تسلمة الصحيفة التي كسبت فيها الآيات ، الا ان اغتسل وتطهر .. ويخضع عمر ويذهب فيغتسل ويعود يقطر ماء . . ومع قطرات الماء يسجل اعترافه بتفوق ما في الصحيفة عليه ، وتفوق من لهم حتى تلاوتها عليه . . وعندئذ تسمح له أختة بأن يمس الصحيفة . . ويقهر إيمانها شركه وتنير الآيات قلبه . . فيصبح عمر المسلم كما يصفه رسول الله « ما سلك عمر طريقا الاسلك فيصبح عمر المسلم كما يصفه رسول الله « ما سلك عمر طريقا الاسلك

الشيطان غيره ، ﴿ إِن الشيطان يخاف من عمر ، ﴿ مَا طَلَعْتَ الشَّمْسُ وَلَا غَرِبْتَ عَلَى رَجَلَ خَيْرِ مِن عَمْرٍ ﴾ .

ويقول ابن مسعود: «كان اسلام عمرَ فتحاً ، وهجرته نصراً ، وإمارته رحمة . .

ويقول له زياد بن أبى سفيان : والله ما فى خلق الله من أثهيبه اكثر منك . .

ويتهم بعضهم خالدا بالثورة فيقول : اما وابن الخطاب حي فهيات . .

و « عمر » أول من يعترف بفضل الإسلام عليه . . اذا أمر ابا سفيان ، فأطاع . . سجد لله شكرا وقال : الحمد لله الذي جعل ابن الخطاب يأمر ابا سفيان ببطح مكة فيطيع . . . .

عمر هو نموذج الرجل العظيم؛ تطلق العقيدة طاقات عظمتة، وتنير قلبه، وتمنحه عبقرية المؤمن التي وصفها هو فأبدع: « لست يخب، والحنب لا يخدعني » .

وما اظن أن البشرية قد تلمست يوما مثلما تتلمس اليوم السبيل إلى حاكم ليس بخب ، فلا يغرر بها ، ولا يمكر بها ، ولا الحنب يخدعه ، فيضيع أمرها . .

# رعية عس

اما العامل الثالث فى تكوين عظمة العهد العمرى ، فهو كما قلنا ، م رعية عمر . . تلك الرعية التي رباها رسول الله فى مجتمع المدينة ، و والتي قاتلت معه فى سبيل الله وتعلمت على يديه ، أن تعرف الحق ، -وتطالب بالحق ، وتفرض الحق . .

فهذه الحكايات عن عمر تحاول فيها أن نتلمس ملامح هذه الرعية .. الأمة التي صنعت مجتمعا هو اقرب محاولة للسكمال . . اقرب مطابقة لآمال البشرية وأحلامها منذ أن انقسم الناس إلى حاكمين ومحكومين . .

جاءت اقمشة من اليمن ، فوزعت على المسلمين بالتساوى ، ونال عمر مثل نال رجل الشارع . • وكان عمر طويلا يمشى بين الناس وكأنه راكب ! فظهر عمر على المنبر وقد ارتدى قميصا مزهذا القماش، ثم خطب فدعا الناس إلى الجهاد . • فإذا بصوت ينطلق من ساحة المسجد يقول : « لاسما ولاظاعة 1 » ويسأل عمر وسط صمت رهيب ولماذا ، يوحمك الله ١٤ » فيقول الرجل في غير تلعثم : « اخذت من القماش مثل اخذنا فكيف فصلته قميصا وانتأطول منا . . لابد انك استأثرت علينا . .

ويقتنع الرجل فيقول: ﴿ الآن نسمع . . ونطيع ! . .

بهر المؤرخين موقف الحاكم فى القرن السابع ، يقبل المحاسبة ويدافع عن نفسه أمام محكمة الرأى العام . . فنسوا الرجل الذى تساءل مواتهم وحاسب . وخلع الطاعة لما توهم انحراف السلطة . . فى عصر عبدت فيه الحكام . . وساده الاكاسرة والقياصرة . . وشهد نيرون يحرق مروما . . رغم تطور القانون الرومانى ! فلا يحد من يردعه أو يحاسبه ولكن الرجل المسلم يوى أن شرعية الحكومة تسقط ، إذا ما استأثر رئيسها بنصف متر قاش ! . .

موقف عظيم أن يقبل الحاكم المحاسبة . .

وأعظم منه ، أمة تتمسك بالعدل وتصر عليه وتحاسب حاكمها , وتواجهه بما يريها . . وتظالبه بالتفسير .

\* \* \*

يقف عمر على المنس ، فيعلن أنه قرر عدم المغالاة فى المهور · · وهى فكرة راودت كشيراً من المصلحين · . ولكن امرأة من عامة المسلمين ترى فى اقتراح عمر اعتداء على حق المرأة ، ومخالفة لما تعتقد أنه تفسير الآية :

, وآتیتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شیئا . . اتأخذونه بهتانا و إثما مبینا . . .

فترفع صوتها من مؤخرة المسجد قائلة :

ـ , ليس هذا من حقك ياعمر 1 ،

ويسأل عمر : ﴿ لَمَاذَا ؟ ﴾

فتواجهه المرأة بالنص . . بالآية الكريمة فيتراجع عمر قائلاً من فوق المنبر :

> د أصابت امرأة واخطأ عمر ، . . ثم يبكى قائلا : دكل الناس أفقه منك ياعمر ؟ 1 ،

يقف المؤرخون عند عظمة الحاكم تخطئه امرأة من رعيته فينقد نفسه علنا ويتراجع عن قانون نوى إصداره، بمجرد أن تشهر امرأة فى وجهه اعتراضا بعدم دستورية القانون . . الذى التزم بطاعته . .

عكف المؤرخون على هذا الموقف . . حتى أصبحت قولته واخطأ عمر وأصابت امرأة ، من الأقوال المأثورة الخالدة ولو انصفوا لخلدوا قولة المرأة وليس هذا من حقك يا عمر ١١.

فأى عظمة أكسر من عظمة امرأة تجاهر برأيها في مواجهة. الحاكم، ولا تقبل تشريعاته قضية مسلمة . .

وأى أمة تلك التي تعرف فيها المرأة حقوقها ، وتكتشف فوراً تعارض القانون عند اعلانه مع هذه الحقوق فتدفع بعدم دستوريته ...

لوكانت أمة غير تلك التي رباها رسول الله ، ولو كان فقهاء المسلمين وقتها ، غير صحابته . . فن يدرى ربما سكتوا عن معارضة عمر . . ولو تأخر الزمان . . فربما عكموا على الاشادة بتطور الاسرة بعد تشريمات المهور!!

خرج إلى خيام على بعد ٣ أميال من المدينة فرأى ناراً . . وقدرا « حلة ) فوق النار وصبية يبكون . . سأل . . قالت امرأة : ضربنا الهرد والليل ، قال : فما بال الصبية يبكون . . قالت : الجوع . . قال : وماذا في القدر . . قالت : ماء اسكتهم به حتى يناموا . . الله بيننا وبين عمر . . فيقول رحمك الله وما يدرى عمر بكم . . تقول المرأة في مواجهة رجل لا تعرفه : « سبحان الله ! يتولى أمرنا ويغفل عنا ؟؟ » ويفزع عمر مهزولا إلى بيت المال ويعود يحمل على كشفه ناطمام فيطبخه بيده للصبية ، والمرأة لا تكف عن الحديث « جزاك الله خيراً . . أنت والله أولى بالحكم من أمير المؤمنين عمر » . .

فيقول لها عمر « قولى خيراً . . إذا جئت غداً أمير المؤمنين ستجديني هناك إن شاء الله ، ورغم هذا التحدير ـ غير المقصود ـ من عمر ، لا تأبه المرأة وتستمر في إبداء رأيها في عمر ، وترشيح هذا الرجل ليحل محله . . لأنه لا يجوز أن يتولى الحكم من يغفل عن آلام رعاياه . .

كلاهما عظيم . . الحاكم الذى لا يغفل ويحمل الطعام للجائعين . . والمرأة البدوية التى تعرف مسئولية الحكم قبل ظهور نظريات الدولة الحارسة والمتدخلة بالف سنة ؟ !

D D D

وعاقب أبو موسى الاشعرى جنديا فى جيش العراق ، فحلق شعره فيمع الجندى الشعر وسافر به من العراق إلى المدينة بالحجاز . . ودخل على أمير المؤمنين فقذف بالشعر فى وجههوقال : «هكذا يعاملنا رجالك» تهلل عمر وقال و لأن يكون الناس كلهم في مثل شجاعة هذا . . أحب للى من كل ما فتحنا من بلاد . . •

ما أعظمك يا عمر . عرفت أنه بمثل هذا الجندى تفتح الامصار. وتنتصر الامم . . .

وماأعظمكأمة محمد 1 يسافر الجندى من العراق للشام ليحتج أعنف-ما يكون الاحتجاج . . على شعره الحلميق . .

ولما وصل إلى العاصمة بساط كسرى (سجادة عجمى فاخرة ) مساحتها ٢٦٠٠ ذراع مربع . . بعث بها الجند إلى أمير المؤمنين وقالوا ليكن لأمير المؤمنين وحده . . فافي عمر أن يأخذه واستشار المسلمين . . فقام على بن أبي طالب عليه السلام ؛ فقال له : لماذا ينقلب علمك جهلا ، ويقينك شكا . . لماذا تتردد ، وايس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فامضيت ، أو لبست فأبليت ، أو أكلت فافنيت . وانك أن احتفظت به اليوم ، يأتى في الغد من يستحل به ما ليس له .

أى إن كانت حجة إفساد البساط بالتقسيم تبرر اليوم احتفاظ الحاكم به . . فسيأتى حكام يحتفظون بكل شى ، بحجة أن عمر هو أيضاً استاثر . . فليمزق البساط وتبقحقوق الشعوب غير عزقة ولا مبددة .

قيل وأخذ على قطعة لم تكن أفضل القطع فباعها بعشرين ألفا 1 ..

## عمر وخالد

تولى عمر الخلافة ، وخالد ، قائد عام القوات الإسلامية بالجبهة الغربية ( الشام ) . . وكان خالد وعمر على خلاف دائم خلال خلافة أبى بكر . .

كان عمر يرى أن خالدا يقوى الدولة ويضعف الشعب

ولكن كيفكان خلافهما . . كيف يختلف القادة من أمة محمد . . وأى قانون يحكم علاقتهم حندما يختلفون ؟

جاء خالد منتصراً مزهوا من حروب الردة ، وقد قضى على الفتنة ووحد الجزيرة العربية ، جاء يضع ريشات فى عامته . . وفى طريقه إلى مقابلة أبى بكر مر بعمر ، فقام عمر ، فهاجمه ، وانتقده ، ثم خلع الريش فألقاه على الارض وانتزع رمحه فحطمه وخالد لا يقاوم ولا يتكلم ، يظن أنه يفعل ذلك بأمر أبى بكر . . فيخضع ويطبع لامر الدولة

ولكن لما دخل خالد على أبي بكر لم يعاتبه بل أثنى عليه وعينه على الجيش المتجه إلى العراق . فرج خالد متحديا لعمر وقال . هيا يا ابن (حنتمة ) فعرف عمر أن أبا بكر أقره ، فانكسر ولم يتعرض اله ولا رد عليه ا

وعين أبو بكر خالدا قائدا على الجهة الغربية ، مكان أبي عبيدة بن الجراح ، فكتب خالد إلى سلفه في القيادة , أتاني كتاب خليفة رسول الله يامرني بالسير إلى الشام و بالمقام على جندها ، والتولى الأمرها ، والله ما طلبت ذلك والا أردته ، والاكتبت إليه فيه . . وانت رحمك الله على حالك التي كنت عليها ، الا يعصى أمرك ، والا يخالف رأيك ، والا يقطع أمر دونك ، فانك سيد من سادات المسلمين ، الا ينكر فضلك ، والا يستغنى عن رأيك . تمم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ورحنا واياك من عذاب النار . .

واستمر أبو عبيدة يقاتل تحت قيادة خالد ، فلما مات أبو بكر ، عزل عمر خالدا وكتب إلى أبى عبيدة يوليه القيادة العامة ؛ ووصل الخطاب أثناء حصار دمشق ، فكتم أبو عبيدة قرار تعيينه حتى تم الفتح ؛ فعاتبه خالد , يرحمك الله ما منعك أن تعلمنى حين جاءك ، قال أبو عبيدة : , إنى كرهت أن أكسر عليك حربك ؛ وما سلطان الدنيا أريد ، ولا للدنيا أعمل ؛ وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ؛ . وإنما نحن إخوان ، وما يضر الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه ، .

في مثل هذه الامة ، كان عزل قائد الجيش ، و نقله من أعلى منصب

إلى بحرد جندى فى الجيش لا يحتاج إلى اجراءات أمن ولا إلى تدابير خاصة . . ولا مباغتة . .

واستمر خالد يفتح المدن ، وينتصر ، تحت قيادة أبي عبيدة ، حتى أصبح اسم خالد أسطورة . . ولو مات عمر وخالد في الشام ، لربما تكرر ما حدث عندما مات عثمان ومعاوية على الشام . .

وبدأ خالد يتصرف تصرف قادة الجيوش المنتصرين ٠٠٠

استحم بالكولونيا (خمر تركت فعادت غسولا غير خمر ٠٠)

وزاره امراء العرب فأهداهم مالا أدهش عمر . . وقرر عزله . . ولكن كيف؟

أرسل و عمر » و بلالا » . . العبدالاسود . . لما أسلم كانسيده و بربطه بحبل ويسلم الحبل للصبية يطوفون به طرقات المدينة ، ويوضع الحجر على صدره ويضر به سيده حتى يرحمه أبو بكر فيشتريه ويعتقه . . أرسله عمر ليحاسب وينفذ قرار العزل في أعظم قائد عسكرى

عرفته البشرية منذ الاسكندر. •

وفى المسجد وأمام المسلين ، سأل بلال خالدا عن مصدر المال الذى منحه لزائريه . . ودهشخالد ولم يجب ، عندئذ تقدم بلال خطوة أخرى فقال أن أمير المؤمنين قد أمر فى حالة رفضك الاجابة ، أن تقيد هكذا . . وفك عمامة خالد وقيد ذراعيه خلف ظهره بشالها . . وأعاد علمه السؤال ! .

ووسط سكون المسجد . . قال خالد : هو من مالى . . فيطلق يلال يديه ثم يعممه بيده وهو يقول : « نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخم. ونخدم موالينا . .

وعزل خالد وحاء إلى المدينة ، وطبق عليه عمر قانون من أين لك. هذا وصادر عشرين ألفا ظن أنها غير واضحة المصدر .

واختلى خالد بعمر فعاتبه على موقفه فقال عمر ، يا خالد والله انك على كريم ، وإنك إلى لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شيء أبداً . . وكان حريصا علىأن يبرى مساحة خالد ، ويؤكد أنه لم يعز له لخيانة . . ولن لم أعزل خالدا عن سخط ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فقت أن يوكلوا إليه ، ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونو بعرض فتنة . .

وعندما مات خالد ، ولم يترك إلا فرسه وسلاحه ، نقد عمر نفسه فقال : «رحم الله أيا سلمان ،كان والله غير ما ظننا، .

ووقف مرة يعتذر عن خلع خالد ، فقاطعه ابن عم خالد : « والله ما أعذرت ياعمر ، ولقد نزعت عاملا استعمله رسول الله ، ووضعت لوا د رفعه رسول الله ، وغمدت سيفا سله الله ، وقطعت الرحم ، وحسدت ابن العم ، .

كل هذا فى المسجد علانية على رؤوس الأشهاذ . .

فرد أمير المؤمنين :

انك قريب القرابة ، حديث السن ، مغضب في ابن عمك .

ولم يسمع بالقياء القبض على ابن العم الطاعن في تصرفات رئيس الدولة . .

ولم يتوقف المؤرخون طويلا عند هذا الطاعن الذي يعلن رأيه حتى ولوكان خطأ . .

وقالت أم خالد تنعيه : ﴿ أَنت خير مِن أَلْفَ أَلْفَ مِن القوم ، ﴿ فَقَالَ عَمْر :

والله إن كان لكذلك . . .

وقال : ﴿ عَلَى مثل خَالَدَ فَلَتَبِكُ البُّواكِي ۗ . . .

합 합 합

ولما انتشر الطاءون بالشام ، خاف على أني عبيدة ، وكان على دأس الجيش هناك . . فهو و أمين الآمة ، وكان يرشحه للخلافة بعده ، فأراد أن يستدعيه للمدينة لينقذه من الوباء ، ولكنه كان يمرف أى نوع من الرجال ، أمة محمد ، في تلك الآيام . . وما كان أبو عبيدة ليقبل الهرب من الوباء ، تاركا جنده ، فتحايل عمر ، ولعلها المرة الوحيدة التي لم يجاهر فيها بوأيه ، كتب يحتال على انقاذ أبي عبيدة وأما بعد . . فإني قد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك ، إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل الحياء ن عليك ، إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل طاعون عرفه العرب حتى ذلك الوقت . . ولكن هيهات . قرأ أبو عبيدة طاعون عرفه العرب حتى ذلك الوقت . . ولكن هيهات . قرأ أبو عبيدة الكتاب وقال يغفر الله لأمير المؤمنين . . وكتب إليه وأني قد عرفت

حاجتك إلى وإنى فى جنده من المسلمين ، لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم فدعنى فى جندى ، .

فلما وصل الكتاب إلى عمر بكى . .

ومات أبو عبيدة بالطاعون . . كما توقع ، وكما توقع له عمر . . وكانت خسارة المسلمين بوفاته فادحة . . ولكن أى خسارة اللقيم وللبشرية كانت ستقع ، لو أن صحابة رسول الله ، قبلوا أن ينجو القائد بنفسه تاركا جنده للموت والوباء ا

D D D

كانت علاقته بالرعية ، اتفاقا غير مكتوب ، صاغت بنوده العقيدة الإسلامية ، وأمة رباها الرسول وعلمها ، وصحابة قبسوا من نورالنبوة قدر ما أتيح لـكل منهم ، فهم لايرضون من عمر انحرافا ، ولا يكتمونه عصيحة ، وهو لايتردد في مشورتهم ، ولا يطالب رعيته بأكثر عا يلزم به نفسه . .

لما خدع المصريون ابنه ا وسقوه الخر ، وأفاق فى الصباح فذهب إلى عمرو بن العاص ، وطلب منه تنفيذ الحد عليه ، وهدده بإبلاغ أبيه لو أعفاه من العقوبة ! . . وربما هى المرة الوحيدة التى استغل فيها ابن لعمر نفوذ أبيه . . ولكن ليطبق عليه القانون ا . . وخاف عمرو ابن العاص من التهديد فجلد ابن عمر ولكن فى داخل الدار . . وبلغ الآمر عمر بن الخطاب فكتب خطابه القاسى إلى عمرو . . إلى العاصى بن الحاص المنه على أعنف الصور إلى المدينة وهناك نفذ عليه القانون . . ثم أمر بأن يرسل ابنه على أعنف الصور إلى المدينة وهناك نفذ عليه القانون . . ثم مات ابنه . . وقيل من شدة الضرب .

مثل هذا الحاكم لايطمع منحرف فى الإفلات من عقوبته ، ولا يخشى مواطن أن يشكو إليه كائنا من كان من ولاته . . فالذى لا يضن بابنه ، لن يضن بغيره فى حدود الله . . ومثل هذا الوالى لا يتردد المصرى أن يذهب من مصر إلى المدينة يشكو له ضربات من عصا نالها من ابن فاتح مصر فى القرن السابع الميلادى . . ولا يحرق عمرو على الاعتراض والمصرى يرفع عصا أمير المؤمنين ويضرب بها ابن حاكم مصر . .

كان إذا أراد سن عقوبة أو تحريم شىء ، بدأ بأهله فقال لهم : رإن الناس ينظرون إليكم نظرة الطائر للحم ، فإن سمعت أن أحدكم فعله.. ضاعفت له العقوبة

#### \* \* \*

فهمه للسلطة أنها الإحساس بما تحسه الجماهير «كيف ألى أمورهم إن لم يمسنى ما يمسهم ؟ 1 ،

كان أبيض اللون ، فلما جاء عام المجاعة ، ومنع نفسه منأ كل اللحم والسمن واللبن ، اسود جلده . .

رأى فى يد ابنه الصغير بطيخة فى عام المجاعة . . فصاح فيه : . بخالا بخ ا يا ابن أمير المؤمنين ، تأكل الفاكهة والمسلمون جاتعون ! .

فبكى الغلام وجرى هاربا . . وشهد الناس أنه اشتراها بحفنة من نوى .

واشترى ابنه عبد الله ماشية وتركها ترعى فى الأرض المؤممة مثل

سائر المسلمين ، ولكنه أمر ببيعها ، والاحتفاظ برأس ماله فقط ورد الفرق إلى ببت المسلمين . . . يقول الناس إبل ابن أمير المؤمنين . . كان تنحوا لإبل أمير المؤمنين ، فترعى إبلك وتجوع إبل المسلمين . . وكان ينصح الوالى الذي يدعى أن ثروته قد نمت من التجارة . . أن يجلس بجوار أبيه وأمه ويتاجر . ، ليرى إن كان يربح أو لا . .

مثل هذا الوالى من حقه أن يلقى جابر بن عبد الله يحمل رطلا من اللحم فيسأله ماهذا . . ويعتذر جابر , لحماً اشتهيته فاشتريته ، فيرد أمير الزاهدين : . أكل اشتهيت . . اشتريت ؟ ! ،

وويل لأمة كلما اشتهى حكامها . . اشتروا . .

كان يكره أن ينفصل الحاكم عن الشعب مهما كانت صورة هذا الانفصال و بئس الوالى أنا إن أكلت أطايبها وأطعمت الناس عظامها.

دخل على حفصة فقدمت له طبقا فى مرق بارد ، وصبت فى (الشوريه) بعض الزبت . .

فقال لها : أدمان (غموسين) فى طبق واحد؟ لا اذوقه حتى ألتى الله عز وجل ،

ورفض أن يأكل صنفاً من الطعام لايستطيع كل المسلمين أكله.

\* \* \*

كان أبغض ما يبغض الحجاب بين الحاكم والمحكومين . . أو انفصال الحاكم عن الشعب . .

سمع أن عمرو بن العاص بنى منبراً عالياً يخطب منه ، فكنب إليه: «ألا يكفيك أن تقف والمسلمون عند قدميك .. وأمره أن يكسره . .

وكتب له عمرو بن العاص ، يبشره بفتح مصر وبناء الفسطاط ، وقال أن الجند قد بنوا له داراً فى مصر . ، فكتب إليه : كيف يكون الرجل فى الحجاز بيت فى مصر . . ؟! اجعله سوقا للملسمين . . .

سمع أن سعد بن أبى وقاص بنى دارا ، وكانت بالسوق ، فا راد أن يحجب عن نفسه أصوات الناس بالسوق ، فطلب من المهندس أن يجعل الباب مانعاً للصوت . .

وبلغ الآمر و عمر ، . . فأرسل إليه محمد بن مسلمة وقال له : إذهب إلى القصر فأحرق بابه . . ثم عد إلى . .

وحمله رسالة تقول: « بلغنى أنك بنيت قصراً وانخذته حصناً ، ويسمى قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس بابا . . (1) أنه ليس بقصرك ولكنه قصر الخيال . . أغلقه وانزل منزلا بما يلى بيوت الاموال ولا تجعل على قصرك بابا يمنع الناس من دخـــوله وتنفيهم به عن حقوقهم .

وتبين افتراء أهل العراق على سعد . .

كان قد نشأ جيل لم يعش نور النبوة ، ولا أدبه رسول الله . . وبدأت خيوط ما ساة النهاية تنسج . .

#### قضاة

اشترى عمر فرسا من تاجر وأخذه ليجر به فأصيب الحصان . . فأراد عمر أن يرجعه . . وبدلا من أن يقبل التاجر شاكرا مؤكدا أن الحصان مصاب منذ أن ولد . . وأن اصابته وراثية وببدى استعداده لدفع التعويض عن الازعاج الذى سببه حصائه للحكومة ... وتعريض حياة الدولة للخطر . .

بالعكس . . رفض التاجر أن يستزد الحصان

فطلب عمر أن يحتكما . . واختار الناجر , شريكا, العراق. ليقضى بينهما . .

وذهبا اليه واستمع للقصة ثم حكم ضد أمير المؤمنين بنص قانونى مازال صالحا فى أرقى القوانين المعاصرة: ﴿ خَذَ مَاا بِتَعْتُ أُورِدُكُمّا اسْتَلْبُتْ ﴾ ويسر عمر فيقول: ﴿ وَهُلُ القَصَاءُ اللّا هَكَذَا ؟ ﴾ . . .

مم عينه قاضيا على الكوفة . . ^

أيهما أروع . . ؟ ! . . القاضى يحكم على أمير المؤمنين أم أمير. المؤمنين يرضيه أن يحكم عليه . . ويطمئن للقاضى يحكم على رئيس الدولة ، فيوليه القضاء ؟ . .

العقيدة هي الاعظم والاسمى . . لانها علمت القاضي قول الحق . . وعلمت الحاكم قبوله . .

وعندما اشتكى اليهودى من الإمام على رضى الله عنه ، قال عمر لعلى وكان يجلس بجوراه : قم يا ، ابا الحسن ، فقف إلى جانب خصمك ، . . حتى تتحقق المساواة امام القضاء . . .

فظهر الغضب فى وجه على وهو ينفذ . . فسأله عمر لماذا ' غضبت يا على:

يقول الإمام: وناديتني بالكنية وهو تعظيم لم تمنحة لخصمي ١. ٥٠

وبعد ذلك بألف سنة كان النبلاء فى أوروبا يحاكمون أمام قضاء. خاص يشكل من طبقتهم . .

رضى الله عن صحابة رسوله . . بهم شرفت البشرية . . ولو لاهم لما كان لوجود البشرية معنى . . ولاكان ثمة أمل فى عدل . .

سأل عمر صاحب قضية بماذا حكم عليك زيد. .

قال بكذا . .

قال عمر لوكنت أنا لحكمت لك . .

قال صاحب القضية فرحاً : فما الذي يمنعك أن ترده وأنت امير المؤمنين ؟ ا . . . لوكنت أرده لكتاب الله أو سنة رسوله لرددته ، ولكنه رأى الرتأ يته . . والرأى مشترك . .

\* \* \*

وأبدى رأيا فصاح رجل : ﴿ هذا مَا رأى الله ورأى عمر ﴾ .

فانتهره عمر وقال: ربئس ما قلت . . هذا ما رأى عمر فإن يكن حسوابا فن الله ، وإن يكن خطأ فن عمر .

ووجم برهة ثم قال: (السنة ما سنه الله ورسوله . . لاتجعلوا خطأ الرأى سنة الأمة . .

\* \* \*

دخل عليه قاتل اخيه فقال له عمر : روالله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المراق علم ا . . .

وكان القاتل مسلما ثم ارتد، وقتل احب الناس لعمر.. ثم عاد فأسلم، فعادت اليه حقوقه كمو اطن كاملة.. واستحال ـــ بموجب الدستور الإسلامى ــ على عمر أن يتخذ ضده أى اجراء..

ويعرف الرجل حقوقه التي كفلها له الإسلام فيسأل أمير المؤمنين ... ... ... ... ... ... ... ... الأرض الدم المراق عليها . . . يسأله : . فهل يمنعنى ذلك حقا من حقوقى ؟ ! » .

ويجيب عمر: ﴿ لا والله ! ﴾ . .

فيرد القاتل: و فلا أبالي . . انما يبكي على الحب النساء ! . .

\* \* \*

### **العدل . .** عوت !

وبعد أن ملا الدنيا عدلا . . لم يوض بالعدل الذي صنع . . فا علن عن برنامج خطير . . . و عشت لاخذت فضول أموال الاغنياء فرددتها على الفقراء . . ليس أحد أحق بهذا المال من أحد . . سا لحق أواخر الناس بأوا ثلها . . وليأتين المرأة في صنعاء نصيبها من هذا المال ولاطوفن مالامصار ، فا قيم بكل قطر شهرين . . فإنى أعلم أن للناس حوا يج تقطع دونى ، أما عمالهم فلا يرفعونها إلى ، وأما الناس فلا يصلون إلى ،

وكان برنامجه أكبر مما يتيح الناريخ . . وأعظم من طاقة الآمة ، فقد تبدل الناس غير الناس

سأل أحدهم على بن أبي طالب: لما اختلف الناس عليك، ولم يختلفوا على عمر ؟ . . فا بابه . . لأن عمر كانخليفة على مثلك . .

وكان حتما أن يموت عمر ...

حاوره اؤلؤة غلام فارسى مملوك للمغيرة بن شعبة . . ولم يعجب

رأى عمر ، العبد الاسير . طالبه عمر أن يصنع رحى تدور بالريح كان الغلام يزعم أنه قادر على صنعها ، فرد المملوك . لا صنعن لك رحى يتحدث بها المشرق والمغرب ، وفهم عمر الهديد فقال . توعدنى العبد ، . . .

ولم يقبض على العبد . . ولا حقق معه . . ولو حدث ، لعرف الجواب على سؤال حائر حتى اليوم حول المؤامرة التى دبرت لقتل عسر وكان أطرافها الفرس واليهود . . ولربما نجاعمر من خنجر اؤلؤة . . وكم كانت خساره البشرية فادحة بموت عمر . . ولكن خسارتها كانت ستكون أفدح ، لو أن الاسلام قبل أن يؤخذ الناس بالظنون ، أو أن يعاقبوا قبل أن يذنبوا . .

ونفذ العبد وعده . . وقتل عمر . .

وقبل أن يموت سأل عن قاتله فلما تاكد أنه ليس عربيا ولا مسلماً حمد الله وقال , ما كانت العرب لتقتلني . . الحمد الله لن يحاجيني. عند الله بسجدة سجدها قط ! . . . .

وقال لابنه استأذن من عائشة أن أدفن مع رسول الله . . ثم أعد. عليها الاستئذان بعد موتى ، فريما تأذن لى الآن لسلطاني . .

وبكت عائشة وقالت . والله كنت أريده لنفسى ، ولاوثرته به اليوم على نفسى . .

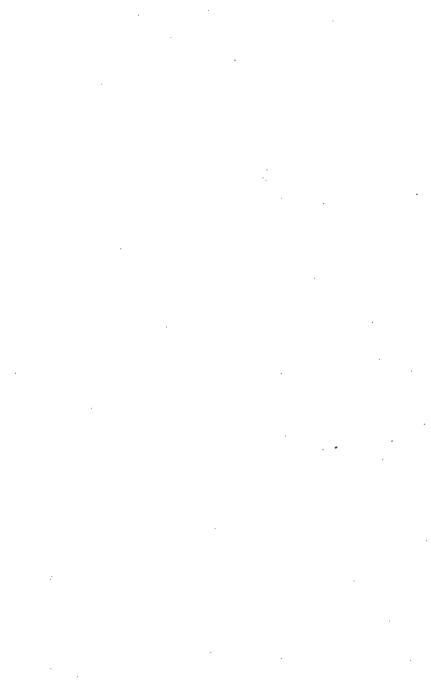
وأمر ابنه أن ينزله على الارض ويضع خده على الارض . لعل.

بكاه الناس جميعاً . . وما زالوا يبكونه . . وقال ابن مسعود : « كان حصنا للاسلام ، يدخل الناس فيه ولا يخرجون ، فلما مات انثلم الحصن ، فالناس يخرجون من الاسلام ، . .

وقال أبو طلحة , ما من أهل بيت إلا ودخل عليهم بقتل عمر نقص في دينهم وفي دنياهم , . . وبكي سعيد بن زيد قائلا , على الاسلام أبكي . . إن موت عمر ثلم الاسلام أبكي . . إن موت عمر ثلم الاسلام أبكي . . إن موت عمر ثلم الاسلام أبكي . .

وحملوا جثمانه فوقفوا به على باب عائشة وقال عبد الله بن عمر : ... يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، . . وردت عائشة : . ادخل بسلام ، . .

ووضعوا رأسه عند كتنى أبى بكر ، كما كانوا قد وضعوا رأس ﴿ فَانَ بِكُرُ عَنْدُكَتَنِي رَسُولُ اللهِ . .



# المسلمون والسياسة



من الذي يحسكم المسلمين؟ وكيف يحسكم؟

ومن الذي يختار الحاكم؟

من هم أهل الحل والعقد .

أى من الذى يملك حق ترشيح الحاكم وانتخابه . .

و بعد أن يحــكم . . من الذى يحاسبه . . وما مدى حق الشعب في محاكمته . . وهل يجوز عزله ؟

وهل يبيح الإسلام الثورة إذا ما استحال عزل الحاكم المنحرف بالطرق الدستورية . . ؟

بل ومتى يفرض الإسلام الثورة فرضا، ويعاقب المسلمين إن سكتوا على الظلم ورضوا بانحراف المسئولين؟...

114

هذه القضايا كانت تبدو لدارسى العلوم السياسية ، وكانها ولدت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولم يعرفها إلا الأوروبيون ا وأنها إن كانت قد وجدت على نحو ما ، فنى تاريخ الإغريق والرومان .

وساد الاعتقاد فترة أن المسلم الذى يفتش عن هذه القضايا فى تاريخنا الإسلامى ، إنما يحاول أن يحمل النصوص مالا تطيق ، وأن يتعسف فى تفسير الاحداث والمواقف التاريخية . . كمن يحاول أن يحد القنبلة الذرية فى آية : « ومن يفعل مثقال ذرة . . . .

وقد نجح المبشرون والدجالون فى تصوير الدولة الإسلامية بصورة تشبه الحكم الباباوى ، فالخليفة ظل الله على الأرض ، يحكم بموجب الحق الالحى للملوك . . مستعيناً بسيف المعز وذهبه والعصبية القبلية فلا سياسة ولا قضايا سياسية . .

إلا أنه من المستحيل تصور استمرار الحضارة الإسلامية لاكثر من ألف سنة ، وهي تحكم العديد من الشعوب ، وتتمثل حضارات

هذه الشعوب ، فتطورها وتثريها فى تراثها الخالد ، ومن المستحيل أن تدور فى داخلها كل هذه الخلافات ، وتسفك كل هذه الدماء . . دون أن ينعكس ذلك فى شكل صراع سياسى . . ودون أن يفرز نظريات سياسية تبرر التقاتل وتسببه . . فهما تمكن قيمة الاسباب المادية لاختلاف الناس وتصارعهم فلا بد لهذا الخلاف من أن يعبر عن نفسه فى صورة نظريات وآراء وأفكار ومبادىء . . وما دام الخلاف يدور حول السلطة ، وهدف القتال هو الوصول إلى هذه السلطة فهو خلاف سياسى ، وهى نظريات سياسية ، تنتصر دائما النظرية الاقدر على شحذ سيوف أنصارها . .

فلما تعفف الهاشمي رضي الله عنه ، عن مباغتة جيش الخليفة ليلا خوفا من اراقة دماء المسلمين ، سأله قائد جنده دهشا ، تريد الملك . . وتأبي القتل ١٤ ، . . وكان أن قتل الهاشمي ، وبقى الملك لخصمه . .

لابد إذن أن المسلمين كانت لهم فى دولتهم قضايا سياسية ، ولابد أن حضارتهم قد طرحت فكرآ سياسياً ونظريات سياسية تدور حول السلطة ، الحكومة والشعب . . والعلاقة بينهما . .

ومن هنا فقد نشط معض الباحثين فى السنين الآخيرة إلى البحث عن هذه النظريات . .

وحديثنا هنا يتناول كـتابين:

نصوص الفكر السياسي الاسلامي ، وهو تجميع نصوص من

الفقه الاسلامى، جمعها و يوسف ايبش و أحدث هذه النصوص لا يقل عمره عن تسعائة سنة ! و ومع ذلك فهى تعكس خصوبة الفكر الاسلامى و تفتحه بغير حد ، واقدامه على المناقشة الحرة ! واحترام الدليل العقلى . .

والكتاب الثانى من تأليف الدكتور وضياء الدين الريس ، وهو النظريات السياسية الاسلامية ، يحلل فيه النصوص ؛ ويقدم ـ ربما لاول مرة ـ دراسة متكاملة عن النظريات السياسية فى الاسلام . . بعد أن الح عليه سؤال ، طالما فكر فيه خلال دراسته لمادة العلوم السياسية فى أوروبا : وأين الفكر الاسلامى من هذا الانتاج الانسانى المعام ، الم يكن فى الاسلام مفكرون سياسيون ؟ الم ينتج الاسلام تفكيراً سياسيا ؟

وعلى زماننا نحن الذين درسنا العلوم السياسية فى الجامعات المصرية ،كنا نجد فى كتب النظم السياسية فصلا خجولا عن الاسلام ، وهو فى الغالب منقول عن كتاب لمستشرق ، وما أكثر اجتهادات المستشرة بن الخاطئة والمصللة . . ودائما أبداكان هذا الفصل يلغى من المقرر ولا يمتحن فيه الطلبة . . بينها تصدع الرؤوس بنظريات لوك وهو بن . وغديرها عن لا يصلون إلى مرتبة تليذ فقيه من فقهاء المسلمين . .

ولقد تعودنا بتأثير الغزو الفكرى ، أن ننظر إلى التاريخ وكأنه موظف في بلاط الحضارة الغربية ، فالحضارة تبدأ بالاغريق . وتنتهى بالامريكان . . أما حضارات آسيا وأفريتيا وأمريكا الجنوبية . فلا وجود لها ولا تأثير لها على التطور الحضارى للانسان . . لأن الانسان عندهم هو الانسان الغربي وحده . . وبقية البشر هم مادة هذا الإنسان ووسيلتة في تشكيل الحضارة . . حتى ليصعب على الدارس الناشيء أن يتصور منشأ للعلوم إلا في الغرب . . ويصعب أن يتصور وجود تيارات سياسية في الفكر الاسلامي . .

ويمكن أن نقول أن الفكر السياسي ، بصفة عامة ، يلعب أحد دورين :

تبرير النظام القائم .. فلسفته وتنظيره والدفاع عنه .. أى خلق القاعدة الفكرية التي يستند إليها وجوده .. استنادا يقوم على الاقتناع الحر الواعى للجاهير . .

وليست هذه المهمة ـ دائما ـ بالمهمة المحافظة أو الرجعية . . بل همه في مرحلة من المراحل تصبح مهمة تقدمية وثورية . . مادام النظام الذي تفلسفه وتدافع عنه ثوريا وتقدميا . .

• والمهمة الثانية للفكر السياسى ، هى الثورة على النظام القائم • • التشكيك فى شرعيته ، وإسقاط منطقه ، والدعوة للثورة عليه بتجريده من الشرعية ، وعزله عن اقتناع الجماهير • • •

وأيضا ليس هذا الدور دائما بالدور التقدمي أو الثورى . . فقد يكون رجعيا أو مخربا . .

ویجب أن نعرف أن النظام السیادی ، لا بمكن تصوره قائما ومستقرا بغیر استناد إلی قدر من الفكر السیاسی یعطی انصاره مبررا ، ولو شكلی ، لدفاعهم عنه ، ویعطی الجماهیر مبررا لتقبله . .

فهما تكن دموية النظام، فلا بد له من منطق .. ومهما تكن توايا خصومه فلا بدلهم من منطق .. ذلك هو ما يسمى عادة بالفكر السياسي إذا ما جنحنا إلى القبسيط الشديد ..

والفكر السياسي الاسلامي قد احتوى كل الآراء .. المحافظة والنقدمية والفوضوية .. وتصارعت داخل إطار الحضارة الاسلامية كل هذه الآراء في فترة الازدهار ، في جو من حرية الفكر واحترام الرأى يصعب تصديقه .. حتى ليمكن القول أن الفكر الاسلامي ، لم يعرف ما يسمى بالارض الحرام أبداً ؛ بل ماكان المفكر الإسلامي يتحرج من مناقشة أي فرض ، أو تصور أي وضع ، أو طرح أية قضية للجدل والتجريح والطعن وصولا إلى الحقيقة والافتناع العقلي . .

ولا شك أن الفكر الإسلامي قد اكتسب خصوبة و نماء من خلال تعرفه بالفلسفات العالمية . ولكن قاعدة حربة التفكير والتشجيع عليه ، حتى أن المسلمين الاوائل يحدثون رسول الله عن شك يجدونه في نفوسهم ، فيقول عليه الصلاة والسلام أنه محض الايمان .

وتأمل كيف أعلن الامام أبوالحسن الاشعرى (٨٨٣ – ٩٤٢م) انشقاقه عن المعتزله ، ففيها صورة لما يجرى في ﴿ هايد بارك . . . كما

تكشف القصة كيفكان المسجد ميدانا للصراع الفكرى والفلسني • •

«كان أبو الحسن الأشعرى أول أمره معتزليا ، ولكنه سأل أستاذه في قضية تتعلق بمسئولية الانسان عن افعاله ، ولم يستطع أستاذه أن يقدم له جوابا مقنعا . . وقرر الاشعرى الانشقاق . . فكيف أعلن ذلك ؟

اعتلى مقعدا فى مسجد البصرة و نادى بأعلى صوته: «من عرفى فقد عرفى فقد عرفى ، ومن لم يعرفى فأنا أعرفه بنفسى ، أنافلان ابن فلان كنت أقول بخلق القرآن، وان الله لاتراه الابسار، وأن الأفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تأثب مقلع مقتعد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ، كاشف لمعايهم».

وكما هي العادة دائما كان « المراجع ، الأشعرى أو « التحريض» كما يقال بلغة اليوم ، هو أشد خصوم الممنزلة « الحرفيين ، وأقواهم حجة ضدهم . .

غير أن النصوص التي نعرضها تتوقف كثيراً عند هذه القضايا الفلسفية ، البالغة في الخطورة . والتي لو فكر عقل أوروبي بها سرا بعد حادثة الأشعرى بخمسة قرون ، لمات رعبا من محاكم التفتيش . ولكن الأشعرى يعلنها بأعلى صوته في مسجد البصرة . . ويقعد للنقاش فيها . . ذلك أن الفكر الإسلامي ، لا يعترف بقيد عليه ، ولا يتخوف من ارتياد المجهول مادام قد سلحنا الله بالعقل وهدانا بالوحى . .

## لماذا النظريات؟

ويرجع الدكتور الريس نشأة النظريات السياسية فى الفكر الإسلامى إلى ثلاثة عوامل:

• أقام المسلمون نظاما سياسيا منذ أن استقر الاسلام بالمدينة..
وهذه قضية لا نظن اننا بحاجة إلى جهد لإثباتها ، وقد مارست
حكومة النبي فى المدينة كافة الوظائف التي يطالب الناس بها الدولة
الحديثة . . أو الدولة بصفة عامة منذ أن قامت الحكومات فى المجتمع
البشرى . .

ولا شك أن القول بأن حكومة النبي كانت صفة عارضة أو ثانوية، وأن رسالته كانت دينية بحتة بمعنى أنها تنظيم علاقة الانسان بالسماء ، قول ضعيف لا أساس له من التاريخ الاسلامى ، وهو قول غريب نبت غريبا وذوى غريبا . . فالمجتمع الاسلامى فى المدينة مارس حقوق السيادة ازاء القوى الخارجية ، فقاتلها ، وسالمها ، وعاهدها وأسفر إلها واستقبل سفاراتها . .

ومارس ساطات السيادة على أفراده فى جميع شئونهم العقائدية والشخصية والمالية والقانونية . .

وحول هذه الدولة ، وفى اطار هذا النظام -كان لا بد من ظهور الفكر السياسي . .

• السبب الثانى لظهور الفكر السياسي أوالنظريات السياسية في الإسلام

هو حق الاجتهاد . . فقد أعترف به مصدراً من مصادر القانون الاسلامي وهو مبدأ انفرد لإسلام بتقريره لم يسبق إليه ، ولم يلحق فيه أيضا إلا بعد مضى عهودطويلة بعد نحو ألماعام . أى في مطلع عهد النهضة في أوربا حين بدأت حركة الاصلاح الديني ونهض ولوثر، وأتباعه ينادون بحتى الفرد في فهم النصوص المأثورة ، وتكوين حكم لنفسه .

ووجه الخطورة فى هذا المبدأ الذى سنه الاسلام هو إقامة الصلة الدائمة بين تعاليم السماء وسلوك الانسان فى هذه الدنيا ، فإن مشاكل الحياة المتجددة والمتغيرة باستمرار ، ستضع الانسان أمام أحد أمرين :

- إماالعجز عن استنباط حل لها ، لانها لم ترد بحرفيتها فى النصوص، أو لان الحل الذى تقدمه الطائفة المحتكرة لتفسير النصوص الدينية . . . وهى الكهنة . . . تقدم حلولا لاترضى أهل العصر أولا تحل مشاكلهم...
- و أو أن يقطع الانسان صلته بالنصوص، ويقيم لنفسه منهجا وتفكيراً منفصلا عن الدين، وعلى عداء معه . . بل ويبدأ من نقض الدين . . وهو ما حدث فى الغرب . . بسبب احتمكار الاكليروس . لحق تفسير النصوص . . ومن طبيعة الحياة ، أن تتخطى حركتها طاقات أى فثة بعينها على التجدد ، فيتحتم أن تحل محلها باستمرار قوى جديدة ، فإن سد الطريق على هذه القوى ـ انفجر المجتمع أو تفسخ . .

أما الإسلام فقد ألغى فكرة الاكليروس . وأباح حق تفسير النصوص لكل قادر عليه من أمة المسلمين ، فأتاح للفكر المتطور المتجدد ، أن يتابع ويلاحق تطورات الحياة ، واحتياجات الناس . . واستحال بذلك تصور قيام تناقض لا يحل بين الدين والحياة . .

ولقد ذهب الاسلام فى الحض على التفكير ، واستنباط الرأى الذى يواجه كل ما يجد من جديد فى الحياة . . إلى حد الاثابة ولو على التفكير الحطأ . . فالحديث يقول : . للمجتمد ان أصاب أجران وأن أخطأ أجر ،

وليس فى تاريخ الفكر مثل هذا الاغراء بالتفكير الحر .. «فالخطأ ليس كفرا ولا انحرافا .. بل يثاب عليه المفكر أو المجتهد فا عذر المسلم إن قبل الغاء عقله أو اسقاط حقه فى التفكير ..

والعامل الثالث المدى أدى إلى نشأة الفكر السياسى في الاسلام .. هو تفويض الامة في اختيار شكل الحكومة : فالإسلام قد رسم حدود الدين ، ونظم عبادة المسلمين وفي كثير من التفاصيل ، وأرسى القيم التي يقوم عليها سلوكهم ، ونظرتهم للوجود وللانسان : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم المسلمين أدق تفاصيل السلوك . ولكن إرادة الله شاءت أن يتوفى رسوله دون أن يضع قاعدة أو نظاما الرادة الله شاءت أن يتوفى رسوله دون أن يضع قاعدة أو نظاما مما للحكم .. وتلك هي معجزة الاسلام .. فلو حدد رسول الله شكل الحلافة لالتزم به المسلمون ، وأصبح التبديل فيه أو تغييره خوروجا على أوامر الدين ..

والاسلام صالح لمكل زمان ومكان ، وتجربه التاريخ تثبت أنه لا يوجد في تاريخ البشر نظامان للحكم متطابقان تمام التطابق . فلمكل مجتمع ظروفه وقوانينه ، ولمكل عصر مقتضياته ومفاهيمه واحتياجاته . فما يتنافي مع صلاحية الاسلام لمكل زمان ومكان ، وضع شكل جامد محدد انظام الحكم .. ومن هنا كان اطلاق الاسلام حرية الاختيار للامة ، لتصوغ وفق تعاليمه مقضيات عصرها ، وما يتفق مع مصالحها وامكانياتها ـ الاشكال الدستورية التي تحدد نظام الحكم في مجتمعها ..

والذين عجزوا عن فهم هذه الحكمة فى رد الأمر الأمة حاولوا أن يجدوا تفسيراً لها .. كيف وضع الاسلام قواعد محددة لادق تفاصيل الحياة .. ثم نراه يترك هذه القضية الهامة (كنظام الحكم) عدون تحديد..

واجتهد المستشرقون فى التفسير ، يقول الدكتور الريس ، زعموا أن مرض الرسول الآخير قد حال بينه وبين ذلك ، ولم يسألوا أنفسهم وما الذى منع الرسول طوال السنين التى عاشها فى المدينة قبل مرضه الآخير ، من أن يضع هذا النظام ويلزم الصحابة به ؟!

ويزعم و ارنولد ، أن النبي حرص على عدم مخالفة التقاليدالعربية التي كانت تترك القبيلة حرة فى اختيار رئيسها ا ويننى والدكتور الريس، أن تكون هذه تقاليد عامة أو موحدة فى القبائل ، كما يننى خضوع الاسلام للتقاليد القبلية وهو الذى جاء يمحو التنظيم القبلى

والاحاديث الصحيحة عديدة عن وصف الرسول للخلافة من. بعده وتذبؤه بتطورها ووصيته لمن يتولى أمور المسلمين ، ووصيته للمسلمين في سلوكهم معالامام . كلذلك يؤكد أنه لاالنبي ولاالمسلمون. كانوا غافلين عن هذه القضية ، وعن حتمية مواجهتها يوما ما . فهي لم تفاجئهم عند وفاة الرسول ، بل كانت معروفة ، وقد تركها رسول الله عن قصد .

ويخرج والدكتور الريس ، بأن الهدف كان مقصوداً ، والغاية كانت واضحة .. فترك الامر بدون تحديد ، هو اعتراف بالرأى العام للجاعة ، أو كما نقول في تعبيرنا الحديث (إرادة الآمة) وقد تجلي ذلك واضحا في اجتماع السقيفة ..

ولا نرى تعارضا بين تفسير الدكتور ، بأن الامر قد ترك تأكيدا لديموقراطية الحكم بان رد الامر لما تقرره الامة ، وبين قولنا أنه قد ترك لكى لا يوضع قيد على حركة التاريخ .. ذلك أن حركة التاريخ .. فلك أن حركة التاريخ .. في مجموعها تعبر عن مصالح الامة ، والجماعة دائماً هي خير من ينظق .

ولملنا لا نبالغ إن قلنا إن اجتماع السقيفة كان أخطر اجتماع عقد في التاريخ .. اجتماع كانت نتيجته وجود ... مليون مسلم ... وأكثر من أربعين دولة إسلامية في العالم ، ولا نظن أن اجتماعا آخر قد أسفر عن مثل هذه النتيجة ..

وقد وضح فى هذا الاجتماع حقيقتان أو مبدآن أساسيان فى الفسكر الإسلامى :

- إجماع قادة المسلمين الذين حضروه من المهاجرين والانصار على ضرورة قيام حكم . . واختيار خليفة . . فلم يكن الأمر مفاجأة لهم ، بل كان قضية معروفة ومتفقا عليها . . تؤكد فهمهم للمسئولية الدنيوية التي كان يضطلع بها رسول الله ، وضرورة أن يتحملها بعدده مسئول من بينهم .
- و أن من حقهم اكتشاف أسلوب اختيار الحاكم ، وأن نصاً بغير ذلك غير موجود . . وإلا لاعلن في الاجتماع وحسم الموقف . . . والقول بغير ذلك ، إما يجعل هذا النص سريا لايعلمه كبار رجال الإسلام بمن حضر اجتماع السقيفة ، أو يشكك في صدق إسلامهم أستغفر الله فقد علموا النص وخالفوه جميعا .

وقد دار اجتماع و السقيفة ، على أعلى مستوى يمكن تخيله الديمو قراطية والعمل السياسى . مناقشة حادة ، تبودات فيها الالفاظ القاسية . والتهديد بتحريك الشارع . . أو العصيان . . ثم مبارزة بالنصوص الدستورية ، وتقاليد الآمة . . والصالح العام . . والوحدة الوطنية . . وضرورات الآمن . . ثم اقتراح . . وتصويت . . فخضوع الاقلية للاغلبية .

وفى اجتماع السقيفة وضعت بذور الفكر السياسي الإسلاى ، وما تتفرع عنه من نظريات ، فقد استقر رأى المجتمعين على أن اختيار

الخليفة أو الحاكم يكون بالبيعة . . أى بالانتخاب .

ومنذ اجتماع السقيفة حتى بيعة (يزيد) لم يطرح قط مبدأ الوراثة كوسيلة لانتقال السلطة ، ولقد ظل هذا المبدأ راسخاً فى الضمير الإسلامي إلى القرن العشرين .

ورغم أن الحلافة أصبحت وراثية أو كما قال عبد الرحن بن أبى بكر .. هرقلية .. .كما مات هرقل ، قام هرقل...

وبالرغم من أن ممارسة الحلفاء والسلاطين والملوك المسلمين منذ معاوية إلى عبد الحيد عبر ١٢ قرناكانت وفقا لمبدأ وراثة العرش.

إلا أن رسوخ رفض مبدأ الوراثة كان يجبر الخلفاء على أخذ البيعة لولى العهد . . فالحرص على شكلية الانتخاب كانت تنبع من ذلك المبدأ الذى استقر في ضمير الآمة ولو أنها حرمت من تطبيقه بقوة الملك . . وضرورات الزمان والمسكان .

وروعة الفكر الإسلامي ، تتجلى ، فى رفضه اقرار هذا المبدأ وإصراره على استنكاره ولو على الصعيد الفكرى البحت . . وفى هذا الموقف وحده مايناًى به عن مرتبة الفكر التبريرى .

يقول أبو يعلى الفراء [ ١٠٦٥ م]: • ولا تستحق الامامة بالميراث لأن الإمامة تثبت بالاختيار ، وهذا يمنع أن تكون بالميراث .. ولانها لوكانت تثبت بالإرث لوجب إذا مات الإمام وله ابن صغير أن يخلو ذلك العصر من إمام إلى أن يبلغ ذلك الصبي . .

وهنا يقف المؤمنون بالتفسير الدينى للتاريخ ليسجلوا نقطة تفوق. لتفسيرهم .. فإن المذهب المادى فى تفسيره ، يقدم شواهد عديدة على. تعاور الفكر السياسى الغربى كانعكاس للتطور الاقتصادى فى المجتمع ، وتطور المصالح المتعارضة فيه ونموها:

فظهور نظريات حق الملوك الإلهى وتأييد سلطانهم المطلقو تأكيد شرعية مبيداً الوراثة ونظريات الولاء للملك كان مصاحبا للنمو الاقتصادى للبورجوازية (الرأسمالية) الوليدة وحاجتها إلى الدولة الموحدة، وسلطة الملوك في القضاء على التجزئة الإقليمية . ويستحيل أن نجد في هذه الفترة رأياً جادا يدعو إلى النظام الجمهوري أو يرفض مبدأ الوراثة للعرش انطلاقا من أسباب عقائدية أو اقتناع عقلى . . ثم تظهر الدعوات إلى المجالس النيابية وحق من يدفع الضريبة في أن يشرع الفانون إلى جانب الملك . . مع نمو هذه الطبقة . . حتى نصل إلى الفكر المجهوري وسقوط النظام الملكية والامتيازات الموروثة .

ولكننا نجد الفكر الإسلامى ، أكبر من أن يكون بجرد أحلام, المصالح والتطورات ، فهو منذ البداية واضح الملامح . . وهو فى جميع العصور ورغم استحالة إقرار نظام لانتقال السلطة غير الوراثة وتأكيد النجرية التاريخية لكل الحركات التى ثارت ضد المبدأ أنه هوو حده النظام الذى تنتهى إليه عندما تصل إلى السلطة ..

رغم ذلك فقد ظل الفكر الإسلامي محتفظاً بشموخه ورفضه لمبدأ

الوراثة . ولم يحاول أى مفكر إسلامى أن يجعله النظام الشرعى السليم بل أقصى ماوصل إليه فى الواقعية هو قبوله دَاْمر لاسبيل إلى دفعه إلا إبجلب شر أكبر من شر قبوله.

كذلك لانذهب مذهب الحسن البصرى عندما يقول: ﴿ أَفَسَدُ أَمْرُ مِعْدُ وَ الْأُمَةُ الْنَانَ : ﴿ عُمْرُو بِنَ الْعَاصِ ﴾ يوم أشار على ﴿ معاوية ﴾ برفع المصاحف ، و﴿ المغيرة بن شعبة ﴾ حين أشار على ﴿ معاوية ﴾ بالبيعة الميزيد . . ولو لا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة ﴾ .

لاندهب إلى هذا الرأى فإنقوانين الحياة كانت تحتم أن تصل الخلافة إلى ماوصلت إليه ، فذلك النظام الذى وضعه المسلمون وأقاموه ثلاثين عاما . . كان أكبر من طاقة البشر ، كانت فيه نفحة من نور النبوة . . . وما كان يقدر على إقامته وصيانته إلا صحابة رسول الله . .

وربما كاف دوره فى الناريخ أن يكون حلماً للبشرية يؤكد لها دائماً أنه من الممكن للجنس البشرى أن يقيم فوق الأرض مثل هذا النظام .. . . . . . . . . . فيهات!

لما تغيرت الرعية ، أصبح من الضرورى أن يحكمهم نظام يتفق ومستواهم .. ويشفع للمغيرة ومعاوية أن أشد خصومهما ــ أعنى الشيعة ــ ، با يع عندهم الإمام لابنه .. أكثر من مرة .

#### الامامة

وأول القضايا بل أهم قضية ناقشها الفكر الإسلامي هي (الإمامة) أى كيف تقام الحكومة . . كيف يعين رئيس الدولة ؟ . . أو بالتعبير الفقهي , أنص هي أم اختيار ؟ .

وبالطبع كانت الشيعة هي التي أثارت السؤال لتثبت أنها نص ، وأن الآمة ليس لها حق الاختيار ، فقد اختار لها الله ورسوله . . ولكن الرأى الآخر ، لم يقف عند حد رفض النص . . فقد انقسم إلى عدة فرق ، وكذلك الشيعة ، انقسموا في تحديد صيغة النص وطريقة انتقاله ، حتى وصلت الفرق إلى ٧٣ فرقة .

كان الحلاف بينهم يصل أحيانا إلى التقاتل ، بينهاكان يتخذ في جعض الاحيان روحا رياضية وتسامحا نادراً.

كان « اليمان بن الرباب، من زعماء الخوارج ، وكان له أخ يدعى

179 (م — ۹ الحق المر) على بن رباب من غلاة الشيعة ، وكانا يجتمعان في كل سنة ثلاثة أيام. يتناظران ثم يفترقان!

وكل هذه المذاهب والتيارات قد نسبت أصولها واستندت إلى الكتاب والسنة . .

وجاء الإمام الشافعي ووضع مبدأ الإجماع . . وهو ما يمكن وصفه بالمبدأ الدستورى الذي يتقرر من إقرار الآمة له . . استنادا للحديث الشريف الذي يقول : « لا تجتمع أمتى على باطل،

فالحق مع الآمة أو مع الآغلبية دائمًا . .

ولا عجب أن الفقيه الذي جعل هذا المبدأ مصدراً من مصادر التشريع هو الذي اختاره المصريون لينبعثوا له بشكواهم وعرائضهم ضد الحسكام وحتى ضد ظلهم لانفسهم . . فهو كما يزال ينادى في الدعاء عند العامة المصريين : وقاضي الشريعة . . . هو الذي أعلن منذ أكثر ألف سنة أن و الشعب لا يخطى من وأن الشعب هو مصدر التشريع .

بل إنه باقرار مبدأ و الإجماع، أصبح هو وحده مصدر الشرعية لأى حكم ، لأن القرآن والسنة لم يحددا نظاما معينا للحكم وشكلا محدداً للحكومة .. فلم يبق إلا إجماع الآمة .. وهو ما وصل إليه المستشرق و جب ، عندما قال أن نظام الخلافة يستند كلية إلى مبدأ الإجماع وحده .. وهكذا نوى أن أهل السنة ، بعكس ما توحيه لفظة السنة من اتباع السلف ، والميل إلى المحافظة ، نواهم أكثر

الاتجاهات تعبيراً عن ديموقراطية الإسلام ، وإيمانه بان الأمة هي وحدها صاحبة الحق في اختيار ما تشاء من النظم ، وتنصيب من تراه أهلا لهذا المنصب أو ذاك ، ابتداء من الحاكم العام أو الإمام أو الحليفة أمير المؤمنين .

ولا يعنى قولنا أن نظام الخلافة هو من ابتكار المسلمين أنه نظام غير إسلامى فما الذى يستحق هذه الصفة إن لم يكن النظام الذى وضعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى .. صحابة رسول الله ، من نأخذ عنهم ديننا وسنة نبينا .. غير أن المقصود هو ننى صفة القدسية عن الحاكم .

وقد استند الفكر الإسلامى ( السنة والخوارج وفروعها ) فى نفى الورائة كوسيلة لانتقال الإمامة أو السلطة إلى انمدام النص ، فإن وفاة الرسول دون أن يعهد بالخلافة لاحد قد أعطى الحق كاملا للامة في الاختيار..

فالباقلاني ( ١٠١٣ ) يقول: «وإن سأل سائل فقال: ما الدليل على ما تذهبون إليه من أن الاختيار الأمة .. قيل له بالدليل على هذا أنه إذا اختفى النص صح الاختيار ، والذي يدل على ابطال النص ، أنه لو نص النبي على إمام بعينه وفرض طاعته على الأمة دون غيره وقال لهم : هذا خليفتى والإمام من بعدى ، فاسمعوا له وأطبعوا ، لكان لا يخلو أن يكون قال ذلك وفرضه بمحضر من الصحابة أو الجهور منهم ولوجب أن يقع لنا العلم ضرورة ،

فانتفاء النص أكد حقوق الآمة فى الاختيار .. وانطلاقا من هذا المبدأ رفض المفكرون الاسلاميون مبدأ وراثة الحلافة لآنه يلغى حق الإمة فى الاختيار ..

وإنكان هذا لم يمنع من قيام تيار له قوته وشأنه يؤمن بمبدأ الوراثة ، استنادا إلى النص فى اعتقاده ، غير أن هذا التيار لا يشكل المجرى الاساسى لحركة الفكر الاسلامى ، وإن كان يؤكد خصوبة وتنوع هذا الفكر واحتواءه اشتى النيارات السياسية ..

ويرى بعض المستشرقين تناقضا ، أو قل نزعة توفيقية فى الجتهادات الفقهاء فى القرون المتأخرة من الحضارة الاسلامية ، إذ يرون فى هذه الاجتهادات محاولة لمجاراة السلطة ، وإسباغ الشرعية على الأمر الواقع ، الذى لا شك أنه كان يبتعد قليلا أو كشيراً عن القيم والمبادىء الاسلامية فى صدر الاسلام ، فيما يتعلق بصفات الحاكم وشروط توليته ، وطبيعة الحكم ..

وصحيح أن الفقهاء قد أفتوا بشرعية الطاعة للحاكم الظالم الفاجر . . ولكن ليس عن بمالاة للسلطة ولا لمجرد الافتاء بشرعيتها كسها لرضاها ودفعاً لاذاها ، فالفقه الاسلامي لم يكن يفتقر أبداً إلى مواقف تعد ذروة في الشجاعة الادبية ، والذود عن العقيده ، ولا شك أن فقيها يضرب ويسجن لانه يرفض أن يتولى منصب القضاء مخافة أن يخطىء . . ماكان ليجين عن الافتاء بخلع الخليفة إن رأى في ذلك صحة إسلامه أو مصلحة المسلمين . .

كذلك من يتحمل التعذيب ، حتى لايتقول على كلام الله إنكان مخلوقا أولا . . ماكان ليجبن في قضية السلطة . .

غير أن الفقهاء كانوا ينطلقون من قاعــــدة إسلامية ، ويضعون مصلحة الآمة الاسلامية نصب أعينهم عندما أفتوا بشرعية السلطةالقائمة على القوة وحدها . .

روى عن الامام أحمد بن حنبل:

, ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين ، فلا يحل لاحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولايراه اماما ، براكان أو فاجراً . . . .

وسئل فى الامام يخرج عليه من يطلب الملك فيكون مع هذا قوم ومع هذا قوم، قال : وتكون الجمة مع من غلب، ، واحتج بأن عبد الله ابن عمر وصلى بأهل المدينة فى زمن الحيرة وقال : نحن مع من غلب ،

ولعلنا ، بعكس ما يبدو من ظاهر النصوص ، نجد فى هذا الفقه . • اقرارا بشرعية الثورة ، والوضع الذى ينشأ عنها • • غير أن الفكرة خلف هذه الفلسفة الواقعية كما يتضح من النصوص التى نستعرضها • • هى الحرص على وحدة الأمة أو الوحدة الوطنية إن صحت التسمية • •

يرى عبد القادر البغدادى ( ١٠٣٨ ) أن الخلافة من , حق أفضل المرشحين ، فإن عرض للامة خوف فتنة من عقدها للافضل جاز لهم عقدها للمفضول ..

ويجب أن ندرك أبعاد الافتاء بعدم شرعية الامام ، لنصل إلى

ادراك سليم لتحفظ الفقاء فى هذا الشأن .. لأن الافتاء بعدم شرعية الحاكم يسقط شرعية وببطل عدداً من الفرائض الدينية . .

ولهذا أجاز الفقهاء قيام امامين إذا ما كان يفصل بينهما , بحر مانع ، أى حاجز جغرافى يحول دون الاتصال . . وهذا يؤكد الصفة البشرية للخليفة ، فلوكان نائبا عن الله أو تتقمصه روح ما . . لمما جاز أن يمنع البحر أو الجبل امتداد ظل الله ، ولا جاز أن يتجزأ روح القدس . .

#### خليفة من ؟

وناقش المسلمون صفة هذا الحاكم . . أهو يحكم بموجب حق التفويض الالهى . . الذى استندت إليه الملكيات المستبدة فى الشرق القديم وأوربا الاقطاع ؟

ام يحكم بقوة التفويض الذى يمنحه له الشعب عند انتخابه ؟ هل هو خليفة الله . . أم خليفة المسلمين ، خليفة رسول الله ؟

لقد وردت فى الفكر السياسى الاسلامى فى العصور الاخيرة بعض التعبيرات التى تصف الحليفة بأنه خليفة الله ، أو حتى ظل الله على الارض . .

فالغزالى ( ١١١١ م ) يصف الخليفة بأنه ﴿ خليفة الله على الخلق ﴾ وقد رفض عثمان رضى الله عنه أن يخلع نفسه من الخلافة قائلا:

ره ماكنت لاخلـع قيصا ألبسنيه الله ء

ولو أن القاضى أبو يعلى الفراء: ( ٩٩٠ - ١٠٦٥ ) قد استدل بهذه الحادثة على مفهوم عكسى فهو يقول: « فلو لم يكن من حقه أن يعتزل لما طلبوا منه ذلك ،

ولكن الفكر السياسي الاسلامي في مجموعه ، وبالذات في عصوره الأولى ، حريص كل الحرص . . واضحكل الوضوح . . في نني فكرة الحق الالهي . .

فالحكم وظيفة مدنية بحتة، والحاكم لاتتقمصه أى صفة غير بشرية . . ولا يستند لأى سلطة إلا سلطة العقد الذى ينشأ بين الحاكمين والحكومين عند توليه الحكم وفى حدود الدستور . . أى الشريعة . .

وفى فجر الحضارة الاسلامية ظرحت قضية لقب الحاكم .. أهو خليفة الله .. أم خليفة رسول الله ..

يقول أبو الحسن الماوردى ( ٩٧٥ / ١٠٥٨ ): « ويسمى خليفة لأنه خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته ، فيجوز أن يقال يا خليفة رسول الله ، وعلى الاطلاق ، فيقال : الخليفة .. واختلفوا هل يجوز أن يقال يا خليفة الله ؟ فجوزه بعضهم لقيامه بجقوقه فى خلقه، واقوله تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات »

وامتنع جمهور العلماء (أى الأغلبية العظمى) عن جواز ذلك ، وقسبوا قائله إلى الفجور .. وقالوا إن الخليفة ، لمن يغيب أو يموت والله لا يغيب ولا يموت . . وقد قيل لابي بكر الصدين : يا خليفة الله. فقال : لست بخليفة الله ، ولكن خليفة رسول الله ،

ومعروف أن المسلمين أرادوا تسمية عمر بن الخطاب و خليفة خليفة رسول الله ، فاستثقل الامر ، وفكر في المستقبل ، وكيف سيحمل كل خليفة طابورا من خليفة خليفة .. بعدد الذين سبقوه ، فاقترح أحدهم لقب أمير المؤمنين .. فكرمت الامة نفسها بالايمان ... إذ كرمت الخليفة بالامارة ا

وسمع عمر بن لخطاب رجلاً يقول له: يأخلية الله ، فنهره قائلا تناف الله بك . . .

وأهمية هذه القضية أنها تسقط عن الحاكم كل ادعاء بالعصمة أو ارتفاع فوق مستوى البشر .. وبالتالى فكل أحكامه وقراراته قابلة للمناقشة والتصويب والتخطئة .. لآن رسول الله وهو النبى المعصوم يعلم المسلمين فيقول فيا لم ينزل به الوحى : د إنما أنا بشر مثلكم أخطىء وأصيب ،

فا من خليفة له يستطيع أن يدعى العصمة أو ينسب معارضه إلى الكفر ، أو يفرض على الناس طاعته باعتباره وظل الله على الارض. وهو الخطأ الذى يقع فيه كثير من المستشرقين عند ما يتحدثون عن وبايا الاسلام ،

وقد حرم الرسول طاعة ولى الآمر فيما خالف الدين أو ما فيه ضرر بين، أو إضرار بالمسلمين .. ومن هنا قرر المسلمون أن الحاكم غير معصوم، ولا يشترط فيه العصمة من الخطأ ..

يقول الباقلاني (١٠١٣ م):

و الخليفة فى جميع ما يتولاه وكيل للامة ونائب عنها، وهى منه ورائه فى تسديده و تقويمه ر إذكاره و تنبيه ، وأخذ الحق منه إذا وجب عليه ، وخلعه والاستبدال به متى اقترف ما يوجب خلعه ، فليس يحتاج مع ذلك إلى أن يكون معصوما .. ويدل على هذا اعتراف الخلفاء الراشدين بأنهم غير معصومين ، و ترك إنكار الآمة أو واحد منهم تولى الآمر مع اعترافهم بنني العصمة عنهم ، هذا أبو بكر يقول: وأطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم مه وعمر يقول: و رحم الله أمرأ أهدى إلينا عيو بنا ، و ولولا على لهلك عمر ، و ولولا معاذ لهلك و ولولا معاذ لهلك و ولولا معاذ لهلك و ولولا معاذ لهلك و ولولا معاذ و ولولا ولولا و ولولا و

ويستدل الباقلاني من هذا على أن الخلفاء اعترفوا بامكانية بل ووقوعهم فعلا في الخطأ . وأن الآمة لم تفترض فيهم العصمة من الخطأ ولا ادعاها أحد منهم .. كما تستدل نحن على ارتباط الطاعة بالتزام الخليفة للدستور الذي يحكم بموجبه وهو تعاليم الدين ، وقبولهم مبدأ المحاسبة والنقويم بل والعزل عند الإنحراف ..

وعبد الظاهر البغدادي . ١٠٣٨ ، يقول :

, وأصحابنا مع أكثر الامة . . إن العصمة من شروط النبوة

والرسالة ، وليست من شروط الامامه (الحسكم) . . وإنما يشترط فيها عدالة ظاهرة ، فتى أقام فى الظاهر على موافقة الشريعة كان أمره فى الامامة منتظا . . ومتى زاخ عن ذلك كانت الآمة عيارا عليه فى العدول يه من خطئه إلى الصواب (أى رفض التشريعات والقوانين والقرارات الى يصدرها) أو فى العدول عنه إلى غيره . .

إن انكار عصمة الحاكم هو قاعدة راسخة من قواعد الديموقر اطية . • فالنظم الملكية الاستبدادية تنطلق من نظرية الملك لايخطى. • وبالتالى تنتنى الامكانية \_ ولو النظرية \_ لحق النقد أو النقد الذاتى . .

والحاكم فى الإسلام هو مثل الآمة ينفذ إرادتها ، ويخضع لهذه الارادة . فهى تحتاج لعبقريته بقدر ماتحناج لديموقراطيته ، واحترامه الارادة الشعب .

وتعبير . وكيل ، الأمة الذى يستخدمه فقهاء المسلمين . . تعبير دقيق لان الوكيل ليس له ان يتصرف الافى حدود الوكالة التي يمنحها له الملوكل .

والارتباط واضح بين انعدام والعصمة، وبين حق الامة في السبة الحاكم وعزله . . بل ومحاكمته . .

وعمر بن الخطاب ينصح بقتل الحاكم المنحرف . . فيراجعه طلحة : هلا قلت « يعزلوه » ! أى الاكتفاء بخلعه ، ولكن عمر رضى الله عنه يقول : « لا . . القتل أنكل لمن بعده » أى فيه ردع وإرهاب للذى يتولى الحكم بعده، فلا يكرر سيرته.. والذى يشرع قتل الحاكم المنحرف، هو حاكم فعلا.. وليس يشائر أو فوضوى ا

وفى هذه النصوص التى اختارها الدكتور يوسف آيبش من الجمّاء ثمانية من علماء الإسلام . نجد الاجماع على حق الحلم ، باستثناء الذين جعلوا الامامة وظيفة دينية . . وافترضوا العصمة فى الامام ، ورأوا ان توليته تتم بموجب الحق الالهى . . بحكم نسبه أو تقمص روح فيه . .

وعلى أية حال فالأن هذا التيار لم تنح له قط فرصة حكم جماعة المسلمين ، فإن فلسفته لم تمارس سلطة شل ارادة الآمه فى عزل الخليفة يقد رماكانت دعوة دائمة لرفض الظلم وخلع القائمين بالآمر ونقد حكمهم والثورة عليهم . .

وقد رد و الرازى ، على المتسائلين عن دور الإرادة الإلهية في اختيار الحاكم ، إذا ما تركنا الامر لاختيار الناس .. و ألا يجوزأن يكون اختيار الامة شخصا معينا ، يكشف عن كونه اختيار الله تعالى . . .

وهو بذلك يردد الشعار الذي رفعته الثورات في أوربا بعد ألف عام ! .. عندما قالت و إن إرادة الشعب من إرادة الله.. بل إن شيخنا يمضى أبعد من ذلك .. فيجعل إرادة الله هي إرادة الشعب ، ويجعلنا تتعرف على إرادة الله من إرادة الشعب ..

وهذا هو الأصل فى رأى رفاعة رافع الطهطاوى عندما قال , فإن كون الملك ملكا باختيار رعيته له لا ينافى كون هذا صدر من الله تعالى على سبيل التفضل والإحسان ، .

واضح أن و رفاعة ، ينطلق من مفهوم الرازى وينطلق الجميع من الفهم الاسلامى للقدر ، ذلك الفهم الرائع الذى عبر عنه عمر بن الحطاب. بقوله لأبى عبيدة .. أن من يطلق إبله فى الأرض الخصبة يفعل ذلك. بقضاء الله ، ومن يسىء اختيار المرعى يفعل ذلك بقضاء الله .. ا

ولكن الدجال يعلق على كلمة الطمطاوى بقوله: , والعل هذا أبلغ. درس يمكن أن يقدم للمصريين عن نظرية الحق الإلهى والحق الطبيعي. في الفلسفة السياسية والاجتماعية , .

وكما رأينا لا وجود لما يسمى بالحق الإلهى فى الفكر الإسلامي. أو فى المجرى الاساسى لهذا الفكر .. أو فيما طبق فى نظام الحكم. الاسلامى ، وشكل تاريخه العام ..

بل إن عبارة الرازى أكثر تقدما من عبارة الطهطاوى ، وهذا طبيعى ، فقد كنا أكثر ازدهــــارا فى عصر الرازى منا فى عصر الطهطاوى ..

### قانون حضاري

ويقول و الدكتور الريس ، إن المسلمين كانوا حريصين على اختيار القب للحاكم يميز بينهم وبين النظم الرجعية المحيطة بهم ، هذه النظم التي كانت مؤسسة على القوة ، وتسير بسياسة القهر والغلبة والجبروت ، وغايتها استعباد الشعوب أو استغلالها من أجل خدمة مصالح الحكام من أفراد أو طبقات . .

وكان المثلان البارزان لامثال تلك الحكومات هما دولتا والآكاسرة، في الفرب .. ولذا فإن الفراك النوع من نظم الحكم عرف عند المسلمين في ذلك العضر بأنه و الكسروية ، و و القيصرية ، وكان يقال له أيضاً : « الملك العضوض ، ويواد به هذا النوع من الحكم الاستبدادي القائم على الوارثة ، والمستندالي القوة وإذلال الامة .

فكان الملك فى الصورة مبغضا إلى الآمة الاسلامية الناشئة .. وكانوا يدركونأن الخلافةالتي جاء بهاالاسلامكانت نظاماجديدا مغايرا كل المغايرة لنظم الامبراطورية أو الملكية التيكانت معروفة فى ذلك الوقت. وهذه الحقيقة ، هي أحد قوانين نشوه وانهيار الحضارات . ي فما من دولة ناشئة استطاعت أن تبنى حضارة جديدة وتعيد تشكيل التاريخ ، إذا ما بدأت بالاعجاب بالحضارات السابقة المنافسة لها . .

إن هذه التبعية الروحية! التي تبدأ بالاعجاب ومحاولة نقل حضارات الآخرين . والرضاكل الرضا بالانتساب إليهم . . هذه التبعية ، لا تخلق حافزا للتفوق ، ولا تمكن المجتمع الناشيء الذي هو بالحتمية أقل تقدما وأكثر بدائية ، لا تمكنه من التفوق على الحضارات القديمة ، العريقة ، وهزيمتها .

لذلك فعندما ظهرت الحضارة الإسلامية ، مع الفارق الشاسع بين التخلف المادى للمجتمع العربي وتقدم المجتمعين الروحاني والفارسي . . كان عامل النصر للعرب هو العقيدة الإسلامية ، التي \_ نمت ضمن ما نمت احساس التفوق عند العربي ، احساسه بأنه سيشيد نظاماأفضل وأسمى من النظم القائمة والتي يحاربها ..

ولنتخيل ما الذى كان يمكن أن يحققه العرب ، لوان كل أمانيهم. قد انحصرت فى اقامة مجتمع متحضر على مثال المجتمع الرومى أوالفارسى؟ -ربما كان الامر قد انتهى إلى محية رومية أو فارسية ! . .

فالبداية السليمة لكلحضارة تريد أن تنتزع مكانها تحت الشمس، هي رفض الحضارات المعاصرة ، والإيمان بأنها ستمنح الإنسان نظامه

<sup>(</sup>١) راجع كتابنا : ﴿ القومية والغزو الفكرى ﴾

أوقيها أفضل، سمى . . حتى لو اضطرتها قوانين المجتمع وأحكام الواقع، لاقامة نظام فيه الكثير من النظم المعاصرة . · ·

ولقد أقام المسلمون خلال السنوات الحاسمة الني اصطدموا فيها بالحضارات المحيطة وبنوا دولتهم، وقضوا نهائيا ولعدة قرون على الخطر الخارجي. أقاموا نظاما جديدا مختلفا كل الاختلاف عن النظم التي عرفتها البشرية. نظاما تحول في النهاية إلى مايفوق قدرات الامة ويتخطى إمكانيات العصر . ولعلما المرة الأولى في التاريخ التي أصبح فيها النظام أكبر من الناس ..

وينقل الدكتور الريس عن ابن خلدون تحليله لتحويل الحلافة إلى. الملك ، بفعل القوانين الاجتماعية ، ولكنه كان ملكا يهدف إلى الحق لا إلى الباطل .. وتطورت النظم إلى أن أصبح ، ملكا عضوضا ، كا تنبأ الرسول . ويربط ابن خلدون بين ضياع رسم الحلافة ، وذهاب عصبية العرب وفناء جيلم وتلاشى أحوالهم وبتى الامر ملكا بحته كا كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق .. »

وهذا يؤكد اعتزاز ابن خلدون بالعرب ، وإدراكه أنه نظام يحمل الطابع العربي .

وهنا لا تقر , الدكتور الريس ، على نقده للدكنور طه حسين ، عندما وصف الخلافة بأنها نظام عربي إسلامي خالص لم يسبق العرب. إليه ولم يقلدوا بعد ذلك فيه .. فإننا نعتقد أن هذه الجلة أدق تعبير ، وأن طريقة النفي التي ذهب إليها طه حسين ، ورغم اعتراض الدكتور.

الريس، هي الطريقة الوحيدة الممكنة لتحديد طبيعة هذا النظام الفريد والراثع الذي أقامه الحلفاء الراشدوري والذي لا مثيل له فيما سبق ولا ما لحق ..

ولا شكأنه بقدر ماكان نظام الخلافة هو التجسيد الدقيق لفكر الإسلام وقيمه ومثله، فلا شك أنه قد حمل ملامح الشخصية العربية والتراث العربي، كما يتشكل الماء بشكل الاناء دون أن يتغير بحوهره ...

## أهل الحل والعقد

وينطلق الفكر الإسلامي فيبحث في من لهم حق النرشيح لمنصب الخلافة .. أو الشروط الواجب توفرها في المرشح لهذا المنصب .. ومن الذي يرشحه ..

وهنا نرى الفكر السياسي الاسلامي يصل إلى الذروة فىالخصوبة والتنوع .. من الذين حصروا الحكم فى قبيلة واحدة لهــا وحدها حق الترشيح لهذا المنصب . .

فرعم الكعبى أن القرشى أولى بها من الذى يصلح لها من غير قبيلة قريش . .

م تطور البعض إلى حصرها في عائلة واحده .. بل ونسل شخص بعنيه ..

إلى الذين روجوا لآراء فوضوية ، نفت الحاجة إلى حكومة على الاطلاق . . وكان هذا رأيا قويا إلى درجة أن المؤلفين في النظريات

180 (م ۱۰ -- الحق المر) السياسية من فقهاء المسلمين ، كانوا يبدأون بمناقشة الذين ينكرون الحاجة إلى الحكومة . . ويخبرنا , عبدالقادر البغدادى ، (١٠٣٨ م)أن ابا بكر الاصم : رأى أن , الناس لوكفوا عن النظالم لاستغنوا عن الامام ، .

وقد رد عليهم الفقها، بأن الاضرار التي تترتب على انعدام الحكومة هي الفوضى ، والتقاتل ،وسفك الدماء ، وضياع الحقوق،وعدم الدفاع عن الإسلام ، وابطال الجهاد ، وفقد أو طان الإسلام ، ووقوعها فريسة في يد الاعداء . . . .

فهو لم يرفض مناقشة هذا الرأى بحجة أن الدين يأمر بذلك، أو أن أوائل المسلمين فعلوا ذلك فلزم الاتباع . . بل ناقشه بالحجة والمنطق محددا وظائف الدولة الحارسة كما عرفها الفكر الأوروبي بعد ذلك بأكثر من ألف سنة . . الآمن ، والقضاء ، والدفاع الخارجي . .

و انى وهشام القوطى، شرعية الحكومة فى فترة الثورة . وأنكر الخوارج حق قريش فى الاستئثار بحق الترشيح لمنصب رئيس الدولة فزعموا و أن الامامة صالحة فى كل صنف من الناس ، وانما هى للصالح الذى يحسن القيام بها . . ولهذا بايعوا و نافع بن الازرق ، ثم لقطرى ابن الفجاء ولنجدة وعطية وليس أحدهم قرشيا . . . .

ويتطرف بعضهم فى رفضه للارستوقراطية ، وتخوفه من احتكار الحكم فى فبيلة بعينها ، فيضع الضانات ضد مرشحها :

فقال ضرار : ﴿ إِذَا استوى الحال في القرشي والأعجمي . ..

فالاعجمى أولى بها . والمولى أولى بها من الصميم . . ، ويقدم تفسيرا غاية فى الذكاء ، فالثانى يسهل خلعه إذا انحرف . . لأن شوكنه أو عصبيته أضعف . . تماما كالضانات التي يطالب بها اليساريون اليوم ضد مرشحى الطبقات القوية النفوذ أو المال . .

وهذا الخلاف حول الشروط المطوبة فى المرشح الامامة ، لا يعنى أن ننفى والإسلامية، عن بعضها ، ولا يعنى تطبيق المسلمين لأحد الآراء تكفيرا الآراء الآخرى ، فكلها تيارات تنبع من جوهر الفكر الإسلامى ، وكما قلنا فإن تنوعها وتعددها يعكس قابلية هذا الفكر التجدد . . وقدرته على الملاممة بين المثل والواقع . . أو بين آمال الناس وقدراتهم على تحقيق هذه الآمال .

ونانش الفكر الإسلامى قضية: من هم الذين يملكون حق ترشيح الخليفة .. أو بالتعبير الإسلامى الشائع: ﴿ أَهُلُ النَّحُلُ وَالْعُقَدُ ﴾ الذين لهم حق ترشيح الحاكم وليس تنصيبه .

ومن الثابت أن المسلمين قد جربوا خلال الثلاثين عاما التى تلت وفاة الرسول كافة الاشكال الممكنة لترشيح الحاكم .. من اختيار النخبة أو الطليعة ، إلى ترشيح الحاكم القائم لخليفته .. إلى الانتخاب من بين عدد محدود .. إلى ترشيح الجماهير للخليفة وفرضها مرشحها بقوة الشارع ..

إلا أن المكر الإسلامي في جوهره يؤكد حتى الآمة في الانتخاب،

فأ اهل لحل والعقد، أو النخبة التى تتولى الترشيح ، هى القيادة السياسية للمجتمع. لنقل انها الحزب الشيوعى مثلا الذى يرشحر ئيس الحكومة. أو هم أعضاء الحزب الجهورى أو الديموقراطى الذين يختارون المرشح لرئاسة الولايات المتحدة ، أو أعضاء بجلس الآمة يرشحون رئيس الجمهورية الاستفتاء الشعى ..

فهى القيادة السياسية للمجتمع التى تملك ترشيح الحاكم وليس تنصيبه، فهى القيادة التى بوسعها أن تحقق الوحدة الوطنية، ويفترض أنها القادرة على إقناع الجماهير .. وهى قيادة سياسية، بمعنى أنها تتغير بتغير بتغير توازن القوى السياسية والاجتماعية فى المجتمع . .

## يقول أبو يعلى الفراء ( ١٠٦٥ ) :

رأما أهل الاختيار فيعتبر فيهم ثلاثة شروط: أحدها العدالة، والثانى العلم، الذى يتوصل به إلى معرفة من لإمامة يستحق، والثالث أن يكون من أهل الرأى والتدبير المؤدين إلى اختيار مى هو للامامة أصلح.

وليس لمنكان فى بلده ميزة على غيره من أهل البلاد يتقدم بها ، ولمنما صار من يختص ببلد الامام متوليا لعقد الامامة لسبق علمه بموته ، ولان من يصلح للامامه فى الغالب موجودون فى بلده ، (أى مقر الحكم)

كيف نعجز عن رؤية هذا النضج في التفكير السياسيُّ . . ليس

لبلد ولا العصبية ميزة .. ولكن ضرورات الامن والسياسة تحتم أن يبادر أول من يبلغهم النبأ بإجراءات تأمين الانتقال السلمى للسلطة .. وملاحظة ذكية تلك التي تمتبر أن أصلح المرشحين يوجدون في العاصمة مركز النشاط السياسي ، فليس افتئاتا ولااستئثارا أن يكون المرشحدا تما من المدينة وقت وفاة الخليفة ؛ لأن طبيعة العمل السياسي تقتضى وجود القيادات السياسية \_ غالباً \_ حيث يكون مقر الحكم .

يقول الفراء :

وفإذا اجتمع أهل الحل والعقد على الاختيار تصفحوا أحوال أهل
 الامامة الموجود فيهم شروطها فقدموا للبيعـــة منهم أكثرهم فضلا ،
 وأكملهم شروطا » .

والامام الغزالى ضريح فى تفسير معنىأهل الحل والعقد ، وتوضيح الآهمية السياسية لترشيحاتهم باعتبارهم يمثلون الرأى العام ويعبرون عن إرادة الجاهير وبذلك يحققون الوحدة الوطنية . . فإذا فقدوا هذه الصفة فلا يؤيد ترشيحهم حتى ولو كان ترشيح عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابى بكر الصديق ا

فالإمام الغزالى يقول: , يكتنى بشخص واحد يعقد البيعة للامام إذا كان ذلك الواحد مطاعا ذا شوكة لا تطال . . وإذا كان إذا مال إلى جانب ، مال بسببه الجماهير إلى هذا الجانب . . ولم يخالفه إلا من لا يكترث بمخالفته . .

فالشخص الواحد المتبوع المطاع الموصوف بهذه الصفة إذا بابع

كنى ، إذ فى موافقته موافقة الجماهير . . فإذا لم يحصل هذا الغرض الالشخصين أوثلاثة فلابد من اتفاقهم ،وليس المقصود أعيان المبايعين . ونحن لا نقول لما بابع عمر أبا بكر رضى الله عنهما ، انعقدت الامامة له بمجرد بيعته . . ولو لم يبايعه غير عمر وبق كافة الخلق مخالفين ، أو انقسموا انقساما متكافئاً لا يتميز فيه غالب من مغلوب لما انعقدت الامامة . .

فاشتراط تعبير , أهل الحل والعقد , عن ، إرادة الجماهير واضح لا يحتمل التأويل . وكما أن هذا التعبير كان ينطبق على بحموعة من زعماء المسلمين ، فإنه يمكن أن ينطبق اليوم على جهاز أو تنظيم أو مؤسسة بعينها ما دامت تمثل ارادة الجماهير وتسيطر على اتجاهاتها ..

وأكد أبو بكر رضى الله عنه حق الجماهير فى رفض ترشيح أهل الحل والعقد منذ اللحظة التى تم فيها اختيار حاكم لأول مرة فى تاريخ المسلمين ..

فمندما رشحه أهل الحل والعقد فى السقيفة خرج إلى المسلمين .. فقال :

ديا أبها الناس ، قد أقيلكم ببيعتى (أى أتنازل عن الترشيح) هل
 من كاره ، .

فجاءته الموافقة بالاجماع ..

فالامة لها حق الانتخاب وحق المحاسبة.. يقول أبو بكر : , لقد

وليتمونى أمركم ولست بخيركم فان استقمت فأعينونى . . وإن رأيتم في أعوجاجا فقومونى . . »

فيعده أحدهم بأن يقوم (عوجاجه بالسيف. .

هذا هو اول خطاب عرش معروف فى تاريخ العالم . يطلب وثيس الدولة مراقبة الرعية السلوكه ، ومعاونته فى السياسة الصالحة ، ثم تتقويمه فى السياسة المنحرفة أو الخاطئة . •

فتؤكد له الرعية أنها «واجه الانحراف بالسيف . . لا بالوعظ والشكوى . .

ويوافق رئيس الدولة بل يحمد الله أن جعل فى أمة محمد من يقوم الانحراف بالسيف · ·

وقد أكد عمر حق الأمة المطلق فى قرار هذا الترشيح أو رفضه بقوله: « من بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين ، فإنه لا بيعة له ، ونصح بقتله هو ومن بايعه .

فالعصبية التي تحدث عنها ابن خلدون ، هي القوة التي تستطيع فرض الوحدة الوطنية بفرض مرشحها ، والفرض لا يكون بعصا الغلب وحدها ، بل لابد له من عصا الاقتناع والرضا ..

ومن هنا فان انتقاد « الدكتور الرئيس » النظرية العصبية عند ابن خلدون ، غير واضح الأسباب .. ولا نذهب نحن مذهبه ..

لان العصبية قد عكون في مرحلة معينة ـ القوة العسكرية ،أوالنفوذ.

القبلى، أو العائلى، وقد تكون فى مرحلة أخرى القوة الاقتصادية ،. أو السياسية والاجتماعية ، التى تشكل الآغلبية والقيادة السياسية. للمجتمع . .

فابن خلدون كان عبةريا في اكتشاف قانون العصبية ، وما زال قانو نه صالحالتفسيرقضية السلطة. إنه يحتوى على نظرية ديكتا تورية الاغلبية.

وهو قد ارتفع به إلى المستوى السياسي .. فلم يعد قضية دم أزرق أو حق مقدس لقبيلة بعينها لآن النبي منها ، بل لآن لها الزعامة السياسية وهى تكفل وحده الآمة .. فلما فقدت هذه الصفة ، انتقلت العصبية. إلى القوى الجديدة .

#### حق العزل

والامة التي تملك أن تعين الحليفة ، تملك أن تعوله . وإقرار مبدأ العزل في الفكر الإسلامي ، ينفي كل صفة لا هوتية عن شاغل المنصب فهو موظف عام يقوم بمهام دينية وسياسية . هو رئيس دولة . . وحاكم زمني . . يختار بارادة الامة ، ويستمر في السلطة برضاها ، ولها حق عزله فيعود فردا كما كان ، أو تحاكمه وتوقع عليه ما شامت من العقوبات . . الامر الذي ينفي تماما أنه . بابا الاسلام ، . . فهو يعزل ويعدم وينصب غيره وهو حي . . بل ويمكن كما نرى أن يوجد أكثر من امام في وقت واحد :

يقول القاضى أبو بكر الباقلاني (١٠١٣):

فإن قال قائل : , وما الذي يوجب خلع الإمام عندكم ؟ قيل له نــــ يوجبذلك أمور ، منها :

- كفر بعد إيمان
- تركه إقامة الصلاة والدعاء إلى ذلك .
- ومنها عندكشير من الناس ، فسقهوظله بفصب الاموال وضرب
   الابشار وتناول النفوس المحرمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود .
  - وبما يوجب خلع الإمام تطابق الجنون عليه وذهاب تمييزه
- وكذلك إذا عرض له أمر يقطع عن النظر فى مصالح المسلمين والنهوض بما نصب لاجله أو عن بعضه ، لانه إنما أقيم لهذه الامور ، فاذا عطل وجب خلعه ونصب غيره .
- وكمذلك إذا حصل مأسوراً في يد المدو إلى مدة يخاف معها اللصرر الداخل على الامة ، ويئس من خلاصه . وجب الاستبدال به،

والباقلاني عندما يدين قتلة عثمان رضى الله عنه بعرض آزاء يمكن أن توصف بغير تحرج بأنها قة في الديموقراطية والثورية . . بالرغم من أنه لا يمكن وصف الباقلاني بالتطرف . . أو نسبته للمذاهب الشاذة كالخوارج مثلا . . فهو من أيّة السنة . .

وهو يحلل حادثة قتل غثمان رضى الله عنه فيقول .

و على أنه لو ثبت عليه أمر يستحق به خلع الطاعة وبجب به زوال العدالة . . لم يكن ذلك مبيحاً قتله على ذلك الوجه ، لانه لم يحم دارآ

ويمتنع على المسلمين . ولا نصب حربا بينه وبين امن سار إليه . فقد كان يجب عليهم القبض عليه لما أخذوه و تمكنوا من داره وحريمه أو حبسه وإبعاده . . أو أخذه بغاية الإرهاب يخلع نفسه لوكان مستحقا للخلع . . فأما أن يقاتل على ذلك الوجه وهو غير ناصب للحرب فضلال وظلم لا محالة . .

لا أظن أن قانونيا أو ثوريا يستطيع أن يضيف إلى ذلك سطراً أو أن يعارض منه حرفا . .

فالخليفة إذا انحرف جاز إلقاء القبض عليه ، ومحاكمته ، واجباره على الاستقالة أو خلمه . . فإذا احتمى ورفض النزول على إرادة القانون . . حق قتاله حتى يلقى القبض عليه . .

ولكن ما دام لم يستخدم القوة ، ولم يمتنع على المعارضة ـ فن حقه أن يظفر بالمحاكمة القانونية التي تباح لأى متهم .

وفى كل دساتير العالم الحديث توضع بنود خاصة تنظم محاكمة برئيس الدولة ، وتجعل لسلطة بعينها حق توجيه الاتهام له · ·

وقد أجمع الفقهاء على أن الأمة هي مصدر السلطات ،وقيام الخليفة الايسلما هذا الحق ، واستقر الرأى على جواز استقالة الخليفة أو عزله . .

وذهب وضرار ، من المعتزلة إلىأنه إذا تساوى حبثى وقرشى فى الصفات المطلوبة للحاكم وجب اختيار الحبشى لأنه يسهل خلعه إذا انحرف . .

والامة مسئولة عن انحراف الحاكم، يقول رسول الله .. • إن الله لا يعذب العامة بعمل الحاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه ،

وقوله : , ما أقر قوم المنكر بين أظهرهم إلا عمهم الله بعذاب. محتضر »

ويستخلص « الدكتور الريس ، من ذلك ضرورة قيام هيئة لها: الرقابة على الحاكمين ، أى « برلمان » .

ولاشك أن أمة يعاقبها الله ، إذا ما جبنت عن الثورة على انحراف. المسئولين ، لا شك أنها أمة يفترض فيها الحرية والمسئولية ، وأنها هي وحدها المصدر الوحيد للشرعية .

والحاكم مطالب بأن يقيم حكمه على الشورى ، والرازى زحمه الله يقف على معنى من أجمل المعانى فى نزول آية الشورى ، وشاورهم فى الأمر، . فهذه الآية قد نزلت عقب غزوة أحد ، ونزولها بالذات. عقب هذه الغزوة يؤكد حرص الإسلام على الديموقراطية وكراهيته للاستبداد بالرأى . فني هذه الغزوة بالذات كان دأى المسلمين خلاف. وأى الرسول ، فقد أصروا على الخروج بينما كان رأية التحصن بالمدينة . وكانت هزيمة . ومثل هذا الحدث قد يعطى مبررا لاى بالمدينة . وكانت هزيمة ، لكى يرفض رأى العامة لانه خاطى . . ومنعا لذلك نزلت آية الشورى ، وفي أعقاب غزوة أحد بالذات ، لتقطع الطريق على من يحاول الانتقاص من رأى أمة ،أو الافتئات على حقوقها مـ الطريق على من يحاول الانتقاص من رأى أمة ،أو الافتئات على حقوقها مـ الطريق على من يحاول الانتقاص من رأى أمة ،أو الافتئات على حقوقها مـ الطريق على من يحاول الانتقاص من رأى أمة ،أو الافتئات على حقوقها مـ الطريق على من يحاول الانتقاص من رأى أمة ،أو الافتئات على حقوقها مـ الطريق على من يحاول الانتقاص من رأى أمة ،أو الافتئات على حقوقها مـ الم

### حكومة المسلمين

وتثير الدكتور الريس سؤالا هاما لعله كان محور الجدل فى مطلع مهذا القرن . . وهو مدى التزام المسلمين بإقامة و الحكم الإسلامى ، ومهما تكن أدلة النقاش ، فلا شك أن الرأى الذيكان ينادى بضرورة قيام الحكم الإسلامى عندما كانت السلطة فى يد الاحتلال الفرنسى والايطالى والانجليزى والهولندى والبلجيكى فى الوطن الإسلامى ، لاشك أن هذا الرأى كان هو الرأى الثورى . . والفلسفة التى تعطى ثورة التحرير دافعا قويا . . وتربطها بحركة الجماهير وإيمانها . . إنها على الإفلاكانت ترفض الحكم الاستعارى . . غير الإسلامى . . وتحرض الجماهير ضده . .

بينها كانت الآراء المعارضة تشكل لونا من قبول السلطة الاجنبية الاستعارية .

فإذا أضفنا إلى ذلك أنه ما من شكل معين لنظام الحكم قد

فرض علينا . . الأمر الذى لوكان لهدد بشل تطورنا ، وهو مالا خوف منه ،لان الصحابة كارأينا ـ أقاموا خلال ٣٠ عاماكافة الاشكال المتصورة لقيام السلطة وانتقالها ، ومارسوا حق نقد السلطة والثورة عليها .

فلم تكن الدعوة إلى الحصومة الإسلامية ، خلال سنوات. الاحتلال الاجنبى ، تعنى الدعوة إلى قيام شكل بعينه من نظم الحكم .. إنما كانت تعنى أولا وقبل كل شى السقاط السلطة الاستعادية ، ورفض حكما غير الإسلامى ..

ومن المؤكد أن المسلمين فى الهند وأندو نيسيا وأفريقيا كانوا على . وأس القوى المقاومة للغزو الاستعارى الأورى . .

وهكذا نرى أى زيف قد فرض علينا ، عندما صور أعداه. و الحكم الإسلامي ، بصورة التقدميين الثوريين ، بينها كانوا في الحقيقة يعطون المبرر أو الشرعية للحكم الآجني . . فا دام المسلمون. عير ملزمين بإقامة حكم إسلامي ، ولا يلزم أن يحكمهم مسلم ـ فلا عليهم إن حكمهم كرومر أو جرازياني

وكم فى تاريخنا من زيف .. وأكاذيب ..

محمدرسول الله.



هذا كتاب أحببت أن أعرفك به ، وأن نطوف صفحاته معا .. مؤلفه لا يحاول أن يعلمنا كما يفعل مكسيم رودنسون ، بل يحاول أن يفهم ، ويحاول أن يُفهم مواطنيه من أبناء الحضارة الغربية . .

ومؤلفه « ألفونس ايتين دينيه » هو ابن للحضارة الغربية ، أتيحت له فرصة التأمل ودراسة الدين الإسلامى ، فاكتشف أى زيف روجته الاقلام الصليبية خلال قرون المواجهة بين الغرب والشرق الاسلامى . .

وعرف أن ما لقنوه له عن موضوعية النظرة الغربية ، ليس إلا خداعا سرعان ما يتخلون عنه إذا ما كان البحث يتعلق بالاسلام ، خصمهم الحضارى ..

و والفونس ايتين دينيسه ، ولد فى باريس ١٨٦١ فى قمة ازدهار الحضارة الغربية ، وتألق النظام الرأسمالى وتوفى فى ١٩٢٩ ، فى العام الذى بدأ وجه هذا النظام فيه كالحاكثيبا عام الازمة الاقتصادية الطاحنة التى ألقت بالحضارة الغربية إلى الديكتا تورية . . ديكتا تورية اليمين الفاشية ، وديكتا تورية اليسار الشيوعية . .

وقد عاش دينيه فترة تألق الحضاره الغربية وسيطرتها المطلقة على مصير الدنيا ، عندماكان يبدو خلود هذه السيطرة ، واستحالة مقاومتها فضلا عن هزيمتها ، ومن هنا فقد بدد رحمه الله وغفر له ، الكثير من وقته وجهده في التشفع لنا عند سادة الدنيا الغربيين ، وإثبات حسن نوايا الشرق واستحقاقه نظرة عطف من الوضى الجاحد القاسى القلب . .

وهو من كبار المصورين الذين تحتفظ المتاحف الكبرى بلوحاتهم وقد تخصص فى رسم الشرق والانسان العربى .ولعله من خلال محاولته تفهم الإنسان العربي عرف الاسلام فآمن به وأسلم . وقد وضع كتابه هذا عن حياة الرسول . . زينه باللوحات الفنية الملونة . . ولكن للاسف ـ خلت الطبعة العربية من هذه اللوحات مع أنها قد لا تقل أهمية عن الدكلات .

وقد بدأ المترجمان للكناب فضيلة الشيخ عبد الحليم محمود وابنه د. محمد عبد الحليم . عرضهما له باستعراض سريع رغم استغراقه ٥٨ صفحة . . لفكرة الغرب عن الاسلام من خلال الكتابة الصليبية المتعصبة ، ومن خلال محاولات بعض الشامخين في الفكر الغربي أن أن يتحرروا من أسر هذه النظرة ، ويفكروا موضوعيا في الإسلام وفي شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام . . وهي مقدمة كان لابدمنها لكي نفهم التراث الفكرى الذي يكون عقلية المواطن في الغرب ، ويغرس في نفسه العداء والنفور والعجز عن فهم الإسلام . . مم لندرك صعوبة الوصول بالجهد الذاتي إلى تعرف حقيقة الاسلام . . مم لندرك

وأذكر أنني قرأت في كتاب و ملوك وجمال ،أن و أرامكوا » فتحت مدرسة لتخريج أمريكيين يعملون في الجزيرة العربية، وبدأت كأى مدرسة بالتعرف على المعلومات العامة لدى طلبتها الذين تقدموا بالذات للعمل في البلاد العربية الإسلامية . . ويزوى المؤلف أن السؤال الذي طرح هو و ماهو الاسلام ، و و من هو النبي محمد ، . .

وكانت الاجابات ا

صحيح ان الأمريكيين شعب الطرائف والغرائب، ولكنها في اعتقادى تعكس مستوى المعرفة المتاح للمثقفين العاديين في أمربكا ـ فثل هذه الوظيفة لا يتقدم لها رجل الشارع . بل إنسان على قدر معين من الثقافة والاهتمام بالاسلام ! . .

أجابوا والعهدة على المؤلف . . إجابات من هذا الطراز :

أحدهم أجاب أن الاسلام لعبة تشبه البريدج ! .. وآخر قال أنه طائفة غامضة تكونت فى الجنوب كفرع لجمعية «كوكلكس كلان » . « وآخر ظن أنه طائفة ماسونية أمريكيه جديدة . .

أما , محمد ، فهو الرجل الذي كتب , ألف ليلة وليلة ، .

وآخر قال أنه قسيس زنجى أمريكى يعارض الآب ديفين في نيويورك . . .

وآخر كان شديد الثقافة فقال: « محمد رجل له علاقة بجبل ما . . ربما ذهب إلى الجبل . . أو ذهب الجبل إليه ، إشارة إلى مثل سخيف في الفلكلور المسيحى الغربي يقول و إذا لم يذهب الجبل إلى محمد فإن محمدًا يُجب أن يذهب إلى الجبل 1 . .

وبعد أن يعلق المؤلف « جراند بتلر ، على هذا الجهل المتفشى بين مواطنيه يتولى هو تعريفهم بالاسلام على وجهه الصحيح . . هكذا :

وقال الملاك: أوه محمد ا . : أنت نبى الله . . وأنا جبريل . .
 الكتب كلمات الله ا . . ( أكتب وليس اقرأ ) .

كيف يكتب محمد . . وهو الذي لايعرف حتى القراءة . .

وذهب محمد إلى زوجته التي طمأنته وأكدت لهأنه نبي . .

وفي المرة الثانية كتب محمد ما أمره الملاك أن يكتب ا

ماهى أركان الاسلام؟ . . يعلمهم الآخ جوانت بتلر :

المسلم يحب أن يعترف يومياً أنه لا إله إلا الله ومحمد نبيه.. ويجب أن يصلى خمس مرات يومياً في الصباح وفي الظهر .. وفي المساء ..وفي المليل .. وقبل النوم .. ا

الزكاة وهى ٥٧٦٪ من دخله السنوى (١) .

وصوم رمضان أن لا يأكل ولا يشرب من شروق الشمس حتى غروبها . .

وإذا أمكن يحج مرة إلى مكة المقدسة ، حيث يكون من حقه أن يحمل لقب حاج ، وهو يضعه في مرتبة أعلى قليلا من أقرائه! . .

<sup>(</sup>۱) ملولاً وجمال ( نيويورك ١٩٦٠ ) ص ١٧ ــ ١٨ ــ ٢٠ ــ ٢٠

ولا يعنى ذلك أن الغرب لا يدرى شيئاً عن الإسلام . بالعكس لقد كان لديه دائماً أبداً متخصصون على درجة عالمية من الفهم والمعرفة للاسلام كعدو حضارى ، ولكن التعبئة الايدلوجية المطلوبة لغزوديار المسلمين واستعبادهم تطلب إلى جانب الفهم الدقيق لدى القيادات ، تجهيلا واسع النطاق لدى الجاهير ، حتى يمكن حشدهم وتوجيههم لمقاتلة الوثنيين المتخلفين المحمديين! . .

من هنا كانت صعوبة وصول المواطن الغربي إلى تصور حقيق. لطبيعة الإسلام وشخصية الرسول، وكانت عظمة الإسلام في استطاعة. تعاليمه أن تخترق حجب الجهل والتزييف هذه، وعظم المجهود الذي بذلته. بعض الشخصيات النبيلة لتتفهم هذه التعاليم ..

فيعرفنا الكتاب بالكونت هنرى دى كاسترى ، المستعمر الفرنسى. الذى هزته كبرياء الجزائريين عندما يمارسون شعائر الاسلام . وراعه أنهم يستطيعون الوقوف بين يدى الله بمجرد نزولهم من فوق ظهر الجواد في أية بقعة من الصحراء يبدأون فيها الصلاة ! . . ويبدو أنه لم يعلم أنه بوسعهم أن يصلوا ، أى أن يقفوا بين يدى الله ، حتى وهم على ظهور خيلهم . .

ومن خلال حياته في بلاد الاسلام استطاع الكونت أن يكتشف سخافات وتزييف ماكتب في فرنسا عن الاسلام ...

يقول الكونت : « من الغريب قولهم أن محمداً الذي هو عدو: الاصنام ومبيد الاوثان كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من.

خهب! وزعموا أن صورة « ماهوم » ( يعنى النبي محداً )كانت تصنع
 من أنفس الاحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق إتقان . .

أليس من الطبيعى أن يظل بحمع الكرادلة متهماً للمسلمين بأنهم عبدة أوثان إلى عامين مضيا . عندما عفا عنا وأعلن نقلنا من دائرة الوثنيين إلى دائرة الذين يعبدون إلها . . بالرغم من أن ديننا قد وصل إلى الذروة في التوحيد ، بل لا يمكن القول أن هناك عقيدة أخرى قد وصلت في التوحيد إلى ما وصل إليه ، بل وديننا يكره بجرد اقتناء . . وصلت في التوحيد إلى ما وصل إليه ، بل وديننا يكره بجرد اقتناء . . . عن رسول الله إلى الآن . .

# ولكن هذا نموذح بما زيفته الحضارة الغربية على الاسلام . .

ويفسر الكونت دى كاسترى هذا التزييف ، بأنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية بل حفظ روح البغضاء فى نفوس الغربيين ويؤكد أن روح البغضاء هذه لم تسد القرون الوسطى وحدها ، بل مازالت سائدة عند الغربيين ، وكان سلاحهم الوحيد هو إشباع خصمهم سباً وشتما ، وتحريف النقل عنه مااستطاعوا . .

وأتعب الكونت نفسه فى الرد على العديد من الافتراءات مثل النوعم بان الرسول لم يكن أميا وإلا لما اختارته خديجة للتاجرة لها فى الشام، فيؤكد الكونت أنه يوجد وكلاء للكثير من التجار أميون. ولم لعل الكونت لو عاش لعرف أن صاحب أكبر بنك فى الجزيرة

العربية . . أمى . . لا يعرف من الكتابة إلا الامضاء ، وهو من أنجح الاقتصادين . .

ويرد ردا بارعا على الزعم بأن محمدا عليه الصلاة والسلام عرف التوحيد من اطلاعه على التوراة والإنجيل . . فيقول الكونت : لوأنه فعل لما اهتدى إلى التوحيد قط ا

مم ينتقل المترجمان إلى «كارلايل» صاحب كنتاب الابطال الذى يكتب عن رسول الله فيقول: « من العار أن يصغى إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين أن دين الاسلام كذب وأن محمدا لم يكن على حق . . . »

« لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة فالرسالة التى دعا إليها هذا النبى ، ظلت سراجا منيرا ، أربعة عشر قرنا من المزمان ، لملايين كثيرة من الناس . فهل من المعقول أن تكون هذه المرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين وماتت بجرد أكذوبة ؟ . . لو أن الكذب يروج عند الحلق هذا الرواج الكبير الأصبحت الحياة سخفا وعبثا وكان الاجدر بها ألا توجد ،

ومنطق كارليل: , هل رأيتم رجلا كاذبا يستطيع أن يخلق دينا ، هي يتعهده بالنشر بهذه الصورة ؟ إن الرجل السكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتا من الطوب ، لجهله بخصائص مواد البناء ، وإذا بناه فما ذلك الذى يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد . فما بالك بالذى يبنى بيتا دعائمه هذه الملايين الكشيرة من الناس ،

وحجة كارليل قوية . . ومنطقية فى الفهم الغربى الأمور . . فإن محك صدق الشيء نجاحه . . وقد يرد عليها \_ ولو أننا لا نلتزم بها \_ بأن بوذا وكو نفشيوس قد أسسادينا تمتنقه ملايين أكثر ولقرون أطول. ولكن يرد على ذلك بدراسة لظروف العزلة التى أحاطت بالبوذية ومكنتها من الانفراد ، بينها ظهر إالإسلام فى قلب المركز الدينى للعالم وتعرض لحرب شعواء بمختلف الاسلحة ، شم بق وصمد وأنتشر . .

ويختتم كارليل بحثه عن رسول الله قائلا :

هكذا تكون العظمة . . !

هكذا تكون البطولة . . !

وهكذا تكون العبقرية ا

أما و تولستوى وأن الكتاب يقدم حقيقة لعلها غير معروفة لابناء هذا الجيل، وهي سر قرار الحرمان الذي أصدر البابا ضده، والغريب أنه على كثرة ماكتب عن تولستوى، حتى شتائم زوجته، فانه من النادر أن نعثر على تسجيل لرأيه في الإسلام وفي رسول الله. . بل وخطاب الشيخ محمد عبده له . .

يقول تولستوى :

د لاريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا
 الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة . ويكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى

نور الحق ، وجملها تجنح للسلام ، وتكف عن سفك الدماء وتقديم، الضحايا . .

ويكفيه فخرا: أنه فتح طريق الرقى والتقـــدم، وهذا عمل عظيمٍ لا يفوز به إلا شخص أوتى قوة وحكمة وعلما، ورجل مثله جدير. بالاحترام والإجلال . . . ! !

وقدكتب له الشيخ محمد عبده:

دأيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى

لم نحظ بمعرفة شخصك ، لكنا لم نحرم التعارف مع روحك ... سطع علينا نور من أفكارك ، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك ، . ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك، ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب .. التقاليد ، وصلت بها إلى حقيقة التوحيد .

وكما كان وجودك توبيخا من الله للاغنياء ، وكان مددا من عنايته المضعفاء والفقراء . وإن أرفع بجد بلغته ، وأكبر جزاء نلته على متاعبك فى النصح والارشاد ، هو هذا الذى سماه الغافلون بالحرمان والابعاد ، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين ، سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين . فاحمد الله على أن فارقوك فى أقوالهم . . كما كنت فارقتهم فى عقائدهم ،

أما اللورد هيدلى ، فقد فكر وصلى . ٤ سنه حتى اكتشف أن « الدين المحمدى ، هو الذى يجعل الانسان يعبد الله وحده كل الوقت، وليس فى أيام مخصوصة . . واكتشف أن الاسلام هو الدين العالمي حقا . . ولو أنه خرج من . . دلك بنتيجة غريبة لا نقره عليها ، وربما طرحها بحسن نيه لاغراء «الانجليز باعتناق الاسلام!!

وأيمكن اذن ، أن يوجد دين يمكن للعالم الإنساني من أن يجمع أمره على عبادة الله الواحد الحقيق ، الذى هو فوق الجميع ، وأمام الجميع ، بطريقة سهلة خالية من الحشو . . فكر لحظة أنه لو أصبح كل مؤرد فى الامبراطورية الانجليزية محمديا حقيقيا بقلبه وروحه لاصبحت إدارة الاحكام أسهل من ذلك ، لان الناس سيعملون بدين حقيق ، ويضع اللورد إصبعه على سر إعجاز الإسلام ، وهو رفع الحجاب

ويضع اللورد إصبعه على سر إعجاز الإسلام ، وهو رفع الحجاب . بين الارضوالسياء .

وفوق الجميع ، وليس هناك فى الاسلام إلا إله واحد نعبده و نتبعه ، إنه أمام الجميع ، وفوق الجميع ، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه ، إنه لمن المدهش حقا أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة ، فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤبة السماء ، رؤية أبيهم القهار المتصل دوما بسكل مخلوقاته مسواء كانوا عاديين أم أولياء مقدسين.

و مفتاح السماء موجود دائما فى مكانه، ويمكن إدارته لأذل وأقل المخلوقات، دون أية مساعدة من نبى أو كاهن أو ملك . إنه كالهواء الذى نستنشقه مجانا لمكل خلق الله . . ،

ويدهش اللورد من أولئك الذين يبشرون باسم السماء ثم يروجون

الاكاذيب: • ! ، ليس في وسع الانسان ، في الحقيقة ، إلا أن يعتقد أن مدعى وناسجى هذه الافتراءات ، لم يتعلموا حتى ولا أول مبادى. دينهم ، وإلا لمــا استطاعو أن ينشروا في جميع أنحاء العالم ، تقارير يعرفون أنها محض كـذب واختلاق ،

وهو موقف يحتاج حقا إلى دراسة عميقة . . كيف يقبل رجل دين أن يهسدى الناس إلى ما يعتقد أنه الحق والصدق ، بالاكاذيب والافتراءات ١٤ . . وهل يمقل أن رجال الدين هؤلاء على سمة معرفة بعضهم و يصدقون هذه الافتراءات ، ولا يكلفون أنفسهم مؤونة دراسة دين نصبوا أنفسهم لمحاربته . . أم أن الحقيقة نسبية ، والناس تحدد علاقها بالحقيقة مسبقا ، من خلال الموقع الذي يقفون فيه وينظرون إلى الحقيقة من زاويته ١٤ .

ويبدو أن تاريخ الغرب الحديث حافل بالذين وصلوا إلى الاسلام بجهودهم الخاصة ، ويبدو أيضاً أن ستارا رهيبا من النسيان قد ضرب على هؤلاء ، وأن جهات عديدة فى الوطن العربي تنفق أموالها فى تعريفنا بأى شىء ، إلا بالذين كتبوا عن إيمان واقتناع وفهم عن الاسلام ونبي الاسلام .

فيعرفنا الكتاب بالشيخ , عبد الواحد يحيى ، أو , رينيه جينو ، قبلأن يسلم . . والذى \_ كما يقول الكتاب \_ ترجمت كتبه إلى معظم اللغات \_حتى لغة , الهند الصينية ، \_ إلا اللغة العربية ! . . ، . ورينيه

<sup>(</sup>١) الجامعة العربية اتخذت قرارا بترجمة الأعمال الدكاملة لشكسبير . . ودار السكانب عاكمة فلى ترجمة الأعمال السكاملة لدستوفسكي ! .

جينو ، وصل إلى الاسلام من خلال بحثه عن نص مقدس لم يشبه تحريف أو تبديل ، ومن خلال دراسة تاريخية وعلمية وصل إلى أن القرآن هو وحده الوثيقة التي لم يصبها أي تحريف أو تبديل . .

ثم نصل إلى دينيه . ولكن قبل أن نتحدث عن دينيه يجب أن نقف قليلا حول مغزى إسلام هؤلاء الذين يمثلون نخبة المثقفين في الحضاره الغربية . . إنهم يمثلون حالة نادرة من حالات الانتصار العقائدى .

فالحضارة الغربية فى هذه الفترة التى أسلم فيها هؤلاء ـ و تعنى من القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين ـ كانت تمارس بجدا لم تعرفه حضارة من قبلها ، قد ركعت عند قدميها كل الحضارات وكل الشعوب . . . الكلمة كلمتها بغير منازع فى مصير الانسان . . تفوق ساحق فى جميع الميادين . . أمام تخلف مزر بكل المقاييس . .

وليس إلا في الاسلام وحده ، نجد ظاهرة اعتناق القاهر المنتصر عقيدة المقهورين . ولاشك أن الذي يستشف عظمة الإسلام وسمو تعاليم وصدق رسالته ، من خلال حياة المسلمين في آسيا وأفريقيا في القرن التاسع عشر . . وهو القادم من باريس أو لندن أو برلين . . لاشك أن ذلك يؤكد عظمة هذه التعاليم وتفوقها الساحق ، كما يؤكد شفافية وموضوعية ذلك الذي اراد الله له الهداية . .

وقد اكتشف ردينيه ، ١ أن العقيدة المحدية لاتقف عقبة في سبيل.

وكما أن الإسلام قد صلح – منذ نشأته – لجميع الشعوب والاجناس، فهو صالح كذلك لـكل أنواع العلميات وجميع درجات المدنسات،

يقول دينيه , لوكان الإسلام الحقيق معروفا في أوروبا لمكان من المحتمل أن ينال من أكثر من أى دين آخر من العطف والنأييد من جراء روح التدين التي نجمت عن الحرب الكبرى ، فإنه موالحق بيقال ما يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم ، .

وقد تولى « دينية ، مناقشة قومه فعقد مقارنة بين مفهوم الله عندنا وصورته كما تقدمه التوراة. . يقول :

«الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الاله شكلا بشريا أو ما إلى ذلك من الاشكال . أما في المسيحية فإن لفظة « الله ، تحيطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بانت عليه جميع . دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال ، فن تجاعيد بالوجه غائرة إلى لحية بيضاء مرسلة مهملة تثير في النفس ذكرى الموت والفناء . و نسمع القوم . يصيحون « ليحيا الله ، فلا نرى للغرابة محلا ، ولا تعجب لصيحتهم وهم . ينظرون إلى رمز الابدية الدائمة وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العمر ، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء ؟ وكيف لا يطلبون له المعاة ؟ . . . . .

وقد علق مسيو وكازانوفا ، أحدكبار أسانذة الكوليج دى فرانس. على موقف الاسلام من العلم فقال : و يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفسكارنا . . يعتقدون ذلك وينسون أف نبى الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة ! فأى رئيس ديني كبير ، أو أى قس من القساوسة العظام، كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول الله عنوان القول مثل هذا القول الله عنوان عنوان الفكرية الحاضرة . . ولكن أليس العهد بقريب يوم كانت السكافة عندنا من أهل العقول تنظر إلى مثل هذا الشعار كا أنه رمز العار وتجلبة الشنار » .

وعلى عكس ما يروجه الدجال عرب تأثير الحروب الصليبية نجد. الآشراف من رجال أوربا يعترفون بفضل العرب. يقول العالم المسيحى المتدين « بارتلى سان هيلار » :

« إن العرب هم الذين م يرجع إليهم الفضل على سادات أوربا وفرسانها ، في القرون الوسطى ، في تعديل عاداتهم الحشنة وتلطيفها ، شم تعليمهم رقة العاطفة ، وتهذيب نفوسهم ، والرفعة بها إلى حيث الإنسانية والنبالة ، وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف ينقص من فروسيتهم، وشجاعتهم شيئاً ، .

مم ننتقل إلى الكتاب ذاته ، وهو سيرة عادية لرسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، جمعها المؤلف من كتب السيرة ، ولا أرى القارى" العربي بستفيد كثيراً منها ، فأى مرجع عربي يرجحها ، خاصة وأن المترجمين. لم يحاولا التعليق أو الشرح أو التحقيق ، وأيضا لانها لم تخل من آثار المستشرقين هنا أو هناك . . بل الغريب أن المترجمين على مكانتهما العلمية يعترفان أنهما ترجما أحاديث نسها دينيه لرسول الله ، وأعجزهما الوصول الله أصلها العربي . . ولاندرى كيف سمحا لنفسهما بترجمة ونشرأ حاديث وهما لا يعرفان لها أصلا! . .

إن إعجابنا بقدرة , دينيه ، على هداية نفسه لايعنى أن نتعلم منه ويننا ، أو نجعل منه الصحيح السابع فى الشينة ! . . ومن يحقق الحديث إن لم يفعل عميد كلية من كليات الآزهر ، وإمام من أئمة التصوف ! ! ألا يحق لنا أن نخشى قارئا من الذين يتخطفون الكلام ، يأتى بعد عدة سنين فيقول عن محمد عن عبد الحليم عن الفونس دينيه أن رسول الله . . . استغفر الله العظيم . .

ورغم ما النزم به دينيه في مقدمة دراسته عن سيرة الرسول من.

مرفض المعجزات . . إلا أنه سرعان ما استهوته الخوارق شأنها مع العقلية الغريبة ، واضطرب منهجه بين قبول المعجزات ، وبين البحث لما عن تفسير على ، وهو في اعتقادى شر الحلول ، فإما أن نقبل المعجزات ، ما دمنا قد سلمنا بوجود قوة خارج القوانين الطبيعية . . من معجزاتها هذا الاستمرار ، وهذه الحتمية في قوانين الطبيعة ، غير أن . . هذه الارادة العليا لا يعجزها أن تعترض روتينية ورتابة القوانين الطبيعية فتحدث من الافعال ما تشاء . .

فلن تستوقفنا السيرة طويلا ، بقدر ما نتوقف عند بعض الملام «التي جذبت هذا العقل الغربي إلى الاسلام . .

والميزة الخاصة التي يمتاز بهاحج المسلمين هي عدم وجود تلك المعابد
 الكثيرة ذوات القباب الضيقة التي تحبس الارواح ، وتقفها في وثبتها
 إلى الخالق ، فتبقيها على الارض رهن رحمة القسيس .

ويمتاز أيضا بانعدام جيش القديسين العرمرم ، الذى تشغل عبادته عن عبادة و الآله الخالد ، الذى ينسى عادة فى مثل تلك الأوقات. وأخيراً ، فالذى يمتاز به الاسلام ، انعدام القسس ، ورجال الدين على الختلاف درجاتهم الذين يتحاسدون ويتنافسون فى اجتذاب الحجاج،

والاستيلاء على أمكنة الحج لإرضاء وتمجيد طوائفهم ، أو درجات كهونتهم .

فى مكة لايعبد إلا الله الواحد الصمد . فإن كان الحجاج يحاولون بعث ذكريات إبراهيم ومحمد ، فانما يكون ذلك ليقووا شعلة إيمانهم متبعين سنة نبيهم ، ولا يصلى المؤمنون أبداً لاولئك الانبياء كما يصلى المسيحيون لقديسهم ، بل إنهم ليدعون لهم برحمة الله . .

ويتحدث عن الانتصار الاسلامي الفريد في نوعه:

« ففى أقل من مائة عام ورغم قلة عددهم ، استطاع العرب الأمجاد عرقد اندفعو ، لأول مرة فى تاريخهم ، خارج حدود جزيرتهم المحرومة من مواهب النعم ، أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم ، من الهند إلى الاندلس » .

وقد شغلت ، فى قوة ، هذه القصة المجيدة تفكير أعظم عباقرة عصرنا هذا ، أعنى نابليون ، الذى كان ينظر دائماً إلى الاسلام باهتمام ومودة ، فيقول عن نفسه فى إحدى خطبه المشهورة بمصر : أنه مسلم موحد . ويذكر الاسلام فى أواخر أيامه فيرى أنه ، إذا طرحنا جانبا الظروف المرضية النى تأتى بالعجائب ، فلا بدأن يكون فى نشأة الاسلام مر لا نعلمه ، وأن هناك علة أولى بجهولة جعلت الإسلام ينتصر بشكل سر لا نعلمه ، وأن هناك علة أولى بجهولة اللاولى المجهولة : أن هؤلاء القوم الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحارى ، قد صهر تهم ، قبل ذلك ، حروب داخلية عنيفة طويلة ، تكونت خلالها أخلاق قوية ومواهب حروب داخلية عنيفة طويلة ، تكونت خلالها أخلاق قوية ومواهب

۱۷۷ \_\_ الحق المر )

عبقرية وحماس لا يقهر ، أو ربمـا كانت هذه العلمة شيئاً آخر من. هذا القبيل . .

ولذلك كان نابليون يعلم أن وراء خمول العالم الاسلام ، في فترة الانحطاط خزائن لامثيل لها من القوة الفعالة الكامنة ، فحاول ، في مناسبات متعددة ، أن يستميل المسلمين إلى جانبه ببعض المعاهدات، وكان يؤمن بأنه إذا وفق في ذلك يستطيع أن يوقظ الاسلام من سباته وأن يغير بمعونته وجه الارض قاطبة ، .

« ولم يكن نابليون مخطئاً في ظنه ، فقد كانت الحروب الداخلية ، حقاً ، سبباً في إظهار سجايا البطولة عند العرب ، ولكنها ، إلى جانب ذلك كانت حجر عثرة في سبيل كل تقدم وكل نظام ، ولو لا نبوة محمد لظل هؤ لاء الجنود البواسل إلى آخر الزون في صحاريهم لا يشغلهم سوى الفتن المتوارثة .

على أية حال مهما تكن نوايا نابليون الحقيقية ، فإن عبقريته قد كشفت الطاقة الهائلة التى يفجرها الاسلام فى معتنقيه ، ولا شك أن هذه النصوص تثبت تهافت التفسير الذى يدعى أن نابليون جاء إلينا يحمل مبادىء الثورة الفرنسية ، وأراد أن يقيم قومية علمانية . . إن الشواهد والنصوص تؤكد أنه لم ينظر إلينا إلا كمسلمين ، وأنه عندما فكر فى الاستعانة بنا فقد انظلق هذا التفكير من قوتنا كمسلمين قبل كل شىء . .

كذلك نجد , الفونس دينيه ، معجبً ا بالحضارة العربية والفن

العربي . . قد ملاه بهذا الاعجاب إيمانه بالإسلام . . وهذا يؤكد ما نذهب إليه من أن الاسلام هو وحده الذي يحقق عزة العرب ، ويجمع القلوب حولهم ، وأنالذين يحاولون تجريد العروبة من الاسلام يضمرون شرا للعروبة لا يقل عن بغضهم للاسلام . .

ويستعرض ددينيه ، بعد ذلك فضل الحضارة العربيةعلى أوربا ... بشواهد وأدلة وحقائن علمية تخرس كل دجال . .

العرب هم الذين اكتشفوا . الكحول وحامض الكبريتيك أساس علم الكيمياء ، وأهم العمليات الاساسية في هذا العلم كالتقطير ، تطبيق الكيمياء في ميداني الصيدلة والصناعات ، وخاصة فيها يتعلق باستخراج المعادن وصناعة الفولاذ ، والصباغة وغير ذلك . . صناعة الورق من الحرق ، الاستعاضة به عن رق الغزال وورق البردى والحرير الصيني ، ومن المحتمل أنهم أول من استخدم البوصلة في الملاحة ، ومن المحقق أنهم أدخلوا هذا الاختراع الاساسي فى أروربا ـــ وأخيرا فهم الذين اكتشفوا الاسلحة النارية ففي عام، ١٢٠٥ استخدم الأمير يعقوب المدفعية في حصار مدينة المهدية ، وفى عام ١٢٧٣ استخدمهاالسلطان أبو سيف فى حصار مدينة سجلماسة، وقد حضر كونت دربي وكونت سالسبري الإنجليزيان في حصار مدينة الحزيرة التي دافع عنها العرب بالمدافع، فشاهدوا نتائج استخدام البارود ، فنقلاً ذلك الاختراع إلى بلادهم فاستخدمهالانجليز في معركة كريش بعد ذلك بأربع سنوات . . .

ويقول الفونس دينيه , ولعل أثر المسلمين في ميدان الـفكر أخطر

شأنا ، فقد دعا عيسى إلى المساواة والاخوة ، أما محمد فقد وفق إلى ح تحقيق ، المساواة والاخوة بين المؤمنين أثناء حياته .

وقد عارض و ابن رشد ، وحدة الوجود القديمة ، والنجسيم المسيحى بعقيدة الايمان بالله وحده فى الاسلام ، وتحمس أحرار الفكر فى العصر الوسيط الأوروبي لشروحه لارسطو ، وإن كانت هذه الشروح مصبوغة بصبغة إسلامية قوية . ويمكن أن نعتبر ، بحق ، أن التيار المفكرى الذى نشأ عن هذا التحمس لابن رشد كان أصل المتفكير المنطق الحديث ، فضلا عن كونه من أصول الاصلاح الدينى . .

ويطرح ودينيه،سؤالا هاما .. لماذا ينكرالغربكل أثر للاسلام.. ولماذا ينكر هذا الآثر وعلماء يبدو أن روحهم العلمية تخرج بهم عن كل تعصب ديني . »

ويجيب على سؤاله: «إن الواقع يشهد بأن حرية الرأى مسألة ظاهرية أكثر منها حقيقية ، وأن الإنسان ليس حر التفكير على الاطلاق كما يشاء فى مسائل معينة ، ثم إن التعصب الموروت لدى المسيحيين ضد الإسلام وأتباعه ، قد عاش فيهم دهورا طويلة ، حتى أصبح جزءاً من كيانهم .

وفاذا أضفنا إلى هذا التعصب الدينى تعصبا آخر هو أيضا موروث تزيده الاجيال المتتالية تمكنا من النفوس بفضل مناهج الدراسات القديمة التى تسير عليها مدارسنا ، وهو أن كل العلوم والآداب الماضية يرجع الفضل فيها إلى الاغريق واللاتين وحدهم ، أدركنا فى يسر كيف

ينكر الناس عامة ، ذلك الآثر العظم الذى كان للعرب في تاريخ. الحضارة الآوروبية .

و وسوف يبدو دائما لبعض العقول أنه من المهانة أن تدين أورو بال المسيحية للمسلمين با خراجها من ظلمات البربرية والتوحش،

صدقت يا ألفونس وبررت ، وإذاكان تعصب أوروبا وحقدها على الإسلام والمسلمين يفسران انكارها لدور العرب . . فان نفس الحقد مع العالة يكمنان خلف محاولة البعض من غير الاور بيين أن ينسبا أبحاد العرب إلى أصول لا تينية وإغريقية ! . .

ثم ينتقل بنا الفونس إلى وضع المسلمين الحالى ، ويتوقف طويلاً في أسى عند تخلف المسلمين الراجع إلى رفضهم التعامل بالربا . . وينصحنا في تألم صادق : « ولكن القرض أصبح اليوم من المقومات الاساسية في كل المشاريع الضخمة ، وأصبحت « البنوك ، صاحبة السلطلة الحقيقية في العالم ، ولذا وجد المسلمون أنفسهم ، مؤقتا ، يسيرون إلى الافلاس الاقتصادي والسياسي بسبب تفسيرهم المبالغ فيه لليات الربا »

ولاشك أننا نفتقد رأى المترجمين فى هذا الرأى، ولكنهما اكتفيةً علاحظة هامشية أعلنا فيها أن الاسلام يحرم الفائدة مهماكانت نسبتها 4 ووضع الآمر على هذا النحو يوحىكأن ديننا يوقعنا فى موقف لافكاك منه، أولا حيلة لنا فيه . .

وكان من الضرورى مناقشة ما هو مجتمع , التعاون والاخوة

**والنعاطف ، وكيف يترجم ذلك في ميــــدان الاقتصاد . .** 

ولقد ناقشنا موضوع الربا في ردنا على مكسيم رودنسون 1 .

ومن الغريب أن يجد ألفونس أن سر تخلفنا في مطلع القرن العشرين معلى الربا ! . . ليته قال لنا أين وجد هؤلاء المسلمين الذين لا يتعاملون بالربا ويرفضون فتح بنك ! . . ليتهم وجدوا . . إذن المكان لنا شأن آخر . .

مع من إذن كانت كل هذه البنوك الاجنبية تتمامل إلا مع أصحاب اللبلاد المسلمين . . و بماذا كانت تتعامل إلا بالربا ؟ . .

ولو عاش ألفونس إلى نهاية عام ١٩٢٩ وما بعدها من سنوات الآزمة لرأى أى كارثة سبها نظام البنوك للحضارة الرأسمالية . .

على أية حال إن والفونس ، عندما أسلم لم ينفصل عن أوروبا وَلاَءْفرنسا بالذات ، وهو أراد أن يهدى أوروبا إلى الاسلام .

وفإذا دخل الاسلام فى الحضارة الأوربية بفضل اشتراكه العظيم الحوادث فسيتضح سناه الحقيق ، وستعرف الامم المختلفة حقيقته التى حجبت عنهم زمنا ، وسيمد السكل يده لمحالفته ، متنافسين فىذلك، لأن قيمتة قد خبروها ، وعرفوا ما يستكن فيه من وسائل القوة التى لا حد لها ولا نفاد . .

<sup>(</sup>١) الفصل السابع « الاسلام والرأسمالية »

ولو نهض أتباع محمد عليه السلام وأفاقوا من سباتهم العميق الرجع لهم عزهم السالف وتاريخهم الجيد ، وصاروا أمة لاتعرف الجور في معاملتها لكل رعاياها ، لا فرق بين مسلم ومسيحي ويهودي ، وتبوءوا مكانهم الذي يليق بمجدهم إن شاء الله . . . .

أما نحن فلا نطمع في هداية الغرب ــ الآن على الأفل ــ بل نريد أن نمبعث الايمان في الشرق لينهض فيحرر نفسه، وينفض غبار التخلف عن قیمه ، لتهدی بنورها من یهدیه الله . . قیمه ، لتهدی پنورها من یهدیه الله ۰۰ 

## من مقدمة كتاب



الأمم عند نهضتها علامات لايخطتها الدارسون، وللحضارات عند بعثها وتجددها شواهد لايغفلها المؤرخون . . وربما كان أهمها - فى تاعتقادى - الالتفات إلى الثراث . . الايمان بالاسلاف ، ومن مم اليمين بقدرة الاحفاد على الابداع . . فما من حضارة قد ازدهرت ولاأمة . قد بعثت ، على سب قديمها ، ولعن تراثها ، وعدم احترامه . . أو حتى توديعه بكلمات تأبين مبعثها إيمان قائلها بأن « إكرام الميت دفنه » ! .

ويستطيع المؤرخ أن يجد تلازما بين انتفاضاتناالسياسية والاجتماعية وحركة بعث التراث . . بل إننا نرى أن البعث الحقيق لم يتحقق لاننا لم فستلهم بعد روح قرائنا ولا استطعنا أن نضعه فى مسكانه الحقيق من مكونات الفكر العربي المعاصر . .

والدعوة إلى بعث التراث تثير دائما عاصفة من النقد من جانب أعداء العروبة ، أعداء الإسلام . . لأن كشف أبجاد الماضى ، يغرى دائما ، بالاعتزاز بنسبة الحاضر إليه ، ويدعم الدعوة لبناء الشخصية العربية بهدى الإسلام ونوره . .

وقدهاجم أعداء تراثنا ، أعداء كياننا العربي ، هاجموا عملية بعث. التراث وأى نقله من ورق أصفر إلى ورق أبيض ، كما يصفونها . .

وهو وصف غير صادق ، لأن النراث وقتها لم يكن مطبوعا أوحى. عنطوطا على ورق أصفر كما يزعمون ، بل كان نهبا مشاعا لغير العرب. يحتكره المستشرقون ، فيخفون فى متاحفهم ، ومكتباتهم وخزائن القصور والكنائس ما شاءوا ، ويحرفون ماحلا لهم ، ويطبعون ما عن لهم، بتشويه مقصود تثيره روح التعصب والصليبية المتوارثه ، أو بتشويه ، مبعثه سوء الفهم والعجز عن استشفاف روح حضارة مختلفة . .

فهم أولا استعاروا هذا التراث كطالي علم ، قرأوه بالعربية ، فم م ترجموه . • فيم لما استولواعلى العالم الإسلامى ، وكانت لهم الغلبة المادية منذ القرن السادس عشر ، بدأوا عملية نهب مسلح ، أو باستغلال حالة التخلف والفقر فى الوطن الإسلامى ، فنقلوا معظم الخطوطات إلى .

ومنهنا كان المسلمون المخلصون، وأبناءالعروبةالصادقون، محقين. كل الحق فى ضرورة أن يعاد نشر هذا التراث، أو بمعنى أصح أن ينشر لانه كان اشبه بالآثار المصرية فى القرن الثامن أو الناسع عشر، قد تعرض لعمليات بتخريب وانهيسار لولاروعتسه وشوخه لما بق كان من الضرورى أن يعاد جمع الاشتات المبعثرة ، ويعاد ترميمها وصبطها حتى نصل إلى أقرب صورها الصحيحة . . وهى عملية لم تتم حتى الآن رغم كل مايقال عن الاهتمام بالتراث . .

ولان الهجوم على التراث الآن لم يعد مكنا ، بعد أن استقل العالم الاسلامى ، واختفت دار المندوب السامى ، ولم يعد بوسع دولة صليبية أن تحشد البوارج عند سُو احلنا بحجة حماية التحفظات الاربعة ا

لذا فإن الهجوم على نشر النراث بدأ يأخذ نغمة الرغبة لافى نقله من - ورق أصفر إلى ورق أبيض . . بل إخراج روائعه . .

وهم كاذبون . .

لأنهم لايؤمنون أبدا بهذا النراث ، وهم يرون أن عيوبنا الفكرية المعاصرة إنما تأصلت فينا دعبر ألني سنة من الفقر الثقافي والعزلة الثقافية عن ثقافات الامم الاخرى.

ما هو تراثنا ؟ .

أى ثمرة والفقر الثقافي والعزلة ، 1 . . أهذا تراث يحرص عليه ؟ . آو يدعى كاتب هذا القول أنه حريص عليه؟ . .

لا.. الفقر الثقافى لاتراث له.. ولاغناء فى بعثه ، سواء على ورق أصفر أو أحمر .. إنما لاننا بدأنا حركة البعث بإعادة ترميم ونشر وفهم أغنى تراث خلفته أمة لاحفادها .. فان ذلك يثير جنون وفزع

اعداء العروبة والإسلام ، فيمودون يحتالون زاعمين أن المسلسلات التايفزيونية عن عمر بن الخطاب أجدى من تحقيق سيرته 1 .

ولا نسمح لانفسنا بأن نسقط فى شرك هذه المقارنة . . فلا بدر أن تستكمل الامة معرفتها بتراثها الثقافى ، ولا بد أن يتعلم المثقفون فيها قراءة هذا النراث وفهمه ، وسبرغوره ، واستشفاف روحه ، ولا بد أن تعيش قيم هذا النراث فى نفوسهم . ولا بد أن يتمثلوا هذه المعانى . ثم تأتى عملية الخلق ، إنتاج أعمال فنية تتفق وعصرهم ، وتعيد تقديم قيم حضارتهم فى شكل يصل إلى عقول معاصريهم ، ويعكس خلود . وتفوق هذه القيم . .

هذا قانون عام فى بعث الحضارات وانهيارها . . حتى الشيوعية عندما وصلت إلى السلطة وأرادت أن تبنى دولة وتبعث أمتها ، اعتزت بالاسلاف ، وغفرت خطاياهم . ورغم كل ماكتبه البلاشفة ضد الاستعار ، نجدهم قد برروا استعار آسيا السوفيتية وحده فى عصر القيصرية ، لانه كان السبيل إلى ما تنعم به شعوب آسيا السوفيتية الآن . من فضل النظام السوفيتي . ا

ولعل مثال الحضارة الغربية أقرب لفهم أولئك الذين يلعنون. ترائهم.. ألم تكن بداية نهضتها فى العودة إلىترائها الإغريق والرومانى . . رغم بعد العهد بين أوربا الحديثة وأسلافها من الإغريق والرومان . . ورغم انقراض هذا التراث ، حتى لقد تلبسوه عند المسلمين ، وتعلموه.. من العرب.. من ترجماتهم وشروحهم . . رغم اختلاف لغاتهم عن اللغة.. التي اخرجت هذا التراث . . ورغم تغير العقيدة الدينية التي أفرزته . --

ورغم ذلك كله ، فقد كانت هذه العودة هي البداية الصحيحة للبعث الأوربي . . بينهاكان التنكر لهذا التراث ، ومطاردته ولعنه ، بأمر الكنيسة ، هو بداية العصور الوسطى المظلمة ، وانهيار الحضارة الغربية . .

ويوم رجعت أوربا إلى تراثها ، دارسة متعلمة ، باعثة فيه الحياة ، . لم يقل أحد أن هذه العودة تعنى السلفية ، وأندعاتها سلفيون ، يؤخرون عجلة التاريخ والتطور ، وينبشون قبور الماضى لإخراج ما يعجب العامة 1 .

وما زال هذا التراث يلقى الاحترام والعناية من مفكرى أوروباً رغم كل ما أبدعته الحضارة الغربية المعاصرة .

وعندما نرى اسطورة مثل و اوديب ، تشمركل هذا الخلق الفي. على مر العصور ، وتعدد الأدباء الذين عالجوها على تباين مذاهبم . وفان هذا لا يعنى عظمة الأسطورة فى حد ذاتها ، بقدر ما ينيء عن عظمة الفنانين والمفكرين الذين يأخذون هذه النواة فيكسونها ديباجة براقة من علمهم وفكرهم ، ويقدمونها فى كل مرة على نحو مخالف ومفهوم جديد .

وماأحفلتراثنا بالاساطير ! ولكنه عجر الاحفاد لافقر الاجداد .. ولذلك لم نأبه بزعم الزاعم أنه يود لو كـتب عن شذوذ و الحسن.

إبن هانى ، ١ أو الحاد شيخ المعرة ، خوفا من أن ينعق الناعقون . ضحكنا لهذا الزعم ، وتمثلنا بالمثل المصرى الدارج : « قصر ديل يا أزعر ، . . فان شذوذ « أبي نواس » لم نعرفه إلا بما أثبته السلف ، والروايات عن شك أبي العلاء . . أثبتها هؤلاء السلف دون أن تفزعهم مخالفتها للعقيدة ، فقد كانت أمانتهم العلبية فوق كل مظنة . . وتقديسهم اللفكر أروع مافى حضارتهم .

المهم أن نقدم جديدا يثرى حاضرنا ، ويورق من نفس جذور دوحتنا العربية الاسلامية . . فكل تناول للتراث في إطار الاعتزاز عالعروبة والاسلام وبهدف إثراء الفكر العربي الاسلام ، هو تناول مظلوب ومرغوب ومثاب . . أما أن يحول البعض هذا التناول إلى معاول يحاول بها أن يهدم الدوحة الشامخة ، أو أن يدعونا إلى إغفال تاريخنا وعبادة تاريخ وأسلاف الآخرين \_فهو تآمر صربح ، لا ضد تاريخنا وحده ، بل وأساسا ضد مستقبلنا ..

إن أول خطوة على طريق المجد ، هى دراسة واعية للطريق الذى وقطعناه ، ومعرفة بالطاقات التى فجرها الايمان فى قلوب أجدادنا ، وإيمان برسالتنا إلى الانسانية كلها .

**公** 公

 <sup>(</sup>١) هذا هو نص رأينا بحروفه نشرناه فى مجلة الرواد الليبية فى سبتمبر ١٩٦٥
 أى قبل مقال الدجال بثلاث سنوات!

هذا حديث أرجو ألا أكون قد أطلت فيه ، وقد اخترت أن أحدثك عن كتاب ، لعل أضعف مافيه هو اسمه : « صبح الاعشى في صناعة الانشا . . .

ولكن . . لا عليك منهذه السجمة التي تحمل بصمات عصر مؤلفه لا فكره . . وهو كتاب يستحق الخلود الذي ناله . .

ولست بمحدثك عن الكتابكله ، فهو يقع فى ٦٤٧٣ صفحة من القطع الكبير ، بطباعة القاهرة . . فتأمل كم كان يشغل بخط الناسخين على السكاغد ؛ لتعلم فضيلة من فضائل أمتنا . . وهى شغفها بالقراءة . . واحترامها للثقافة . . إذ يروى والمؤلف ، أن الكتاب راج فى حياته ، وهى على حد قوله ، ظاهرة نادرة فى زمانهم ، إذ كان و قلما التأليف والنسخ بتسابقان فى ميدان الطرس إلى الكتابة » .

ولم يكن في عصرهم مؤسسات تشترى الكتب للجاملة ، ولا دور نشر تووج ما لا يروج . . بل كان إقبال الناس وتسابقهم على نسخ ٦٤٧٣ صفحة بحروفنا اليوم .. دليلا على روعة المؤلف وثقافة القراء ، فلا تروعنك أرقام توزيع الكتب الآوربية اليوم، وتستدل منها، إذا القارنتها بحظ الكتاب العربي، على تفوق العقلية الافرنجية . . أبداً . . . كلمانى الامر، أننا في مرحلة التخلف، وفيها تبلدت العقول، ولي حتى الغرائز . .

إن الافرنجي يقرأ الآن ، بعد أن جعلت الطباعة والصناعة من الكتاب تحفة أنيقة رشيقة ، ومن القراءة متعة حسية كاهي متعة عقلية . أما نحن فقد قرأنا ونسخنا وألفنا ، يوم كانت القراءة معاناة ، فقد أحصي صاحب دار نشر . . و ابن النديم ، مؤلفات المثقفين المسلمين بمثات الألوف عدا . . يوم كان التأليف معجزة ، يوم لم يكن في أور با كلها ألف نسخة من الإنجيل . . ودع عنك الكتب الآخرى . . وما تزال قائمة المطبوعات التي أصدرتها و دار نشر ، ابن النديم أحفل وأخلد قائمة من نوعها . .

وعندما نسمع عن مثات الألوف من المخطوطات العربية التي تملآ مكتبات ومتاحف وكنائس العالم كله . . فلنتذكر أنها الدليل الخالد على تعلق هذه الامة بالثقافة ، وحبها للمعرفة واحترامها للكاتب والكتاب . .

وحسبك أن تتأمل هذا الكتاب الذى هو دائرة معارفكاملة، يتناول اللغة ، ثم التاريخ الإسلامى ، وفلسفة الحكم، وقيام الدول الإسلامية وزوالها ، ثم ترتيب وتبويب لجميع المعلومات الجغرافية بفروعها الحديثة ، البشرية ، والاقتصادية . . الخ وتلخيص لعدد هائل من الكتب ، مع تمحيص لواياتها ، وتجميع لما تناثر منها في شي المراجع . .

تأمل هذه المراجع التي عالجها ، والتي أشار إليها ونقل عنها ، لتقف أمام سؤال ضخم هو : كيفكان يحتفظ بالمراجع .. وكلها منسوخة . . كيف كان يرتبها في مجلسه إذا أراد الكتابة وهي بحاجة إلى ما يعادل مساحة ميدان كبير 1 . . أم كانت لهم عقول غير عقولنا تمي فلا تنسى . .

واخترت هذا الكتاب ، لانه أيضا ، جاء في أمسية حضارتنا ، لانه مؤلفه شرع في تأليفه سنة ٧٩١ هجرية أى منذ ستة قرون .. يوم بدأت شمسنا في الانحدار . . فهو يحمل طابع الغروب ، وجهد النهاركله ، وأيضا تعبه وميله لإغفاءة الليل . .

مؤلفه: وأبو العباس أحمد القلقشندى . . مصرى المولد ، ولد فى قرية وقلقشندة ، بمحافظة القليوبية ، قبل أن تصبح محافظة طبعا . . سليل المهاجرين من بنى بدر بن فزارة ، عبر ثمانية قرون . . درس فى الإسكندرية ، وعندما بلغ الحادية والعشرين من عمره ، أجيز بالفتيا والتدريس ، أجازه الشيخ سراج الدين أبو حفص الشهير بابن الملقن . . أجازه بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى .

وكانت هذه الإجازة شهادة رسمية ، ولست أدرى إن كان ابن الملقن يمكن وصفه بأنه عميد جامعة الاسكندرية ، فى ذلك الوقت ، إلا أن رسمية الشهادة لا بجال للشك فيها ، لانها كتبت بخط القاضى تاج الدين بن غنوم موقع الحمكم العزيز بمدينة الاسكندرية .. ويؤكد جديتها أنها اشترطت على صاحبنا القلقشندى ، ألا يفتى إلا فى حدود مؤلفات أستاذه ابن الملقن ، وما ثبتت صحته كالكتب الصحاح الستة ومسند الشافمى ، ومسند الامام أحمد بن حنبل .

لم تمكن الأمور فوضى كما هى اليوم، يفتى التلاميذ ، فضلا عن الندين أجيزوا ، فى أخطر القضايا . وتطالب الفتيات بأن يفتح لهن بأب الاجتهاد لتغيير نظام الزواج والطلاق ، قبل أن يعرفن نواقض الوضوء !

وفى سنة ٧٩١ هجرية التحق بديوان الانشاء، فكتبرسالة صغيرة فى التعريف بواجبات وصفات وظيفته .. إلا أنه عاد فرأى أن يتوسع فيها ويشرحها ، فكان هذا الكتاب الذى استغرق تأليفه ٢٣ سنة .. يعيش حتى يرث الله الارض ومن عليها .. وليس هذا الكناب بمؤلفه الوحيد ، بل له عدة مؤلفات ، منها ما وجد ومنها ما فقد ..

وأريد أن أقف، ولو في عجالة شديدة ، على بعض اللمحات في مقدمة الكتاب التي كتبها القلقشنذي :

تأمل تواضعه واحترامه لجهد الذين سبقوه فى فنه ، فهو ليس كالطامحين فى عصرنا ، الذين يحسبون أن الطريق إلى المجد لا سبيل إليه إلا على جثث السابقين . فيكرسون جهودهم لتحطيم الجيل القديم ، فلا يبقى على الحطام إلا الحطام ..

أما القلقشندى فيشيد بمؤلفات : ﴿ ملك الكتابة وإمامها ، وسلطان البلاغة ومالك زمامها ، المقر الشهابي أحمد بن فضل الله العدوى العربي » • فكتابه أنفس الكتب المصنفة في هذا الباب عقدا ، وأعدلها طريقة وأعنها ورداً . . . ، • ثم تلاه المقر التقوى ابن ناظر الجيش. • رحمه الله ، فاشتهر ذكره وعز وجوده ، ووقع الضن به حتى بخل باعارته من عرف كرمه وجوده ، ا

ثم يعتذر عن إقدامه على الناليف، وتعلقه , بحبال هذه الصنعة . . وإن كسنت في وإن لم أكن بمطلوبها مليا ، وانتسابي إلى أهلها . . وإن كسنت في النسبة إليها دعيا ، .

ويدعوكل من بملك معرفة أن يتقدم بنقده البناء كما نقول نخن اليوم: وفرحم الله من وقف على سهو أو خطأ فأصلحه، عاذرا لاعاذلا، ومنيلا لا نائلا. . فليس المبرأ من الخطأ الا من وقى الله وعصم م

ثم يعلمنا القلقشندى أخوة الفن ، وتضامن أبناء المهنة الواحدة، لآنه : ﴿ إِذَا كَمَا نَحْفَظُ مِن يَمْتَ البِّنَا بِالانسابِ الجَسْمِيةِ التَّى لا تعارف. بينها ، فأولى بنا أن نحفظ من مت البينا بالانساب النفسانية التي يصح فيها التعارف . ولذلك قال الحسن بن وهب : ﴿ الكتابة نفس واحدة . عِزاة في أبدان متفرقة ،

وما أظن أن أحداً قد سبق القلقشندى أو الحسن بن وهب إلى. أجمل من هذا التعريف بأخوة الفكر ، التى تتفوق على أخوة الدم • • ووحدة الفن ، أو وحدة المعرفة التى تتكامل وتتام أجزاؤها من. خلال تعدد الكتاب وتنوعهم . .

« ومن تمام آداب السكاتب وكالها ، أن يعرف حقوق مشايخ الصناعة وأثمتها ، الذين فتحوا أبوابها ، وذللوا سبلها ، وسهلوا طرقها ، ويعاملهم بالإنصاف فيا أعملوا فيه خواطرهم ، وأتعبوا فيه روياتهم ، هينزلهم منازلهم، ولايبخسهم حقوقهم » « وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ؛ وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل تجربته وقدم معرفته ،

وهذا ما قلنا في أول الحديث ، ان كل دعوة للبناء والنماء لابد أن تهم بالاساس والجذور ، بالاسلاف ، فتنطلق من احترامهم ، وتقدير ما بذلوه من جهد ، وتلتزم بالنظرة الموضوعية التي يطالبنا بها القلقشندي ، النظرة التي تضع في الاعتبار ظروف عصرهم وحجم المعرفة المتاحة لهم . . .

ومزة أخرى تتجلى عبقرية الفنان التى تتخطى حدود الزمان والمسكان الكأن القلقشندى يطل علينا عبر القرون ليردد الشكوى الخالدة ، شكوى الاصلاء من الدخلاء ، شكوى الفنان من المرتزقة، فيتحدث عن المتسللين إلى صناعة الكتابة الذين يعتمدون على المظاهر والصلات الحفية:

« فاذا رأى من نفسه أن خطه قد جاد أدنى جودة ، أصلح بزته،

ه وركب برذونه أو بغلته ، وسعى في الدخول إلى ديوان الانشاء والانضام إلى أهله،

وتكون النتيجة هي ما نراه فى كل عصر وزمان : . ولعل الكتابة بإنما يحصل ذمها بسبب هؤلاء وأمثالهم ،

وانحطاط مستوى الكتابة يرجعه القلقشندى إلى فساد السلطة عوجهها حتى: « صار العلم لديهم حشفا ، والاديب محارفا ، والمعرفة منكرة ، والفضيلة منقصة ، والصمت ُلكنة ، والفصاحة هجنة ، اجتنبت الآداب اجتناب المحارم ، وهجرت العلوم هجر كبار المآمم ، . .

وهكذا ترى أنه حتى منذ ستة قرون ،كان لدى الـكتاب ما يشكونه من فساد الزمان وتدهور القيم الادبية . •

وبفساد السلطة ينتشر الجهل، وبانتشار الجهل تنهار الآمم . . والقلقشندى كان من حظه أن يرى بداية النهاية . . ولعل هذا يفسر ظهور النفاق: , فالعادة الجارية في أدب خدمة الرؤساء أن يصوبوا . ما يرتكبونه من خطأ ، ويحسنوا ما يواقعونه من قبح ،

وقد نقول أن هذا ليس بالنفاق ، بل اكتشاف مبكر لدور أجهزة الإعلام فى العصر الحديث ، ولون من التزام الموظف العمومى برأى الدولة لا رأيه الحاص ، والتزامه بالدفاع عن سياسة حكومته وتبرير مواقفها مهما يكر رأيه فى هذه السياسة . ويعزز هذا الرأى اشتراط القلقشندى فى كاتب الإنشاء : « الاخلاص للسلطان والنصح فى خدمته ، بإطلاعه على كل التقارير ، فلا يستر عنه دقيقا ولا جليلا

من أحوال مافوضه إليه ، ويطالبه فى نفس الوقت بألا يضحى بمصلحة الشعب من أجل السلطان: • فلا يحمله فرط النصح له على الاضرار برعيته ، ولا الرغبة فى إثبات حقه على تضييع حقوقها ، ولاالقيام بما يحب له دون ما يجب لها ، . لكأنما يطالبه بان يلتزم حرفية وروح الدستور ، بما يحفظ حق الدولة ، وحق الشعب . . لماذا ؟ هنا يعلن القلقشندى مبدأ رائعا فى فهم العلاقة بين الشعب والدولة ، أو الرعية والحاكم بلغة عصرهم ، يقول : • فإنها به ، وهو بها ، . .

وهو يطالب الموظف بشكر السلطان ، لا بالخطب والمقالات والاناشيد؛ لآن والاكثار منه داخل فى حكم الملق، ووإيما يظهر شكر الخادم من أفعاله،

وهو مطالب بالوفاء للسلطان عند إقبال الدنيا أو إدبارها . لا أن يبيعه لاول واثب ، دويجعل قدحه في الذاهب سبيله إلى قلب الواثب، 1

ثم يحدثنا عن شروط التعيين فى هذا المنصب الخطير ، وأحسبنى لا أذهب بعيدا ، لوقلت إنكاتب الإنشاء يعادل اليوم رئيس ألديوان الملكى ، أو مدير مكتب رئيس الجمهورية . . لان ديوان الإنشاءكان يقوم بالمهارة التى يختص بها صاحب هذا المنصب اليوم . .

وشروط التعيين بعضها يحتمه القانون ، وهي عشرة ، منها الجنسية والدين . . وقد أوضح . أبو العباس القلقشندى ، شرط الدين توضيحا راثعا ، عندما ربطه بالصراع القومى ، فقد أشار إلى استعانة الخلفاء بغير المسلمين . . وفسر ذلك بالوضع العالمي وقتها . . قال تقولكن هؤلاء (أي غير المسلمين) لم يكن لهم ذكر ولا مملكة ، وليس منهم محارب لأهل الاسلام ، ولا لهم دولة قائمة فتخشى غائلته وتخاف عاقبته ،

فليس الأمر مبعثه تعصب عنصرى أو دينى .. بل ضرورة قومية... لانه عند ما ظهرت دول الفرنجة ، وأصبحت تهدد الوطن العربى ، وبادرتنا بصليبيتها ، أصبح الدين عاملا أساسيا فى تحديد الولاء . . . وأصبح من غير المعقول أن يلى هذا المنصب الخطير غير مسلم . .

ويضيف القلقشندى إلى شروط التعيين القانونية والعرفية ، ضرورة المام رئيس الديوان بالحالة الفكرية للشعب ، واتساع معرفته لتشمل الفولكلور ، وحتى يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العروس ؟ وإلى ما يقوله المنادى فى السوق على السلعة ، فاظنك بما فوق هذا ؟ وذلك لانه مؤهل أن يهيم فى كل وادفيحتاج إلى أن يتعلق بكل فن ٠٠٠

وقدكان القلقشندى ، كما اشترط على نفسه ، وأشهد أن معلوماته-الجغرافية والتاريخية عن الدول الإفريقية بالذات ، تصحح الكثير من. معلوماتنا حتى اليوم . .

ولا شك أن مثل هذا السكاتب ، لا بد أنه يعمل فى جهاز دقيق له تقاليده ونظمه . . بل لا نذهب بعيداً فى فخرنا ، لو قلمنا أنه-يحدثنا عن أسس الدولة الحذيثة . . فإذا بعثت الدولة بخطاب ، أرسل على سركى ، أو «أور اقالطريق» -ويترك اسمه وتاريخ سفره والجهة التي توجه إليها ، والشغل الذي توجه -بسببه ، بدفتر الديوان » .

فاذا كانت الرسالة مستعجلة ، وسترسل عن طريق البريد الجوى ؛
الى بالحمام الزاجل ، فتكتب من نسختين ، وتؤرخان بساعة كتابتها من النهار ، ويعلق كل منهما في جناح طائر من الحمام الرسائل ويرسلان ،
ولايكتني بواحد ، لاحتمال أن يعرض له عارض يمنعه من الوصول إلى مقصده ، فاذا وصل الطائر إلى البرج الذي وجه إليه ، وأمسكه البراج ، وعلى ذلك وأخذ البطاقة من جناحه وعلقه بجناح طائر من حمام البرج ، وعلى ذلك ينتهى إلى برج القلعة . . . . .

ولا تظن أن الحمام الزاجل كان بجرد هواية أو , تقليمة ، . . بل مهو نظام بريدى دقيق ، له أبراج على محطات محددة المسافة ، وحمام . مدرب يديره مشرفون أكفاء أمناه وفق نظام غاية في الدقة .

وكان على كاتب الانشاء . . أو رئيس ديوان الإنشاء أن يدير -جهاز مخابرات غاية فى الدقة ، حتمته الحروب الصليبية ، فسكان يدير نشاط , الفداوية ، وهم كما يفهم من القلقشندى ، بقية من الاسماعلية ، كان سلطان مصر يستخدمهم فى إرهاب خصومه أو حتى فى اغتيالهم .

وعليه وأن يحترز عن أن تعرف جواسيسه بعضهم بعضا ، لاسيا عند التوجه للمهمات . وإن استطاع أن لا يجمل بينه وبينهم واسطة خمل، وعليه أن يصغى إلى مايلقيه إليه كل من جواسيسه وعيونه، وإن اختلفت أخبارهم، ويأخذ بالآحوط فيما يؤديه إليه اجتهاده من ذلك، ولايحمل اختلافهم ذنباً لآحد منهم، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق غيما يقوله.

إلا أن جواسيسهم لم يكونوا مأجورين . بلعقائديين ـ إناستعرنا .. مذه اللفظة البغيضة ـ لأن القلاشندى يوصى رئيس الديوان وبأن يوبخ المنحرف منهم بتذكيره أمر الآخرة ، وما فى عالاة العدو والحيانة من «الوبال فى الآخرة » .

ياليت بعض أجهزة المخابرات فى بعضالدول العربية طبعت دصبح الاعشى فى صناعة الإنشا ، بدلا من والحكومة الحفية ، . . وياليتهم آمنوا بعذاب الآخرة . .

بل وصلت مخابرات أسلافنا إلى درجة عالية من الكفاءة والتنظيم، فعرفوا الجاسوس المزدوج ، فيحولون جاسوس العدو إلى عميل لهم مد فينئذ يلقى إليه مايراد تبليغه إلى صاحبه الأول بما فيه المكيدة ، فيوصله إليه ، فيكون أقرب لقبوله من بلوغه له من غيره بمن يتهمه ، .

ولابد لهذه الدولة الحكمة التدبير من أرشيفات دقيقة تضبط حركتها وتجعل من تجاربها خبرات متوارثة ، ومن كفاءات موظفيها تقاليد وتراثا للدولة . . فيقول القلقشندى :

« لابد فى الديوان من تذاكر تشتمل على مهمات الأمور التى تنهى فى ضمن الكتب ، ويظن أنه ربما سئل عنها ، أو احتيج إليها ، فيكون استخراجها من هذه التذاكر أيسر من التنقيب عنها من الأضابير . . ..

دوأن يضع فى الديوان دفترا بألقاب الولاة وغيرهم ، من ذوى. الحدمة ، وكتابة أسمائهم، وترتيب مخاطبتهم ، ومتى تغير شىء منه كتبه تحته، ومتى صرف، كتب عليه : صرف بتاريخ كدذا ، واستخدم عوضا عنه فلان بتاريخ كذا . . .

أن يضع فى الديوان الحوادث العظيمة وما يتلوها عا يجرى فى
 جميع المملكة ويذكر كلا منها فى تاريخه . . .

دأن يعمل فهرساً للكتب الصادرة والواردة ، ويكتب تحت اسم كل من ورد من جهته : كتاب ورد بتاريخ كدا ، ويشير إلى مضمونه إشارة تدل عليه . . .

د أن يعمل فهرسة لترجمة مايترجمه من الكتب الواردة علىالديوان. بغير اللسان العربي من الرومى والفرنجى وغيرهما مصرحا بمعنىكلكتاب ومن ترجمه . . . .

أرأيت أن كل خصائص الدولة الحديثة كانت لدينا وقبل أوروباً بعدة قرون . . فلما تخلفنا وانهارت حضارتنا تحولت هذه الحصائص إلى بيروقراطية نعانى منها حتى الآن . . فلم يبق من حضارة الاسلاف. إلا « السركى » و « الصادر » و « الوارد » ا الإسلام والحبشة



﴿ اتركو الأحباش ماتركوكم ﴾

🛚 حدیث شریف 🔻



ربما كان موقف الحبشة في الأمم المتحدة ، ومن العدوان الإسرائيلي بصفة عامة ، مفاجأة لكثير من ذوى النوايا الحسنة ؟

ولكنه لم يكن كـ لك للذين يعرفون الدور الذى تلمســـه المصالح الاستعارية فى شرق أفريقيا . ولا المخطط الغربي ــ الصهيونى الذى يتسلل إلى الحبشة منذ القرن الثالث عشر ١ . . والارتباطات التى خططت لاستخدام هذه الدولة صد العرب والإسلام منذ الحروب الصليبية .

إن المخطط الأمريكي المنتشى بخمرة النصر الصهيوني ، يفكر في تعميم هذا النموذج الإسرائيلي . . أى خلق عدد من و كلاب الحراسة ، هي دول مرتبطة به ، متعارضة مع النكوين الطبيعي للنطقة المحيطة بها ، تقوم على القهر العنصرى ، وتحكم الاقلية في الأغلبية ، ويتغلغل فيها النفوذ الصهيوني . . ومن خلال عزلتها هذه تتحول إلى ما يشبة الحاميات الاستعارية التي كانت تنشأ عند الشواطي . في القرن السابع عشر لضرب الحركات الوطنية ومد النفوذ الاستعادى . .

إن جنوب أفريقيا يشكل نموذجاً إسرائيلياً ممتازا في جنوب

۲۰۹ (م — ۱۶ الحق المر) أفريقيا . . أقلية عنصرية ، غريبة عن الارض والشعب، تحكم بالإرهاب. وحده . .

وجمهورية وبيافرا ، هي تجربة لما يمكن أن يدبر في غرب أفريقيا، وإذا كان العنصريون في جنوب أفريقيا لديهم في جلودهم وأصولهم هايقنعهم بانفصالهم عن الارض التي يستغلونها ، والشعب الذي يفرضون حكمهم عليه . . فإن المخطط الصهيوني الاستعارى يعمل على خلق شعور بالانفصال لدى الذين لاتميزهم جلودهم ولا أصولهم . . و من المثير حقاً أن نسمع زعماء بيافرا يعلنون أنهم من نسل إسرائيلي ! . .

أما فى شرق أفريقيا ، فإن الولايات المتحدة الامريكية قد تعهدت المشروع منذ الخسينيات . . وليس سرا أنه توجد قاعدة أمريكية فى أسمرة تستخدمها الولايات المتحسدة كقاعدة ذرية وقاعدة لإطلاق الصواريخ الموجهة ، وهذه القاعدة موجهة أساسا لدول شرق أفريقتا والجنوب العربي . . وهناك تأكيدات بأن الحكومة الحبشية تضع مصوع تحت تصرف الاسطول الامريكي . .

ومن المؤكد أن للاسرائيليين سيطرتهم النامة على اقتصاديات أرتيريا ، وتغلغلهم واضح داخل القصر . .

وإذا كانت تغذية روح الانفصال قد احتاجت فى حالة بيافرا إلى خلق فكرة النسب الإسرائيلى . . فإن هذا النسب موجود منذ قرون ، ولنفس الهدف ، فالاسطورة موجودة بالفعل ، اخترعها كاهن منافق إسمه و نكلا هيانوت ، لملك اسمه و يكونواملاك ، .

واسم الكاهن، والامم الذى اخترعه للملك، يؤكدان أنه أفاق خبيث من الملمين باللغة العربية بعض الإلمام.. فقد تنبأ للملك بأنه سيتولى العرش، وسماه « يكونواملاك ،، أى يكون ملكا ١ . . وواضح أنها جملة عربية كتبها من يجهل صحة الضبط في اللغة العربية .

وتزعم الاسطورة أن هذا الملك ينحدر من سلالة الملكة بلقيس والملك سلميان ملك اليهود . . وأن جده هو « منليك ، الذى عاد من أورشليم ومعه نفر من بنى إسرائيل . ولتأكيد صفته الإسرائيلية ، وخصائصه الإسرائيلية ، تنسب الاسطورة له أنه سرق من بيت المقدس « تابوت العهد، سرقه من أبيه الملك سلميان الذى كان يعرف لغة النمل ، ويحبس الجن فى قاقم من حديد . . ولكنه لم يعرف كيف يحمى الصندوق من ابنه آ

وحمل نيليك الصندوق إلى الحبشة ، وأطلق على وأكسوم ه العاصمة اسم وأرض صهيون الجديدة ، . . ولعل شعار الصهيونية من الفرات إلى النيل . . يقصد والنيل الازرق ، فى أقصى الجنوب بالحبشة ! . .

ويرفض كتاب: «الاسلام والحبشة ، هذه الاسطورة ويقول المؤلف المهندس فتحى غيث: «أنه من العجيب فى الحبشة المسيحية شدة تمسكهم بعلاقاتهم (المزعومة) مع اليهود وتفاخرهم بها ، والاحتفاظ بنجمة داود رمزا لهم ، وهو أمر لم نعهده فى أى وسط مسيحى آخر » .

ويفند هذه المزاعم عن النسب الاسرائيلي لماوك الحبشة بقوله :

« لا يوجد بين المراجع الممتمدة ، ما يؤيد انحدار العائلة الملكية الحبشية من نسل سليان عليه السلام ، اللهم إلا ما تقوله العائلة المالكة عن نفسها . . . بل ليس هناك أى مرجع معتمد يؤيد وجود شخصية و منليك ، وعلى ذلك فان الارجح أن القصة موضوعة . .

ورغم الدعاية التي تركز على هذه الاسطورة التي ظهرت مع الحروب الصليبية ، بهدف فصل الحبشة عن المحيط العربي ، وتحويلها إلى أسفين يطعن القوى الإسلامية من الخلف خدمة للصالح الصليبية .. ثم أعيد بعثها مع الغزو الاستمارى للقارة .. ويحرى التركيز عليها بعنف في هذه الآيام خدمة للمصالح الصهيونية التي تحاول أن تمزق كل الروابط الآفريقية التي توبط الاحباش مسلمين ومسيحيين بالعرب . .

رغم كل الدعاية التي تركز على هذه الاسطورة الآن ، سواء لإضفاء صفة خاصة على العائلة المالكة، أو لتدعيم التعاون مع إسرائيل باعتبارهم. أولاد عم رغم الاختلاف الفاضح في اللون ..

رغم ذلك فإن واقع الحياة في الحبشه يكذبها .. فاليهود في الحبشة الذين اندبجوا مع السكان بعد أن هاجروا إليها من مصر والجزيرة العربية أصبحوا يسمون والفلاشة، وهم لا يزيد عددهم على ستين ألفا والفلاشة باللغة الحبشية معناها الغزباء .. ومن غير المعقول في شعب ينحدر من صلب سلمان شخصيا أن يسمى الهود والغرباء؟

ولو أنهم أحفاد سليمان حقاً لما كان اعتناقهم للمسيحية قد تم بهذه السهولة التى انتشرت بها فى الحبشة ، ولما تقبلوا بمثل هذه السرعة لعن اليهود فى صلاتهم . . الأقرب للتصديق تعصبهم لليهودية ورفض الدين الجديد الذى يطالب بلعن اليهود وأولادهم وأحفادهم .

## الحبشة والعرب

ويستعرض المؤلف علاقة الحبشة مع العرب، وعلى وجه التحديد علاقة العرب بحكام الحبشة ، هذه العلاقة التي تحكمها من ناحية العرب وصية الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتركوا الاحباش ما تركوكم ،

وهذا الالتزام من جانب العرب، هو الذي يفسر كيف بقيت الهضبة الاتيوبية وحدما كالجزيرة وسط محيط عربي وإسلامي في طوال أربعة عشر قرنا، سادت خلالها علاقات التعايش السلمي، وأحيانا الصداقة المتينة، يدعمها أن كنيسة الحبشة أفريقية مرتبطة بكبرى الكنائس العربية، وأعرق كنائس العالم. . الكنيسة المصرية . .

ولكن هذه العلاقة ، لم تخل فى بعض المراحل من اضطرابات والتحامات . .كانت دائما من أصابع أجنبية . . أصابع الاستعار الغربي تحاول أن تحرك الحبشة ضد جيرانها .. فتلزم هؤلاء الجيران ألا يتركوا الاحباش ما دام الاحباش لم يتركوهم . والمنتبع لتاريخ الصدام بين الحبشة والعرب ، يجده دائما يأتى من الجانب غير العربي .. وبتأثير المصالح الاجنبية البعيدة عن مصلحة العرب والافريقيين

فأول صدام مشهور ومعروف كان بناء على تعليات من الإمبراطورية الرومانية .. أوعزت إلى الاحباش بغزو الجزيرة العربية وهدم الكعبة .. ولتى الاحباش هناك هزيمة خالدة .. ومعجزة الهية .. ويشاء الله أن يكون عام الفيل ، عام الغزو الفاشل هذا ، هو عام مولد الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومع ظهور العرب على المسرح العالمي بظهور الإسلام .. بدأت علاقات طيبة للغاية مع الاحباس . وسواء أصحت الروايات الإسلامية والتي يؤيدها عدد من المصادر الغربية عن ملك الحبشة على عهد الرسول . أنه قد أسلم . أو أنه احتفظ بعلاقته الطيبة وأكرم المهاجرين المسلمين ، لنشو ته بين قبيلة عربية في صدر حياته . ولأنه استطاع أن يفهم الترابط ووحدة الأصل بين الدينين السهاويين . المسيحية والإسلام ، كا يروى عنه عندما سمع قصة المسيح ومريم المسيحية والإسلام ، كا يروى عنه عندما سمع قصة المسيحية كهذين . . في القرآن . . فأشار بإصبعيه وقال : هذا الدين والمسيحية كهذين . . أي متماثلان ، فاستنكر ذلك رجال البلاط . . ( طبيعي ) فقال لهم : ولو كرهتم . . ! ؟

سواء أصحت هذه الرواية أم تلك . . فان منالثابت أن النجاشي كان يتمتع بمحبة خاصة لدى المسلمين ، حتى أن الرسول كرمه بمالم يحظ به أى حاكم آخر ، فقد صلى عليه رسول الله صلاة الغائب عندما بلغه نبأ وفاته . . ووصفه بأنه , ملك لا يظلم عنده أحد ,

ومن الغريب ، بل المريب ، أنه فى الوقت الذى تنسج فيه المصادر الغربية والصبيونية الاساطير حول نسب ملوك الحبشة ، بهدف ربطهم بالقوى الممادية لنا ، وعزلهم عن العرب . .

فى نفس الوقت نرى بعض الذين يحملون الجنسية العربية يؤلفون الكتب للتشكيك فى اتصال المسلمين بملك الحبشة ، بل فى وجود تلك الصلة أصلا . . بل يبلغ الفجور بأحدهم أن يدعى أن النبي اختار الحبشة لهجرة المسلمين الاوائل . . لكراهية الاحباش للعرب ! . . فكأن رسول الله كان يستعدى على العرب ! . .

يقول كتاب و الإسلام والحبشة ، : وقرأنا لبعض الكتاب تعليلا يشككون فيه حتى بوصول المهاجرين إلى النجاشي وعاصمة ملكه، ويحاولون إثبات نزول هؤلاء المهاجرين عند أحد الملوك التوابع يقال له (بحر نجش) . ولسناعلى بينة ـ يقول المؤلف ـ ماهو السبب الذي يدفع هؤلاء الكتاب إلى إبعاد هذا الفضل الكبير عن النجاشي . . .

وليسمح لنا المؤلف . . أن نقول أننا نحن على بينة من السبب . . تخريب الملاقة بين الاحباش والعرب . . وتمكين المخطط الاستعارى من أن يلعب دوره فى تحويلها إلى كلب حراسة وكاب صيد ضد جيرانها . .

وقد سادت هذه العلاقات الطبة طوال الفترة من القرن الرابع إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، ومع الغزو الاستغارى الأول من الغرب للوطن العربى ، المعروف باسم الحروب الصليبية بدأ التركيز على مصر ، ومع الوقفة الصلبة لمصر دفاعا عن الإسلام والعروبة ، تفاقم الحقد الغربي ضد مصر وبدأ التخطيط لتدميرها . والتفت الغرب الاستعارى إلى الامكانيات التي تمثلها الحبشة إذا ما قبلت العمل ضد مصر . ومن الغرب أنه مع الاتصالات الصليبية المربة التي قام بها الاستعار الغربي ظهرت أسطورة الابن الحبشي لسليان وبلقيس ا

وينقل المؤلف عن ركولبو ، . . . . . . . . ولم يفت الصليبين كذلك أن يتصلوا بنجاشي الحبشة المسيحي ليتعاون معهم في حرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة ١٢١٨ م ، . ويقول بعث الصليبيون عن حليف يقطع البحر الاحمر من الجنوب فلم يكن هناك أفضل من دولة الحبشة ليحالفوها ويعتمدوا عليها، لذلك حرصت الباباوية منذ أوائل القرن الرابع عشر بالذات على تقوية صلتها بالحبشة ، فقام وليم آدم - الراهب الدومينكاني - برحلة طويلة زار فيها شرق الفريقيا والحبشة ثم عاد في ١٣١٦ ، وفي تلك السنة أرسل البابا يوحنا الثاني والعشرين سفارة من الدومينكان إلى الحبشة ولكن رجالها وقعوا في قبضة الماليك في مصر . كذلك كان مصير سفارة أخرى، من الدومينكان أرسلها ملك فرنسا إلى الحبشة عام ١٣٣٨ ، . . .

« وبالرغم من الصعوبات العملية التي تحول دون اشتراك الحبشة «فى الحروب الصليبية بحانب الاوروبيين ، فإن فكرة استغلال الحبشة «فى القيام بعمل حربي ضد الماليك ظلت ماثلة فى أذهان أصحاب المشاريع الصليبية فى غرب أوروبا حتى أواخر القرن الخامس عشر » .

ويقول د . سعيد عاشور . أن هذه المشروعات الصليبية الخاصة . باشتراك الاحباش مع الاوروبيين جاءت مصحوبة بفكرة أخرى . فادى بها دعاة الحروب الصليبية طويلا ، هى تجويع مصر والقضاء على . من فيها بتحويل مجرى النيل فى الحبشة . وقد أشار فيليب دى ميزيير . صاحب المشردع الصليبي الكبير فى القرن الرابع عشر إلى امسكان تنفيذ مشروع تحويل مجرى النيل للقضاء على مصر نهائيا .

وظلت هذه الفكرة تواود المتحمسين للحروب الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى ، فأرسل الفونس الخامس ملك أرجو نه إلى ملك الحبشة عام ، 150 يطلب منه أن يعمل على تحويل مجرى النيل ومهاجمة مصر من الجنوب في الوقت الذي يقوم فيه الفونس نفسه بغزو بيت المقدس وفلسطين ، ولما اشتد النزاع بين مصر والبر تغال عقب كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، أرسل البوكرك قائد الاسطول البر تغالي إلى ملك البر تغال يطلب إمداده بعدد كبير من العمال المدربين على قطع الصخور وحفر الارض للعمل فوراعلي تحويل مجرى النيل ، مما يدل على اعتقاد ، وحفر الارض للعمل فوراعلي تحويل محرى النيل ، مما يدل على اعتقاد ، الاوروبيين والاحباش جميعا في المكان تنفيذ المشروع ، أو على الافل الحقد الذي يكتبه ضد مصر كل متطلع إلى الاستميلاء على الوطن العربي ، واحتلال بيت المقدس ،

ومع النشاط الاستعارى البرتغالى فى البحر الآحر .. لم يترك الاحباش جيرانهم ولم يتركهم هؤلاء الجيران بدورهم .. واستمرت المعارك إلى أن طرد البرتغاليون نهائيا من شرق أفريقيا . . واستقب السلام ..

#### بريطانيــا

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأت سياسة التوسع الاستعارى فى أفريقيا . وكانت المشكلة الرئيسية الى تواجه الاستعار الغربي وتهدد مستقبل الامبراطوريات فى أفريقيا .. هى أيضاً ودائما مصر .. مصر الى كانت قد وحدت السودان وارتيريا والصومال .. وأصبحت حدودها ملاصقة للحبشة .. وبدأت حركة تعمير واسعة . أدت إلى انتشار العروبة والإسلام ..

وبدأت الدسائس البريطانية ، شجعت بريطانيا أطماع الامبراطور عيودور .. وأوقعوا بينه وبين مصر .. فقد روى القنصل الفرنسى في مصر وبنديتي، في رسائله إلى باريس في ٥ و ٣٠ نو فبر ١٨٥٦ أن الامبراطور يهدد بالاغارة على السودان المصرى ويريد تحويل بحرى النيل إلى البحر الآحر . وكتب القنصل النمساوى إلى حكومته من الاسكندرية في ١٨ نو فبر ١٨٥٦ و ان سعيد باشا كثير القلق من ناحية هذه الحركات التي يقوم بهاتيودور الجرى النشيط، وخصوصا ما يذاع في القاهرة من أن وسوسة الإنجليز في أذن تيودور تزيده تذمرا وغضبا من الإدارة المصرية في السودان . والواقع أن تيودور قد حصل على بعض المدافع والبنادق لعساكره من عدن و أي من الإنجليز ، ،

وقد بدأ تيودور سياسة مشاكسة مصر باضطهاد المطران المصرى. فى الحبشة ، فدا سافر البطريرك نفسه إلى هناك .. اعتقله ومنعه من. العودة ، وتدخل سعيد باشا عن طريق خطابات عديدة لإطلاق سراح. البطريرك المصرى.

ولمكن تيودور الامبراطور المعروف بالمجنون يبعث برسالة إلى الملكة فيكتوريا، فتنسى أن ترد عليه فيعتبر ذلك إهانة ويلتى القبض على ممثلها. وترسل بريطانيا حملة لتأديبه عرفت باسم حملة « نابيبر » ١٨٦٧ والتى انتهت بانتجار الامبراطور .. وقد رافق الجلة واحد هن عشاة الاستعاريين الانجليز ومهندس الامبراطورية هو الكولونيل «سيرويدز» المقيم البريطاني في عدن ، وقد التقى مخططه مع الشاذ الاستعارى القارح « غوردون » في اختيار زعيم قبائل « النيجرى » المعروف باسم « كاسا » ليكون المرشح لتنفيذ المخطط البريطاني ضد العرب والمسلمين ، فأمدوه بجميع أسلحة الجلة على ضخامتها .. فأصبح القوى حاكم في أفريقيا .. وسموه « يوحنا » وجعلوه إمبراطورا للحبشة وقال عنه غوردون: من الغريب أن يوحنا بشبني ،فهو متعصب ديني وله رسالة لابد أن يحققها وهي إبادة الإسلام » .

ولكن ثورة المهدى رضى الله عنه ، حطمت أحلام غوردون .. فيقتل على يدالثوار فى قصره .. وتوقف جيوش المهدى حملات الإبادة التى شنها الامبراطور بوحنا .

الاميراطور المسلم

وفى عشية الحرب العالمية الأولى .. في سنة ١٩١٣ فوجئت الدول

الاستعارية الغربية بإمبراطور مسلم فى عاصمة الحبشة 1 .. الامبراطور و ليج ياسو ، وعلى عكس عادة الاباطرة الذين يبادرون فور اعتلائهم العرش بإعلان نسبهم اليهودى ، أعلن ليج ياسو أنه لاينتمى للعائلة السليمانية .. بل يقول و الندروف ، أنه بدأ يعمل على اثبات نسبه الى الرسول ، . .

وتحركت الدول الغربية ، وقدم له قناصل انجلترا وفرنساو إيطاليا مذكرة احتجاج واتهام بالميل للألمان .. واستعدت القوات الفرنسية بقي جبيوتي، والإنجليز في بربره ، والإيطاليون في مصوع للزحف على الحبشة .. وأعلنت الحاية على مصر، واستصدرت بريطانيا في ظل الحماية قرارا بخلع الامبراطور .. ووصل هيلاسلاسي إلى العرش، وقبض على الامبراطور المخلوع الذي ظل في السجن إلى عام ١٩٣٦ وقبل فرار الامبراطور من اديس ابابا أعلن وفاة الامبراطور المسلم في السجن.

ويقول المؤلف و ويذهب البعض إلى أن الامبراطور هيلاسلاسي هو الذي ذهب إلى السجن على حدود كينيا وقتل ليج ياسو .. ولكننا نستبعد هذه الرواية لبعد المسافة بين اديس أبابا وموقع سجن ليجياسو وصعوبة المواصلات .. وقد بكون كل ما سمعناه من قبيل الشائعات، ولكن الذي لاشك فيه أن الإمبراطور ليج ياسو مات في سجنه قبيل دخول الطليان إلى العاصمة اديس أبابا في عام ١٩٣٦ .. ، وأنه كان يخشى عند سقوط الدولة أن يقود حرب التحرير ضد إيطاليا ويعود لهرشه ..

ومع عودة هيلاسلاسي إلى عرشه في ١٩٤١ . . نشأت مشكلة أريتريا، فقد سعت الحبشة إلى ضها ، وكانت أريتريا قد انتقلت من الحكم المصرى إلى الحكم الإيطالي إلى وصاية بريطانيا . وكانت أريتريا نموذجا ينبض بالحياة في أفريقيا ، وارتفع مستوى الشعب إلى مستوى مال، وكانوا يتمتعون بأنواع من الحريات لاعهد للاحباش بها ، فسكان بأريتريا صحافة وجمعيات ومدارس ، وكان اتصالها بالعالم الخارجي مستمراً وعلى الاخص ببلاد العرب والين ومصر وإطاليا . . . .

وكان من المستحيل أن تمنح أريتريا الاستقلال في سنة ١٩٥٠ فلم يكن من المعقول وقتها أن تستقل دولة أفريقية . . وكان أن سلمت أريتريا بضغط أمريكا وبريطانيا إلى الحبشة، في شكل نظام فيدرالي . وقد سارع الامبراطور بتأكيد نسبه الصيهوني في الدستور الصادر في ١٩٥٥ . . كما حرصت باقي النصوص على القضاء على استقلال أريتريا . .

# الحركة الوطنية في أريتريا :

وبضم أريتريا للحبشة أصبحت غالبية الشعب المطلقة فى الحبشة كالمها من المسلمين . . ولكن الحركة الوطنية فى أريتريا لا تقتصر على المسلمين، بل تضم وطنيين مسيحيين منهم البطل « ولديب ولد مريم ، الذي يعيش حالياً فى القاهرة بعد معارك دامية خاضها ضد الاستعار الاثيوبي . .

وجهة نظر هؤلاء أن اضطهاد الأغلبية يخلق دولة عنصر ترجعية

لا يمكن أن تكون إلا فى خدمة الرجعية العالمية . . أى الاستعار . العالمى . . فإن حكومة تمارس الارهاب . . تحارب ضد شعبها ، لا بد-أن تتحول إلى إرهاب جيرانها والاعتداء عليهم .

ر بعساد . .

فإن موقف أثيوبيا فى الامم المتحدة كان خرقا صريحاً لميثاق. منظمة الوحدة الافريقية الذى يعتبر المدوان على أية دولة أفريقية-عدوانا على المنظمة وأعضائها . .

وهذا الكتاب لعله يكون بداية لإعادة النظر في سياستنا الافريقية.. والامتهام بالروابط الحقيقية الني ترسخت عبر القرون وثبتت أمام، المحن والتجارب . .



الإسلام والرأسمالية



إن شئنا القول بأن الربا قد حال بين المسلمين وبناء المجتمع الرأسالى فالأحرى أن ذلك قد حدث لأنهم تعاملوا بالربا ، وليس لأنهم تحرجوا من التعامل به . .

فلولا ديون حكام المسلمين لما سقطت بلادهم فريسة للاستعار الرأسمالي في القرن التاسع عشر . .



مكسيم رودنسون ، حاز على شهرة مفاجئة فى أوساط التقدميين العرب ، لأنه وهو من أصل يهودى ــ يضيق هو ذرعا بمن ينسبه إليه ــ قد عارض العدوان الإسرائيلي الآخير ، وإن لم يعارض وجود إسرائيل .

وكتابه هذا . الإسلام والرأسمالية ، أثار اهتمام المعلقين من الدوائر التقدمية ، واعتبروه كشفاً فى تاريخ الدراسات الإسلامية ا والحق أثنى لم أقع على أى نقد جدى له إلا فى مجلة جزائرية هى مجلة القبس١ .

أما عندنا فالغريب أنهم قدموه للقارى. العربي من خلال أكذوبة تدعى أنه الحجة التى تثبت اشتراكية الاسلام ، بل أذكر أن بعضهم كتب يقول أن مكسيم رودنسون اكتشف أن الاسلام يتعارض مع الرأسهالية 1 ا

ونفس الأكذوبة يرددها مترجم الكتاب وناشروه في تعريفهم به، فيصفونه بأنه وفي آخر المطاف دعوة يوجهها المؤلف إلى المسلمين

ال(١) أكتوبر ١٩٦٧.

اللاخذ بالاشتراكية . يوجهها إليهم كمسدين ، أعنى دون أن يرى تنافياً جذريا بين عقيدتهم الدينية وبين الاسس الاشتراكية التي قد يقيمون عليها بنية مجتمعهم الاقتصادية ونظام الحكم المتسق معها ، ،

وهذه العبارة أبعد ما تكون عن التعريف بالكتاب ، بل لعلما تعرف بعكس مااستهدفه المؤلف ، وماحرص على أن يعلنه في عنوانكتابه، فهو قد سماه « الإسلام والرأسمالية » ولم يسمه « الاسلام والاشتراكية » وكان دقيقاً في اختيار عنوانه . .

بل هو بالاحرى وفى آخر المطاف إن شئنا الدقة ، دعوة يوجبها المؤ لف للسلمين للتخلى عن الاسلام إن أرادوا الاشتراكية . .

ولكنه يناقش علاقة الإسلام بالنظام الرأسهالي، ويحاول في مناقشته أن يجيب على سؤال طرح بسين المفكرين الغربيين خلال القرنين الماضيين . . وهو : لماذا لم تظهر الرأسهاليه في العالم الإسلامي ؟ . . لماذا قامت في الغرب ولم تقم في الشرق حيث كانت حضارة الاسلام ؟ . والمؤلف يحاول قدر جهده أن ينفي مسئولية العقيدة الاسلامية في منع قيام النظام الرأسهالي في العالم الاسلامي . . ويؤكد في كل صفحات

منع قيام النظام الرأسالى فى العالم الاسلامى . . ويؤكد فى كل صفحات المكتاب أنه ما من مانع . شرعى ، كان يحول بين المسدين و بين الاخذ بالنظام الرأسالى .

وأكثر من ذلك ، أنه عندما تعرض للاشتراكية وعلاقتها بالاسلام، ثراه يأخذ جانب الرأى الذى يننى الصلة بين الاسلام والاشتراكية ا والذى يرفض اجتهادات الذين يتطلعون إلى بناءوطن حر قوى للمسلمين، ومنهم يجتهدون في اكتشاف الأساس الاسلامي للضروريات الافتصادية التي يفرضها تطور بلادهم . .

ولكننا نرى و مكسم رودنسون ، المتهم بالتوفيق بين الاسلام والاشتراكية يؤيدفتاوى أعداء الاشتراكية ضد والاشتراكية الاسلامية ، ويعلن أن المسلمين الذين يرون أن الاسلام يؤيد الملكية بغير تحفظهم أصحاب الحق المم يحشدكل الآيات الستى يفسرها البعض بأنها تأييد للطبقية ، ويعلن أن و محمدا ، لم يكن اشتراكيا كما اعتقد بعض المؤرخين ، ا . . بل ويشكك فيما وصل إلينا عن مواقف أبي ذر ، الذى يصفه بأنه و حظى بشعبية ضخمة ومفاجئة فى العالم الاسلامي فى القرن العشرين ، فقد وجد فيه اليسار الاشتراكي والشيوعي أستاذاً ذا سبق ، أو هو على الآفل قد اتخذ من قصته برهانا على أن الافسكار ذات الاتجاه الاشتراكي ليست غريبة عن التقاليد الإسلامية ،

بل يزعم أن التيار الذي كان يمثله أبو ذر . كان يتعارض مع اتجاه محد نفسه ، ، ويؤيد المؤلف رأى علماء الازهر في ١٩٤٨ ضد الذين استدلوا من سيرة أبي ذر على وجود الاشتراكية في الاسلام ، ١ ١

وقد نافشنا فى غير هذا الموضع موقف أبى ذر ، ويكنى أن نقول هنا فى موضوع نسبة آرائه للاسلام أن أبا ذر كان يستند إلى تفسيره للآية الكريمة , والذبن يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، وحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو كاكان

أبو ذر يقول: وأوصافى خليلى أن أى مال ، ذهب أو فضة ، أوكى عليه فهو جمر على صاحبه حتى ينفقه فى سبيل الله ، .

فواقف أبى ذر ودعوته ، كلها من صميم الاسلام ، لا تتعارض مع اتجاه محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ما بلغ أبو ذر شيئاً في سلوك وسول الله وزهده . . ولقد عاش صلوات الله عيشة أشد شظفاً بما عاش أبو ذر ، وتوفاه الله عن توكة أقل ما أورث أبو ذر أهله .

ويؤكد المؤلف فىالفصول الآخيرة من الكتاب أن و الحديث عن تعارض جوهرى بين الاسلام والرأسالية حديث خرافة ، بصرفالنظر عما وراء القول به من قصد حسن أو سيء . فعلى الصعيد النظرى ، ليس فى الدين الإسلامىأى اعتراض على صيغة الانتاج الرأسالي . .

وينتقد محاولات: , الاستخدام الشعبي لشعار الاسلام ولحرمة الاسلام كلواء تستظـــل به اختيارات متفاوتة في مدى حظها من الاشتراكية . .

ويرى أفي المسلمين الرأساليين في موقف أفضل كثيراً من موقف أولئك الذين يؤلون القرآن والسنة في الاتجاء التقدمي . . أولا لأن النصوص في مصلحتهم (!) ، ولو قيل العكس ، إذ أنها وضعت في غصر آخر لم يكن حق الملكية فيه يلتي معارضة جدية . .

ويعود فيؤكد أن , اتجساه المجتمعات الاسلامية جزئياً نحو الاشتراكية ليست له من صلة بتعاليم الاسلام إلا بمقدار ماكانت كل الاديان تعبيراً عن مطالب إنسانية أساسية . .

ويقول: , ولأن كان ممكناً أن يشهد المستقبل طريقاً مغربياً اوجزائرياً أو مصرياً أو عربياً أو تركياً أو فارسياً نحو الاشتراكية، فقليل الاحتمال أن تسكون الملامح الرئيسية لهذه الطرق مدينة بالمكثين للدين الاسلامي . .

وهو يرفض إمكانية أن يقوم الاسلام بدورالتعبئة الأبدلوجية التي يعتبرها شرط تحقيق التنمية الصناعية ، لأن التجربة التاريخية والتحليل النظرى الذى أوردناه كلاهما لا يشجعان على أن نزى فى الدين الاسلامى اليوم عاملا من شأنه تعبئة الجماهير من أجل البناء الاقتصادى ، وبصورة خاصة بعد أن أصبح واضحاً أن هذا البناء لابد له أن يكون ثورياً بالضرورة ، هداما للبنى السائدة . . . .

ويرفض نجربة الثورة الجزائرية التي يرى بعض مفكريها: «أن الاسلام هو العامل الوحيد الذي يمكن باسمه الوصول إلى قلوب الفقراء ويرى في تعلق الجماهير بالاسلام «ظاهرة وطنية وطبقية » ولا يقول لنا ما الضير في ذلك ؟ ويتساء ل في استنكار: «كيف يمكن استخدام الاسلام كايدلوجية » ؟ اكيف يمكن أن تعلن باسم الاسلام وجوب تأميم هذه الممتلكات أو تلك ، وأصحاب هذه الممتلكات أمّة ونماذج ، تقوى (1) وأكثرية رجال الدين يعلنون عن حق (11) أن الإسلام أقر الملكية الخاصة . .

كأن التأميم عقوبة تفرض على غير الاتقياء 1 . . أو كأن التأميم. يعنى إلغاء الملكية الخاصة . . المهم أن الكتاب. كما ترى - بعيد كل البعد عن أرب يكون المهم أن الكتاب. كما ترى - بعيد كل البعد عن أرب يكون على أننا المشتراكية للربط بين الاشتراكية والاسلام . ولنتفق من البداية على أننا ألن نفتش فيه عن فتوى بشرعية الاشتراكية ، فنحن لا نتلسها من مستشرق ، وهذه القضية لم يشر الجدل حولها في بلادنا قط من جانب الجاهير المسلمة . .

ولا نحن نبحث فيه عن اشتراكية أو ثورية الاسلام ، فنحن ... ثؤمن أنه صالح لـكل زمان ومكان . . وصفة الزمان أنه يتغير ، وصفة المكان أنه يختلف ، وشرط الصلاحية لـكل زمان ومكان هو قابلية التغير ، أى أنه لايفرض نظاما محددا قاطعا في تفاصيله الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، بل يضع مبادى وأسسا ترسم سلوك الفرد وسلوك المجتمع ، ويتحرك الناس في إطارها لبناء ما يصلح حياتهم .

وإذا كان دخول العالم الاسلامي عصر الصناعة يبدو مستحيلا بغير التعبئة الجماعية لطاقات الآمة والدولة ، فإن الاشتراكية تبدو قضية تفصيلية وحتمية أمام الشعوب الاسلامية ، وهي لاترى فيها ما يتعارض مع دينها ، بل تراها من صميم مبادى والاسلام ، لانحتاج لمن يعلمها لها ولا من يفتى لها بشرعيتها ، وترى أن الرأسهالية باستغلالها وأنانيتها وحتمية الاستعار فيها ، تتنافى مع روح الاسلام وتعاليمه . وما تراه الأمة الاسلامية حقاً فهو الحق . .

يقول رسول الله: « لا تجمتع أمتى على باطل ، . . فإن أرادت الجاهير نظاماً اقتصادياً معيناً وأجمعت على ذلك ، أصبحت تشريعات . هذا النظام من صميم الشريعة . .

فنحن لا نتعرف على الاسلام ولا على الاشتراكية التى تعنينا فى الوطن الاسلام ، فى كتاب الاسلام والرأسمالية لمكسيم رودنسون . ولكن سنتعرف فيه على بعض مايروجة مفكرو الغرب عن الاسلام . هسذه النظرة التى بدأت عنصرية متعصبة ، ورغم تطورها اليوم ، وعاولتها الاتصاف بالموضوعية ، وبذل جهد أكبر فى محاولة الفهم كا يفعل مكسيم رودنسون ـ إلاأنها مازالت بعيدة عن فهم روح الاسلام وحقيقة تعاليمه .

ويبذل المؤلف جهدا مخلصا فى تفنيد الادعاءات التى سادت الفكر الغربى حول تفسير أسباب ظهور الرأسمالية فى الجانب غير الاسلامى من العالم . .

وإذا كانت أساطيل الغرب ومدافعه قد حالت بيننا وبين دخول عصر الصناعة ، فكما يقول المؤلف أن المعاهدات التى فرضت على الدولة العثمانية : وكانت فى واقعها تقطع الطريق مسبقا على أية محاولة محتملة لبناء صناعة عثمانية ، و هذه المعاهدات التى فرضها بالمرستون والاسطول البريطانى على مصر ، واضطر محمد على أن يعلن أمام معبد حرية التجارة عدامته وتوبته النصوح عن محاولة النصنيع ، ويقول : وومن الواضح أن مثل هذه الظروف كانت تجعل أى جهد التصنيع المستقل أمراً

مستحيلاً ، إذكانت قوة , الإمبرياليات ، الغربية اقتصاديا وعسكريا تجعل من العسير جدا عليهم \_ إذا لم نقل من المستحيل \_ أن يحققوا التصنيح .

ولكن أساطيل الامبرياليات الغربية ، لم تكن وحدها هى التى تعمل . . بل مذفعية أخرى لاتقل عنها خطورة ، وهى كنتاب الغرب وفلاسفته ومستشرقوه ، الذين عكمفوا على التفتيش عن أسباب تخلفنا 1 وبالطبع لم يكتشفوا الاستعاد ، بل اكتشفو الاسلام ا

فالاسلام هو سر تخلف العـــالم الاسلام ، لأن الاسلام يعادى. التصنيع! . . وعقدة العقد التى حالت دون قيام الرأسمالية فى بلادنا! هى تحريم الربا!

وج . أوسترى ، يرى أنه و لما كانت عقلية الاسلام السلفية لم. تساعد على نمو الرأسمالية ، فان الاساليب الرأسمالية لم تدخل الاقليلاً في صناعة البلدان الاسلامية وتجارتها ، لذا كانت أكثر المشروعات. الهامة من صنع الاجانب ، .

بل ويدهش من وجود تكنولوجيين مسلمين ا

و بموجب هذا المنطق الذى روجه مستشرةو الاستعاد ، لم يكن الاستعاد هو السبب ، بل الاسلام ! الذى منع المسلمين مرب بناء المصانع ، مما اضطر الاجانب مشكورين إلى تولى هذه الاعمال !

وليت الآمر اقتصر على تحريم الربا . . بل إن حالة المسلمين

ميئوس منها ، فهناك أيضا السحر . . . إيمان الإسلام بالسحر » عنع توفر العقلانية الضرورية لقيام الصناعة الرأسمالية . . كا يرى ويير . . وكذلك . القدر المحمدى ، يحول دون المغامرة المطلوبة فى النظام الرأسمالى . .

« والقدر المحمدى » كالغول والهنقاء والحل الوفى ، ولكنه من اختراعات الفكر الصليبي فى عنفوان كراهيته وتعصبه ضد الإسلام ، ومحمد بالذات من بين الانبياء هو الذى شرع له القتال دفاعا عن دينه وعن حرية المسلمين فى تصريف شئونهم . . وكان يخرج للقتال لابسا خوذة على رأسه ، ودرعا على بدنه ، حاملاتو سا وسيفا ، وغطاه المسلمون بأجسادهم يوم أحد ليحموه من السهام . . وحفر الخندق حول المدينة ليمنع وصول جيش العدو له . . وكلها تصرفات تؤكد أن الاسلام ما بشر ، ولا المسلمون آ منوا لحظة واحدة بهذا الاستسلام البليد للقدر كا يصوده كتاب الغرب من الدرجة الرابعة . .

بالعكس إننا نستطيع ان نقول أن الايمان بالقدركما هوفى الاسلام يل كما هو فى كل دين ، يدفع المرء الى المخاطرة ، فما دام ان يصيبنا إلا ماكتب الله لنا . . فلماذا نخاف . . وما الذى يمنعنا من أن تطلب الأفضل ونسعى إلى النجاح . . أو هو كما بينه عمر بوضوح وعبقرية إسلامية خالصة . . فعندما أراد الرجوع من الشام لوجود الطاعون به ، وسئل أتفر من قضاء الله ؟ . . . ورد نعم إلى قضاء الله . . . ثم ضرب مثلا بالرجل إن أحسن اختيار المرعى لإبله فبقضاء الله ، وإن أساء فبقضاء الله . . لذا فالراعى مطالب بأن يجتهد ماوسعه فى اختيار المرعى لأنه لايعرف ماقضاء الله . . وهو مسئول عن أن ينشد الاحسن ، وعاد عمر إلى المدينة ، هاربا من قضاء الله فى الشام. إلى قضاء الله فى المدينة . .

ولكن طريق المسلمين حافل بالاشواك!! فهناك أيضاً والصدقة والإحسان، ويبعدان الكثيرين عن العمل المنتج، ورأى ارفست رينان ورينيه شارل أن الاسلام يمنع تابعيه من أية مبادرة اقتصادية تقدمية ويحكم عليهم بالجمود...

ولا أظن أنه يوجد فى تاريخ المبادرة الاقتصادية مثل عبد الرحمن ابن عوف فى عفته وامانته وشرفه ونجاحه الاقتصادى الخرافى .. ودلونى على السوق ، شعار يصلح أن يكتب بالذهب فوق أعظم مؤسسة اقتصادية فى العالم .. لولا أن السوق الآرب والتعامل فيها مجرد من القيم والشرف .

ويرى د ويبر ، أن العقلانية لاتتوفر إلا في العقلية الغربية ..

<sup>(</sup>۱) هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة لايملك شيئا ، فلما وصل إلى هناك آخى رسول الله بينه وبين سعد بن الربيع . . فتال له سعد الانصارى : هذا مالى خذ نصفه ، ولى زوجتان أطلق لك واحدة فتتزوجها . . فقال عبد الرحمن ابن عوف « بارك الله لك ياأخى في اهلك ومالك . . لاحاجة لى بهما . . دلوثى على السوق . . » و ذهب عبد الرحمن بن عوف إلى السوق فباع واشترى ( بغير السمال ) و تصدق بماله كله أو نصفه أو ثلثه عدة مرات ) وكان يتصدق بالقائلة وكانة : الجمال وما تحمله ! . . ثم مات على حوالى ٣٢ مليون دينار ، وكانوا المكسرون الذهب الذى خلفه بالفؤوس . . أبعد ذلك مبادرة اقتصادية ! . .

وقد تصدى مكسيم رودنسون فى جهد ملحوظ لتفنيد هذه الآراء قدر مارسع علمه ، فأثبت عقلانية الإسلام ، وتفوقه فى هذه الناحية على. كل الايدلوجيات والديانات السابقة عليه .. ثم ركز جهده فى معظم، فصول الكتاب لإثبات أن الإسلام لم يكن ليعوق قيام المجتمعالرأسمالى. لا من الناحية الايدلوجية ولامن ناحية التنظيم الاجتماعى والاقتصادى. للمجتمع ..

وقد بذل جهداً، لانظنه أنه كان بحاجة إليه، لإثبات أن تحريم الربا للم يكن يلتزم بصفة جدية في المجتمعات الإسلامية ، وأن الملكية الخاصة موجودة ومعترف بها ، وأن استغلال العمل المأجور مشروع وقائم في المجتمع الإسلامي . . وبالتالي فسكل مقومات النظام الراسمالي كانت متوفرة ، لو أتيح لها المناخ اللازم لنموها . . ولو أنه يعترض على رأى المستشرقين السوفيت الذين يزون أن المجتمعات الإسلامية كانت حبلي بالرأسمالية لولا أن أجهضها الفزوالاستعارى ، فهو يرى أنها كانت عاقراً بفعل أسباب خارجة عن الدين الاسلامي .

ولنبدأ بمناقشة أفكار الكتاب على ضوء هذه المعرفة بنوايا مؤلفه واجتهاداته ..

## الاسلام؟

وإذا كان المؤلف يسلم بضرورة النعبئة الايدلوجية للدول النامية: إذا ما أرادت أن تحقق ثورتها الصناعية اليوم، فإنه يرفض أن تنم هذه التعبثة باسم الاسلام ، لانه يخشى أن تفوز قوى التخلف فى لعبة تفسير النصوص والشعارات . .

صحيح أنه فى الحرب يفضل دائما أن تختار أنت أرض المعركة وأسلحتها .. ولكن، كم من معارك التاريخ دارت وفقا لمزاج المتحاربين؟ هيكم فى التاريخ من أمم وجركات وقواد ، هزموا وبادوا ، لانهم ظنوا أنهم يجب ألا يقاتلوا إلا وفق شروطهم ، فلم ينتظرهم خصومهم ولا رحموهم ! .

والأرض الوحيدة التي يمكن أن يقوم عليها بعث حضارى للعرب هي تلك التي يشكلها التراث الاسلامي .. وخبرة العمل العربي تؤكد أن الجاهير تعيش هذا التراث وتستجيب له وحده .

ووجود تفسيرات متخلفة للاسلام لايعنى أن يدير المخلصون المتطلعون لعزة أمتهم ظهرهم للاسلام، فالنظرة العلمية للاسلام تؤكد أنه دائما أبدأ إلى جانب القوى النامية الراغبة فى بناء المجتمع الافضل والقادر على مواجهة تحديات العصر ..

وأنه ما من دعوة صالحة تستند إلى العلم وحاجة العصر وإرادة

التغيير عند الجماهير وجدت حائلا حقيقاً من نصوص الدين الاسلامى وتفاسيره ..

على أية حال ليست القضية قضية من هو الاقدر على نسبة مصالحه للاسلام بقدر ماهى محاولة لفهم الأساس الوحيد والسليم لأى حركة تستهدف حقيقة إطلاق طاقات هذه الآمة ، مستندة إلى تراثها الخالد لبناء مستقبل زاهر ..

والذين ينصحوننا الآن بالتخلى عن الاسلام لكى نتمكن من بناء الاشتراكية ، يقفون نفس موقف الذين كانوا ينصحوننا خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بالتخلى عن الاسلام لكى ننجح فى بناء الرأسمالية ، وهم الذين يحاول رودنسون الرد عليهم فى كتابه هذا فاذا به يسقط فى نفس موقفهم ا

انها محاولة الغرب المصرة على اختلافالشعارات ــ لدفع المسلمين إلى التناقض مع الاسلام والتخلى عنه، فليس الهدف أبدا إقناعنا بالرأسمالية ولاكسبنا للاشتراكية ، بل تجريدنا من الاسلام .

وكما لم تنجح الحركات ولا الحكومات الاسلامية التي صدقت هذه النصيحة المسمومة ، فتخلت عن إسلامها سعيا وراء سراب المجتمع الرأسالي ، فعادت بخني حنين قد خسرت الإسلام والاستقلال .. فإن نفس الحفين في انتظار من يحاول اليوم أن يرتكب نفس الحطأ ..

### الريا

غلنناقش إذن القضايا التي يثيرها الكتاب . . ولنبدأ بقضية الربا . .

( م ۱۷ -- الحق المر )

والمؤلف هنا يرد على وعدد من مؤاني الكتب الشعبية والدراسات الاقتصادية العامة والحقوقيين ، الذين يحسبون أنهم باستخدامهم بعض الكلمات العربية الرنانة يستطيعون أن يبرهنوا على أن تحريم الربا قد عاق المسلمين عن مارسة أى نشاط اقتصادى من النمط الحديث ، إذ أن آراءهم تلتى اذنا صاغية لدىأو لئك الذين ينبهرون بعلمهم أو الذين لديهم الاستعداد للقبول بنظرية ترضى عنصريتهم وعداءهم ، وإن زيفوها أحيانا بستار من الاعجاب الـكاذب بحضارة تقليدية يسبغون عليهاالمثالية بزعمهم أنهـا سمت عماانساق إليه العالم الحديث من لهاث وراء المال. -وإذاكان الذين يروجون هذه الآراء عنصريين، بحكم نسبتهم القصور إلى أخلاقيات الأمم غير الغربية ، فإن الموقف الذي يتخذه رودنسون لا يخلو من عنصرية ، عندما يرفض وجود اختلافات بين مفاهيم الحضارات وقيمها ، فالنرجسية المصابة بها الحضارة الغربية تجملها تتأمل نفسها في إعجاب، بل وأكثر من ذلك توى ملامحها هي في كل ما تتأملة . . فما دامت الحضاره الغربية حضارة مادية قامت على الربا ، فلابد أن كل الحضارات قد سلكت نفس السلوك ، وكل ادعاء غير ذلك

ويرد أيضا على أولئك الذين قالوا : أن تحريم الربا قد جعل تجارة المال فى العالم الاسلامى حكرة فى ايدى المسيحيين اولا ثم فى ايدى المهود من بعدهم .

ولو أن رشيد رضا قد رد على هذه المزاعم قبل مكسيم رودنسون منصف قرن عندما قال: « يقول كثير من الناس الذين تعلموا وتربوا

هو من باب خداع النفس . ا

تربية عصرية . . أن المسلمين منوا بالفقر وذهبت أموالهم إلى أيدى الاجانب وفقدوا الثروة والقوة بسبب تحريم الربا ، فإنهم لاحتياجهم إلى الاموال يأخذونها بالربا من الاجانب ، ومزكان غنيا منهم لايعطى بالربا ، فمال الفقير يذهب ، ومال الغنى لاينمو . . يعنون أنه ما جنى على المسلمين إلا دينهم . وهذه أوهام لم تقل عن اختبار ، فإن المسلمين في هذه الايام لا يحكون الدين في شيء من اعمالهم ومكاسبهم » .

ولنا اعتراضات على المنطق الذى استند إليه مكسبم رودنسون فى. مناقشته لقضة الربا . . فهو برى :

أن المسلمين لم يلتزموا إلا فترة نادرة ، مجوز إسقاطها من تاريخهم ، بتحريم الربا ، فهم إما تعاملوا به صراحة،أو احتالوا على النص بسذاجة ببعض الآلاعيب الفقيمة .

وهو يبنى كتابه كله على هذه الفرضية التى تبدو من شدة تحجرها كأنها حقيقة لا تحتمل الجدال . .

وهى القول بأن النظام الرأسمالى هو المناخ الوحيد الذى كان من.
الممكن أن تنبت فيه الثورة الصناعية وتنمو ، والنظام الرأسمالى لايمكن
تصوره بغير الربا والعائدة، ، فنقطة البدء هى الربافالرأسمالية فالصناعة .
من هنا يبذل مكسيم رودنسون جهودا جبارة لتبرئة ساحة الإسلام من
تهمة سد لطريق على الصناعة ، بإثبات أكل المسلمين للربا !

غير أننا نرفض هـذه الفرضية ، ونرفض كل ما ينبني عليها من نتائج . . لاننا لانجـد دليلا مقنعا \_ غير أنه هكذا جرت حركة

التاريخ — على أن شعوب العالم الثالث كانت عاجزة عن أن تجقى التصنيع بغير الشكل الذي قدمته الحضارة الفربية . .

إننا نعيش اليوم تجربة تقدم الدليل المضاد لهذه الفرضية ، فشعوب العالم الثالث يتأكد لها كل يوم أنها لا تستطيع تحقيق الثورة الصناعية في بلادها ، إذا اصرت على أن تسلك نفس الطريق الذى سلكته الرأسمالية في الغرب . . فلماذا نصادر حركة التاديخ ونزعم أن هذا الوضع الذى محيشه الآن لم يكن ممكنا منذ ستة أو حتى عشرة قرون !

الم يكن من الممكن أن تكتشف شعوب العالم الثالث طريقا غير الرأسهالية يحقق لها الثورة الصناعية ، لولا أنها سقطت تحت احتلال الغرب الاستعارى ، الذى فرض أسلوبه فى النطور ، ثم حال بيننا و بين تجربة هذا الاسلوب؟

الم تدخل الشعوب الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى والصين عصر الصناعة بغير المرور على مرحلة الرأسمالية ، فن الذى حتم أن تمر الشعوب الاسلامية بمرحلة الرأسمالية وتنعاطى الربا لكى تصل إلى الثورة الصناعية ا

ألا يرى المؤلف نفسه أن مسألة , معدل الفائدة , (الربا) قد فقدت كثيراً من أهميتها بانتقال الدول الاسلامية إلى أنماط افتصادية اشتراكية أو حكومية على الافل . .

أليس ذلك حجة لديننا . . ألم يكن من الممكن أن يحدث نفسىالشىء وأن تتم نفس الخطوة منذ عشرة قرون ؟ لولا الاحداث التى نولت بالعالم الاسلامى، وهى الحروب الصليبية ثم الاعصار المغولى ، بمادمر امكانيات النمو الحضارى ، وحول منحى التقدم الاسلامى إلى الثبات ثم الهبوط . . إننا نعتقد أنه فى ظل الفلسفة الاسلامية ، وما تحققه من اطلاق لا حد له اطاقات الانسان المبدعة ، وما تفرضه فى نفس الوقت من تكافل اجتماعى، ومسئولية الدولة مسئولية كاملة عن الحياة فى مجتمعها . .

نرى أن الحضارة الاسلامية كانت قادرة على ضوء ما وصلت إليه من معرفة علمية فى أواخر القرن الثالث الهجرى، وما تجمع فيها من ثروات ، كانت قادرة ، على تحقيق الانقلاب الصناعى، لولا العوامل التي كانت نتيجة عوامل خارجة عن ارادة المجتمع الاسلامى بصفة أساسية ، وإن كنا لانعنى ذلك المجتمع من مسئوليته فى العجز عن مواجهها خارج حدوده ١ .

من هنا فنحن نرى أنه لو لاهذه الاحداث التى نزلت بالعالم الاسلام. لىكان من المؤكد أن يصل إلى صيغة إنتاجية أكثر سموا من الصيغة الرأسمالية وقادرة على تحقيق الانقلاب الصناعي . .

<sup>(</sup>۱) على اية حال هذه قضية لا يكن أن تبعث كل جوانبها في هذا الميز مع وفشل الحضاره الفربية رغم تفوقها التكنيكي وتمرسها في وسائل القمع في منع قيام حضارات معادية خارجها ، بل وتنبؤ المؤرخين بانهيار الحضارة الغربية عن عمر أقصر مما عاشته الحضارة الإسلامية في تألقها مه كل هذا يقدم عذرا لأسلافنا في عجزهم عن مواجهة المصير المحتوم لسكل الحضارات ، وهم قد واجهوا اعصارا نادرا في شكل غزو جاعى انقض على العالم الاسلاى من جانبيه ، فصدوه ، واستمروا في الحياة بعده عدة قرون واسكن اثخنتهم الجراح ، واصابتهم حمى القتال بتغييرات في صميم تكوين المجتمع أدت إلى وقف التموالحضارى (ارجع في هذا لتحليانا لأسباب في صميم تكوين المجتمع أدت إلى وقف التموالخضارى (ارجع في هذا لتحليانا لأسباب في صديم الدولة العثمانية في كتاب القومية والغزو الفيكرى) .

فالرأسهالية لم تمكن قدرا محتوماً على الشعوب ، والربا ايس هوكلمة السر التي يبدأ بها طريق الصناعة . .

أما القول بأن الربا قد حال بين المسلمين وتحقيق الثورة الصناعية . . غذلك صحيح . . ولكن . . بعكس ما يقال تماما . .

فإن التعامل بالربا هو الذي منع قيام الصناعة في البلاد الإسلامية وليس التأثم من التعامل به . . فلولا ديون اسماعيل ذات الربا الفاحش لما انهار افتصاد مصر ، ولما سقطت فريسة للمرابين الذين احتلوا البلاد ومنعوا قيام الثورة الصناعية بها .

فليت حكام العالم الثالث التزموا بتعاليم الإسلام وتأثموا من الاقتراض بالفائدة . . إذن الكانت فرصتهم أكبر فى دخول عالم الصناعة ولوحتى فى الشكل الرأسهالي . .

لقد كانت قضية الربا مر القضايا المحرجة للمسلمين قبل ظهور الاشتراكية ، عندماكان والمصرف، هو اله الصناعة ، وهو وحده الذى يملك أن ينقل المجتمعات من التخلف إلى التقدم . .

وكم بذل علماء المسلمين من جهد لتبرير أو تفسير أو حتى تحليل الفائدة ا

ولكن هذه القضية لم تعد تثير الآن إلا الاعتزاز با إسلام ، الذى تحمى تماليمه شعوب العالم الثالث من استنزاف ثرواتها باسم القروض ..

ولا شك أن تحريم الفائدة في مصلحة شعوب ثبت أنها تدفع سنويا غوائد وأقساطا ضعف ما تناله من قروض . . وأنها عاجزة في ظل هذا الوضع أن تحقيق معدل تنمية من هذه القروض يغظبي حتى فوائدها . 1

ولا شك أن تحريم الربا يعنى قطع خيوط التبعية التى تربط الاقتصاد الاسلام بنظام المصارف العالمي الصهيوني في حقيقته ١ ، والذي لا يمكن أن يسمح ببناء اقتصاد مستقل مزدهر غير خاضع لسيطرته ، ولا يمكن أن يسمح لشعوب العالم الثالث باستثمار ثرواتها وبناء حضارتها والدفاع عن نفسها ضد عدوان الرأسمالية الغربية . ومهما كان حجم الاستقلال السياسي الذي تناله شعوب العالم الثالث ، فإن هذا الاستقلال يغدو خرافة باستمرار خضوعها لسيطرة البنوك الغربية ، وما من سبيل إلى تحررها إلا خروجها من دائرته ، ولا شك أن تحريم الربا بخرجها عما من دائرته ، ولا شك أن تحريم الربا بخرجها عما من قبضته . .

غيرأن النقاش اليومحول الربا، يعدنموذجا للتفكيرالجزئي العقيم .. وما أسخف أن يعيش المرء في مجتمع لا علاقة له بالاسلام إلا أسماء افراده . . ثم يجهد نفسه في البحث هل يجوزله الحصول على فؤائد أهواله في البنك ، ولا يسأل نفسه أين تودع أموال هذا البنك ، واين تنفق ، وما علاقة ذلك كله بالاسلام ؟

إن الاسلام نظام شامل جاء لتنظيم مجتمع إنساني . . وقضية الربا قضية جزئية في إطار هذا النظام الشامل ، فإذا تخلينا عن النظام كله ، بدت لنا الجزئية غريبة وشاذة وغير بمكنة النحقيق . .

<sup>(</sup>١) كان تحريم الربا بعد غزوة أحد، وانضاح عداوه اليهود، وتحتم مواجهتهم فى معركة حاسمة ، ولاشك أن الحكمة الآلهية استهدفت ضمن العديد بما استهدفته تحرير اقتصاد المجتمع الاسلامىق المدينة من سيطره اليهود المالية بتحريم الربا

أما لو عشنا فى نظام إسلامى عالمى ، فإن تحريم الربا سيدفع الدول الإسلامية إلى التفكير فى شكل جـديد من أشكال التماون الافتصادى. فيا بينها بعيداً عن روح المصرفية اليهودية وأساليبها . .

أما فى الفترات التى تخلت فيها المجتمعات الاسلامية عن تعاليم الدين، فلم يكن المسلمون فقراء بسبب تحريمهم الافتراض بفائدة ، بل بسبب سيطرة البنوك الرأسمالية الاجنبية ، تلك التى سمحت المسلمين بالاقتراض بالربا وحرمت عليهم الافراض .

### الملككة

وفى محاولة لاثبات عدم تعارض الاسلام مع الرأسالية جمع مكسيم وودنسون كل الآيات والاحاديث التى تثبت شرعية التملك والملكية، بل ويستدل من تشريع الاسلام بشأن المواريث أنه يفترض بالضرورة استقرار الثروات المكسبة ويدعىأن أحكام الميراث من شأنها أن تمنع انتقال الثروات أكثر بما تمنع تكوينها . .

والميراث فى الاسلام يننى القدسية عن حق الملكية، أما تحريم الملكية الحاصة فلا نظن أنه قد طرح بصفة جدية فى أى حوارجاد يتعلق بتنظيم المجتمع . ولم يقم حتى الآن مجتمع يلغى الملكية الحاصة إلغاء مبرما ، محيث يتحول الانسان إلى عضو فى مؤسسة تمتلك كل شيء إلا ماولد به فإذا غادر هده المؤسسة وانتهى عمله بها بالوفاة أو بغيرها ، تسلمت المؤسسة كل ما يخصه ا . . لم يقم مثل هذا المجتمع ، ولا يبدو أنه من

الممكن تصور قيامه . . ومادمنا قد سلمنا بحد ما من الملكية الخاصة الابد من وجوده ، مهما يكن محدودا ، فلابد من انتقال هذه الملكية بعد وفاة المالك . .

وهنا ينطلق الاسلام من نظرته إلى الملكية باعتبارها وظيفة اجتماعية وليست حقامقدسا للمالك ، فنى التشريعات الآخرى نجد المالك يملك أن ينقل ملكيته إلى القطط والكلاب أو إلى غريب عنه أو إلى زوجته مع قبود تشل حريتها كإنسان . . أى أن إرادته وإدارته لثروته تمتد إلى ما بعد وفاته و بعد أن يكف عن أن يكون له أى دور فى إدارتها أو تنميتها ، ورغم ذلك تظل هذه الارادة تتحكم فى المجتمع . .

أما الاسلام فهو يحدد انتقال هذه الثروة وطريقة توزيعها بين الورثة بصرف النظر عن عواطف المالك وأهوائه . . فالميراث في الاسلام يعترف بالملكية الخاصة ، وينني بنفس القوة قدسيتها ، يعترف بالحق الجماعى في توزيم الملكية، وبسيادة إرادة التشريع على إرادة الفرد المالك.

أما أن نظام الميراث الاسلامي يؤدى إلى تفتيت الملكية فقضية تثبتها: النجرية والمنطق ولا تحتاج لنقاش .

فالملكية في الاسلام وظيفة اجتماعية ، ومصلحة المجتمع فيها مقدمة على مصلحة الفرد ، والتملك مرتبط بالقدرة على افادة المجموع ، وحق. المجتمع مطلق في تقييد وإباحة ونزع ونقل ملكية الفرد في حدود ما أمر به الاسلام . .

أما قضية إمكانية قيام النظام الرأسمالي في مجتمع إسلامي فقد رأينا مخطأ الربط الحتمى بين رأسمالية المجتمع وقيام الصناعة فيه ، ورأينا أنه لم يكن من المحتوم على الشعوب الإسلامية أن تسلك الطريق الرأسمالي لتحقق ثورتها الصناعية . . كذلك رأينا أن تحريم الربا لم يكن عائقا عن مقيام الصناعة ، بل إن التعامل بالربا كان عاملا من عوامل تدهور اقتصاديات العالم الثالث . .

وإذا كان صحيحا أن المجتمعات الإسلامية فى العصور المتأخرة لم تتكن تمنع قيام المؤسسات الرأسمالية فإن قضية اتفاق التعاليم الإسلامية مع الروح الإسلامية تبق بحاجة إلى نقاش . .

يرى مكسيم رودنسون أن عوامل ظهور الرأسمالية كانت متوفرة في العالم الاسلامي ، وهي :

أن العالم الإسلامي الوسيط قد عرف ثروات ضخمة من النقد
 والمعادن الثمينة .

- م الانتاج للسوق كانمعروفا وقائما ومزدهرا .. فني مدينة واحدة من مدن مصركان بوجد . . . . ه نول . .
- ه أن بورجوازية يغلب عليها الطابع التجارى كانت قد نشأت في العالم الاسلامي بدءا من القرن الثاني للهجرة ا

و أن قيام الرأسمالية يتطلب وجود رأس المال البضاعى وبلوغه مستوى معينا من النمو ، لأن ذلك شرط لنركيز الثروة النقدية، ولأن الصيغة الرأسالية للانتاج تفترض وجود انتاج موجه للتجارة يباع بالجملة لالل الأفراد المستهلكين . فالشرط الادنى للتجارة ، الرأسالية ، هو أن تكون تجارة جملة ، وأن تستخدم النقد بحيث تؤدى إلى تنميسة الانتاج للسوق . . . .

وهو يرى أن هذه العوامل كانت موجودة فى المجتمع الاسلامى المزدهر . . ثم يبق السؤال . . لماذا إذن لم تتحول إلى رأسالية كاملة . ؟

لماذا ظهرت الرأسالية على الجانب الآخر من البحر الابيض . ؟ . وفي الاجابة على هذا السؤال قد يبدو أننا نلتقى مع خصوم الاسلام ، وهو غير صحيح ، فنحن نرى أن الفلسفة الاسلامية كانت حائلا دون ظهور النظام الرأسالي الغربي في بلادنا . . لا لتخلفها . . بل بالعكس لسمو هذه الفلسفة وإنسانيتها وترفعها عن الاستغلال الوحشي الذي قامت عليه الرأسالية الغربية وتغذت به ، وأصبح جزءا من مكوناها.

<sup>(</sup>١) بل من قبل الاسلام !

فالاسلام حال دون قيام النظام الرأسالي في بلادنا عندما كانت الحكلمة للمسلمين وحدهم ، لان :

هالارتباط وثيق بيزالرأسالية والاستعار .. فهما توأمان لاينه صلان، بل فصلهما يؤدى إلى موتهما معا . . والرأسالية الغربية لم تحقق نموها . وتنجز الثورة الصناعية إلا باستعار العالم الثالث .. فلا ينصور امكانية توفر رأس المال وتركزه في الوطن الرأسالي لتلبية احتياجات الثورة الصناعية بغير اعتصار شعوب المستعمرات .

والاستعاركما يحتاج لواقع جغرانى وبشرى ، يحتاج أيضا إلى عقيدة تبرره وتدفع إليه . . ويصعب أن تجد طرف الحلقة فتحدد أيهما يبدأ أولا . . العقيدة أم العوامل المادية . . ولكن لا جدال فى أنه يستحيل على عامل منها أن يحقق الاستعار بمفرده . .

فهل كان الاسلام قادرا على أن بخلق التبرير النظرى للاستعار؟ هل كان يمكن أن تقوم دولة إسلامية باعتصار موارد دولة أخرى، وتحريم الصناعة عليها من أجل بناء الصناعة فى الدولة الاسلامية الاستعارية ؟.. وقد والاسلام يدعو إلى أن يكون لهم مالنا وعليهم ما علينا . . وقد أصبح فقهاء المسلمين فى القرن الثانى من غير العرب . . وأئمة حديثهم من غير العرب ! . . بل لا تستطيع أن تقول أن الجنس العربى قد تصدر الدولة أكثر من ما ثة سنة فى حضارة عاشت ثلاثة عشر قرنا ا

وحتى لو رفضنا التفسير الاخلاق . . فهل كان أمام الدول. الاسلاميه مجال استعارى تمتد فيه ؟ أى تستعمر أوروبا ؟ ١

الذى حدث تاريخيا أنه عندما بدأ الصدام الثانى بين أوروبا والعالم

الاسلامي (الحروب الصليبية). . فإن عوامل عديدة جعلت غزو المسلمين لاوروبا مستحيلا ، فتحول الاسلام إلى موقف المدافع ، وعندما جاءت الموجة العثمانية فان مسارها وتكوينها حال دون تحولها إلى امبراطورية استعارية ، وأساسا لالتزامها بنظرة الإسلام إلى الذميين وفكرته عن دار السلام . .

المهم أن الاسلام كان عاجزا عن أن يكون استعاريا ، وبالتالى كان طريق النمو الرأسالي مسدودا . .

والعامل الثانى هو العلافة الداخلية فى المجتمع الرأسالى . . إن مكسيم رودنسون ، يشير إلى حق التزاع القوت للجائع . . وهو الحق الذى أقره جميع الفقهاء . . ويشير إلى الحديث: , ليس منا من بات شبعان وجاره جائع ، ولكن رودنسون لا يرى فى ذلك ما نعا خطيرا لقيام الرأسالية . .

والغريب أنه لايرى ذلك ، رغم أنه ماركسى ، يؤمن أن شرط قيام الرأسالية هو : « أن يبيت جارك جائما ، ليضطر أن يذهب فى الصباح فيبيع قوة عمله للحصول على القوت . .

إن وجود أولئك الذين و لايملكون إلا حرية الموت جوعا ،كان شرطا أساسيا لقيام النظام الرأسمالي . . وهؤلاء لاوجود لهم في مجتمع إسلامي يستحق هذا الاسم . .

إن حرية الموت جوعا بمنوعة فى الإسلام ، بل يباح انتزاع القوت بالقوة لحماية الحياة . . . وعلى بن ابى طالب يعجب للذى يبيت جائعا ثم لايخرج على الناس بسيفه، وعمر أيد موقف الانصار الذين انتزعوا قوتهم بالقوة من الذين منعوهم حق الضيافة . فكيف كان يمكن أن أتتوفر طبقة الاجراء و البروليتاريا ، الذين يضطرون للعمل لكى لا يموتوا جوءا . . ؟

إن هناك خلافا أساسيا فى نظرة الإسلام للكون ، ونظرة الحضارة الغربية . الإنسان الغربي ، فردى ، متوجس من الكون ، يعتبر نفسه فى حرب حياة أو موت ضد الآخرين ، وهو فى نفس الوقت وبسبب حالة الرعب هذه أسير المؤسسات التى يخترعها : الطبقة ، الكنيسة ، الحزب . .

أما الإنسان المسلم فهو فى ألفة مع الكون ، يؤمن أن الله قد سخر له كل هذا الكون لمتعته ، وأن التقدم يهدف لا إلى اذلال الطبيعة ، بل حتى تأخذ الارض زينتها . وهو مسئول عن الكون ، ابتداء من نفسه فعا ثلته فجتمعه فالإنسانية . . لأن الله خلقه ليكون خليفته فى الارض .

من هنا فان الفلسفة الإسلامية ترفض وحشية النظام الرأسالى. ولايخجلنا أن تعلن بكل قوة ان المجتمع الاسلامى حقا يستحيل عليه. أن يكون رأسماليا استعاريا . .

وقد رأينا أننا كنا قادرين على أن نمنح البشرية طريقا أفضل للتقدم. العلمي والتكنولوجي . . غير طريق الرأسالية الدموى . .

على أية حال كل هذه القضايا يمكن النقاش والخلاف حولها، أماماً لا يحتمل. الجدل فهو الحقيقة الراسخة بأن الاستعار الغربي كان العامل الاساسي، إن.

لم يكن الوحيد ، الذي حال بين الدول الاسلامية وبنا. الصناعة ..

## التعبئة الايداوجية

والمؤلف يرى أن الطربق الرأسهالى لايحتاج عادة إلى أيدلوجية تعبئة ه إلى عقيدة تطرح أمام شعب بكامله برنا بجا المتنفيذ . . ولكن ليسهناك من ينكر الحاجة إلى ايدلوجية فى بناء الاشتراكية ، ولكنه يرفض أن يكون الاسلام هو هذه الايدلوجية .

بل إن بعض الاشتراكيين غير المسلمين قد اقتربوا من الاسلام، من هذه الزاوية ،فهم يرون أن مثله قادرة لا على تحقيق التعاون الداخلي. في المجتمع الذي يبنى الاشتراكية وحسب . . بل وتحقيق التعاون العالمي. بين الدول غير الرأسالية وهي القضية التي تتعرض فيها الاشتراكية الامتحان عصيب .

## مخلفات المستشرقين

تبقى بعض القضايا التى لم يتوقف رودنسون لتمحيص مزاعم المستشرقين المتوارثة حولها ، بل ورثهاهو بدوره . . كحكاية والحديث ، وقد شرحنا هذه القضية فى بداية هذا السكتاب . . ووضحنا أنه العلم الذى أكد حرية الفكر الاسلامى وعلما نبته . . فقد وضعه المسلمون موضع التدقيق القائم على الشائ حتى تثبت صحته ، ثم اكتشفواوسائل التحقيق العلمى ، إلى حد ضبط السكلمة الواحدة ، والترتيب التاريخى والجفرافي لخسة أو ستة أجيال من الآمة الاسلامية .

والغريب أن و مكسيم رودنسون ، الماركسي يعجز عن أن يرى المجدلية في غير الماركسية، فيقف حائر اأمام ما يظنه تناقضا في الاحاديث، ويتخلص من هذا الموقف بحل ساذج مو الطعن في صحتها . . فهو يرى تناقضا في أحاديث رسول الله التي تشيد بالنجارة : والتاجر الصدوق الامين مع النبيين والصديقين والشهداء ، وقوله : وإن التجار يبعثون يوم

القيامة فجارا إلا من اتتى الله وبر وصدق، بينما لانرى أى تناقض . • طالتجارة كأى مهنة فيها البر والفاجر وكل يلقى جزاءه . . والنجارة أكثر عمليات الانتاج قابلية للتحرر من الاستغلال ، وأسوأها استغلالا في نفس الوقت .

فالتاجر الآمين يحقق خدمة حقيقية للمنتجوالمستهلك والانتاج ذاته، ولكن الناجر المنحرف يضركل هذه الاطراف .. فإلى التاجر الأولى يشير الحديث ، وعن التجار المنحرفين يتحدث الحديث الثانى . .

ومن العجيب أن و مكسيم رودنسون ، يقبل الروايات المتواترة عن الاحداث التاريخية أو الشخصيات الاسلامية ويرفض الاحاديث الني وصلت إلينا بنفس الاسلوب ا . . والمنطق يدعو للشك فى وجود شخصيات مثل أني بكر وعمر وعثان وعلى مادمنا سننكر كل مالم يثبت في غير القرآن ، لأن معلوما تناعن هذه الشخصيات جاءت إلينا عن طريق الرواية والتسلسل، أى نفس الطريق الذى انتقلت إلينا به الاحاديث . .

ومن ثم فإن الشك المطلق فى الاحاديث أو السنة لمجرد أنها لم تدون كما دون القرآن ، يعنى الشك فى الثاريخ الاسلامى كله .

والمستشرقون ليسوا أول من تشكك فى الحديث ، فهذه القضية كانت مطروحة فى الفكر الإسلامى منسذ وفاة الرسول ، وكان كبار الصحابة يتحرجون أشد التحرج من الحديث عن رسولالله ، وكان كل المتحدثين يعرفون ويؤمنون بحديث: « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، . ومن ثم فقد طرحت كل الاحاديث للامتحان والتحقيق

بكل الوسائل العلمية ـ ولا أقول المتاحة وقتها ـ بل والممكنة حتى اليوم-ويبتى بعد ذلك ما عرفه رودنسون من أن هذا الشك المنظم، قد منح الفكر الاسلامى حرية استعصت على أية لا هوت قبله . . كما سمحت للتيارات أن توجد ، وأن تختلف وتثرى الفكر الإسلامى من اختلافها . . أما ما يبدو من تناقضات ، فهو دليل حيوية هذا الدين ، ومطابقته لاحتياجات الإنسان المتعددة والمتغيرة بتغير الزمان والمكان .

أما قفل باب الاجتهاد ، فير تفسير يقدمه مستشرق لهذه النقطة هو قول ، وليام بولك ، إ : ، إن المسلمين في عصور الانحدار الاجتهاعي والسياسي والاقتصادي ، كانوا يواجهون خطر الابادة كمسلمين ، ولم يكن هناك ثمة أمل في نشر الدين . . فأصبح جلهم المسلمين ، إبقاء جذوة الدين مشتملة ، وهذا لا يتأتى إلا بمنسع كل التيارات ، وإغلاق كل الأبواب . . فاغلاق باب الاجتهاد لم يكن لتوهم اكتال المعرفة . . بل لنقص العارفين . . أما لو توفروا ، وأمن المسلمون خطر ضياع الدين فليفتح على مصراعيه ، في امن دين يحرض على التفكير مثل دين فليفتح على مصراعيه ، في امن دين يحرض على التفكير مثل دين فليفتح على مصراعيه ، في امن دين المحتهد فيه و إن أصاب أجران وإن أخطأ أجر ، .

### الصــدقة

والصدقة فى الاسلام لاتحمل هذا المعنى الذى اكتسبته فى عصور الانهيار ، وكان الوالى للرسول والخلفاء فى عصور التألق ، كما يصفه المحكومون: ويأخذ الصدقة من أغنياتنا فيردها على فقرائنا ، فهى ضريبة تؤخذ وتوزع من قبل السلطة ، وليس فيها الإحسان الفردى أو المذلة الفردية ، لأنها لا تتم بين فردين ، بل عبر جهاز الدولة ، والآية تقول : وخذ من أموالهم صدقة ، ، والإحسان التسولى "لا يؤخذ . . .

أما عندما انهار المجتمع الإسلامى ، وكفت الدولة عن أخذ حق الفقراء و المعلوم ، فى أموال الاغنياء ، فقد تحول الفقراء إلى متسولين ، والاغنياء إلى متصدقين بحسنين . . وفقدت المكلمة مضمونها الاجتمامى، وتلقفها المستشرقون من عصور الانهيار ليتحدثوا عن مجتمع المتسولين في دين يصف فيه رسول الله الصدقة في أرقى صورها بأنها : أوساخ

الناس ، ويقرر أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن العمل خير من أن يسأل الرجل الناس و أعطوه أو منعوه ، .

### • أما السحر . .

فإن الاسلام ينكر أى تأثير مادى له ، وكذب المنجمون ولو صدقوا ، . . و ولا يفلح الساحرون ، . . و ما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، . و ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لوكانوا يعلمون ، . و ولا يفلح الساحر حيث أتى ، .

فالسحر موجود ، وما زال يمارس حتى الآن ، وموقف الاسلام منه يعلمنا أن لاتأثير له علينا ، ولا يستطيع ساحر أن يضرنا إلا بإذن الله . . وهذا جانب رائع للايمان بالقدر ، فان إيماننا أن الضرروالنفع من قدرات الله وحده ، يجعلنا لا نخشى أى تهديد من جانب ساحر أو مشعوذ ، وعندما يؤمن الانسان في المجتمعات التي تؤمن بالسحر بقدر الله هذا تسقط سيطرة السحرة عليه . .

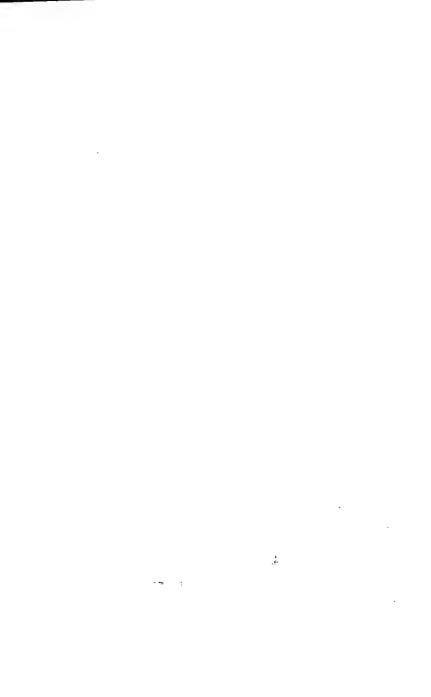
أهذا قدر بليد يدعو للاستسلام ؟!

فالقول بأن الاسلام يؤمن بالسحر ، وأن هذا الايمان سد الطريق على العقلانية اللازمة لقيام الحضارة الحديثة ، هو قول ينضح جهلا . . فلا الاسلام يؤمن بقدرة السحر على شل إرادة الانسان أو تغيير قوانين

الوجود . ولا فى التاريخ الاسلامى مظهر يعزز هذه الشبهة ، وأكثر من ذلك ما من عاقل يقول بإمكانية وجود حضارات عقلانية وأخرى لا عقلانية . . لأن شرط قيام الحضارة ، بل شرط وجود مجتمع بشرى هو سيادة العقلانية ، ولو دون أن تسمى باسمها . . فلا يمكن أن يبنى الناس جسوراً ويشقوا طرقا وينسجوا ثيابا ، إلا بمنطق عقلانى ه وبتسليم بفعالية القوانين المادية للوجود . .

وإذا قورن الإسلام بأى حضارة سبقته كان حظه هو الآقل من حجم الخرافات والمعجزات . . بل تستطيع أن تكون مسلماً صادقا إذا أنكرت كل المعجزات إلا القرآن والوحى . ولا شك أو ائك الذين عرفوا كروية الآرض وقاسوا قطرها ومحيطها واكتشفوا أن الضوم يصل إلى العين فتراه وليس العكس ! . . ثم وضعوا قوانين النطور الاجتماعى . . لا شك أنهم كانوا زهرات حضارة عقلانية من الدرجة الأولى . . وما من كتاب مقدس ترددت فيه كلة العقل ومشتقاته مشلاا جاء في القرآن . .

ف نجد فى هذا الكتاب حجة اشتراكية ، ولاكشفا جديداً فى الإسلام . . ولكنه يقدم صورة حديثة لآخر محاولات تقديم الإسلام للعقل الغربى . . وحتى لو فرضنا حسن النية فى كاتبه . . فإننا نقول إنه ما زال بعيداً كل البعد عن فهم روعة الإسلام وسر عظمته وخلوده . .



# أبوذر .. والحق المسر



حسبك عناء من دراسة أن تبدأها وأنت موقن أنك لن تحيطًا. علما بكل دقائقها . . وتسلم قبل الدرس أن بها من الاسرار ما شاء الله ألا يعرف ، ومن الايماءات ما يستحيل على عقلنا البشرى في هذه المرحلة أن يصل إلى ما تومىء إليه . .

وحسبك من شخصية توقن أنها أكبر من أن تحتذى، ويستحيل على المؤمن بها أن يسلك سبيلا سلكته هى، وعاشته حقا، ووعاه-التاريخ بكل دقائقه . .

شخصية نادت بأخطر المبادى. ، عاشت هى ما نادت به .. فى ظل ، قدر صارم لا مرد له ، يرسم خطاها ، ويوجبها فى طريق : « تمشى فيه ، وحدها ، وتموت وحدها ، وتبعث يوم القيامة وحدها . . ،

حسبك من داعية إلى أنبل ماتمنى الانسان ، يعرف أنه لن يتبعه أحد ، وأنه سيأتى يوم القيامة أمة وحده . . على طهره وطهارته ، على صدقه وإخلاصه . . على ما تمنى للناس من خير . . لن يتعبه أحد ، وسيأتى يوم القيامه أمة وحده . .

ولكن قول الحق ، جعله حبيب كل الناس ، حتى الذين ضاقوا به ، وبدعوته . . احتفظوا له بمكانة عاليه من الاحترام والتقدير . . فكننا نحترم المثل و نتطلع مشدو هين إلى الكال . . و غالستنا تحد

فكانا نحرم المثل ونتطلع مشدوهين إلى السكال . وغالبيتنا تحب المثل والكال . و ولكن ليس من طبيعة البشر أن يصادقوا الكال وأن يعايشوه ويرتبطوا به . . فالكمال دائما كالعُمقاب يعيش وحيدا في أعالى القمم ، ولكن الزواحف تتعلم الطيران من تطلعها إلى ذلك الوحيد المنفرد في أعالى القمم . . فلسنا مطالبين بالوصول إلى القمة . . ولكن بالتطلع إليها تنبت لنا أجنحة ، وتخفق قلو بنا وكاننا نظير

اما هو : فيمشى وحده .. ويموت وخده . . ويبعث يوم القيامة أأحة وحده ..

عرفنا أبو ذر بنفسه فقال:

«خرجنا من قومنا غفار . . وكانوا يحلون الشهر الحرام . . . و وى قبيلة كانت تقطع الطريق على القوافل على طريق البحرالاحر، وكان أبو ذر نفسه يقط\_ح الطريق ، على فرس له أو على قدميه كأنه السبع ، وبعد ما أسلم استمر فى قطع الطريق ، ولكن على قوافل المشركين وقريش .

فقبيلته خارجة على القانون بأوسع معانيه ، لا تعترف بما تواضع عليه كل العرب ، بل تستحل الشهر الحرام ، أى تستحل القتال والقتل في ذلك الشهر الذى اتفق العرب على وقف القتال فيه ، حتى أن المرم يحد قاتل أبيه ، في هذا الشهر ، فيكف يده عنه . . مادام قد اعتصم منه بالشهر الحرام . .

وهى قبيلة تقطع الطريق ، وأبو ذر نفسه قاطع طريق . . وقطع الطريق عند العرب فى هذه الفترة بالذات ، له معنى بختلف عما يمكن أن نفهمه نحن الآن . . بل إن قطع الطــريق عادة يقترن بنوع من الثورة ، أو إن شئنا الدقة : والرفض الاجتماعي ، . . الاحساس بحق مافيا يمتلك الآخرون . . وتفضيل أن يؤخذ هـــذا الحق بالقوة . لا بالسؤال .

والصعاليك الذين كان يمثلهم وعروة بن الورد، كانوا يقطعون. الطريق ليأخذوا من أموال الاغنياء مايكفيهم ويكنى الفقراء . . .

وحق انتزاع القوت مبدأ عريق فى البادية ، ومنذقرون لاحصر لها ، فرض الاعراب ، حق الضيافة . . وأصبح الكرم فضيلة إجبارية ، تأصلت حتى أصبحت غريزة عربية . . فللضيف ثلاثة أيام ، فرضا ، على من نول عليه . .

والفضائل والرذائل هي في النهاية قوانين يسنها المجتمع من أجل. الحفاظ على وجوده ، وليس بالضرورة أن تكون الفضائل والرذائل أو اقبال الناس على الفضيلة أو الرذيلة متجاوبا ومنطبقا على احيتاجات المجتمع . . ولكن المجتمع الذي يعيش ويقبوي على مصارعة قبوي الفناء ، هو المجتمع الذي ينحت من احتياجاته قوانين الاخلاق . .

والبدوى فى الصحراء ، الذى تتعلق حياته بموقف أول واحة تستقبله بعد رحلة مصنية ، يشرف خلالها على الموت ألف مرة . . فإن كانت اخلاقيات المجتمع هى الشح والبخل وكراهية الصيف ، فسيموت هذا المسافر . . وسيموت أهل الواحة بدوره . . فى أول رحلة لهم

يصلى فيها الطريق ، أو يخطئون المـوازنة بين استعـداداتهم واحتياجاتهم . .

أما لوكانت الاخلاقيات تعتبر اكرام الضيف شرفا يعتز به، حتى ليحرر الرجــــل عبده إذا ما جاءه بضيف في الليلة العاصفة الماردة! .

ويوقدون النار في أعالى الجبال يسترشد بها البدو في الصحراء ، وتهدى إليها ، وبها، القوافل الضالة .. فيجدون الدفء والماء والقوت، حتى ليتهاجون بضآلة نيرانهم ٢ . . ويتفاخرون بكشرة غشيان الضيوف ٢ . . حتى تصبح بيوتهم كالفنادق !

وإذاكان اكرام الضيف يصبح خلقا نبيلا من جانب المضيف يحرص عليه كواجب مقدس ، فانه يتحول أيضا عند الضيف إلى حق مقدس . . العاركل العارفى أن يحرم منه . . بل له الحق كل الحق فى أن يطالب به ، بل وأن ينتزعه بالقوة . . وكشيراً ماكان البدوى

ان جلت ضيفًا فأنت حر

<sup>(</sup>۱) والريح ياغلام ريح صر

<sup>(</sup>٢) قوم اذا استنبح الأضياف كلبهم

قالوا لأمهم : بولى على النار ا

<sup>(</sup>٣) يغشون حتى ما تهر كلابهم

لا يسألون عن السواد المقبل

يغير في الجاهلية مطالبا بحق الضيافة ، منتزعا حق القــرى . .

وفى الاسلام، شرع الفقهاء، حتى الضيافة ثلاثة أيام إجبارا . . قال الإمام ابن حزم و الضيافة فرض على البدوى والحضرى ، والفقيه والجاهل ، يوم وليلة ، ميرة واتحاف ، ثم ثلاثة أيام ضيافة . . فإن ممنع الضيافة الواجبة ، فله اخدها مغالبة ، وكيف أمكنه ، ويقضى له بذلك . . . .

و ومرجماعـــة من الانصار بحى من العرب ، فطلبوا منهم الضيافة . . .

لاحظ انهم هم الذين يطلبون ، ولسكى نتفهمها جيداً تخيل انك. تطرق بيتافى الزمالك أو الروشة أو أبو رمانة أوالسالمية أو الاعظمية . الخ . . و تعلن لاهله أنك ضيف . . و تطلب حقوق الضيافة ا

من المؤكم أن الحديث سينتهى فى مركز الشرطة ، وستجد أن كل القوى والقيم ضدك . .

• ودفض الاعراب أن يستضيفوا الانصار ، فأخذ الانصار حقهم بالقوة ، وتركوا فى مضيفهم إصابات ، تستطيع أن تصفها بانها قطع طريق صريح . . وفى قانون العقوبات اسمها سرقة بالاكراه . .

وجاء القوم إلى سيدنا عمر يشكون مافعله بهم الضيوف ،
 ولكن عمر يقول : « تمنعون ابن السبيل ، ما يخلق الله تعالى.

فى ضروع الابل بالليل والنهار؟ . . ابن السبيل أحق بالماء من. الثاوى علمه .

وأقر عمر سلوك الانصار ، فى انتزاعهم حقهم مما يخلقه الله ،. بالقوة الدامية 1

> تستطيع أن تقف طويلا عند هذا المبدأ الصارم يعلنه عمر . إن الله يخلق الرزق في ضروع الابل . .

إذن ليس لأحد أن يمنع ابن السبيل من ملكية الله . .

بل إن ابن السبيل أحق بهـا من صاحبها ، أو كما عبر و عمر ، بدقة نادرة : و الثاوى ، أى المقيم عند الماء ، فكأنه أنكر ملكيته تماما . .

ونستطيع أن نستخرج من هذه الواقعة ماشئنا من اشتراكية أو شيوعية او ملكية عامة ، ولكنه استخراج يقوم على التعسف ، مهما بدا لفترة من الوقت أنه يخدم سياسة أو يدعم مبدأ . . غير أنه لايستقيم مع وجهة النظر الإسلامية . . بينها ينطلق منطق عمر ، من نظرة الإسلام . . نظرة العرف لحق الوجود . . حق الحياة . .

عمر لوسمع أن أحدا انتزع بالقوة درهما من أحد أسواق المدينة، لقطع بده ، أو صلبه ، باعتباره بمن يسعون فى الارض فسادا . .

ولكن عمر الذى أعنى العبد من الحد ، وأوشك أن ينزل العقوبة. بسيده الذى حرمه . . ورأى أن ظروف المجاعة تدرأ إقامة الحد . . يبيح للانصار أخذ حقهم بالقوة . .

إن النظرة الإسلامية ترد الأمور إلى عاملين . .

الأول: هو ملكية الله المطلقة للكون.

ه الثانى : هوحق الانسان فى الحياة ، والاستمتاع بهذه الملكية . . كل الناس على السواء . . فكلنا على درجة واحدة من القرابة لله تعالى . . . فليس لاحد أن يختص بإرث خاص ، ويحرم الناس بما خلق الله . .

إن ارتباط الملكية بالانسان المالك ، لاوجود له فى التفكير الاسلامى بهذه الحدة ، وهذه الفردية التى نجدها فى العقلية الغربية حتى عندما وصلت للى الاشتر اكية ، فهى قد وصلت لها عبر تقديس الملكية 1 .. ماركس أجهد نفسه فى إثبات أن الطيبات ينتجها العال ، ليبرر حق العال فى أمثلا كها 1 ...

بينما يطرح الاسلام القضية فى بساطة ويسر ، وبمنطق يتخطى كل طبقية . .

فالله يخلق ما فى الضروع ليلا ونهارا . . فليس لاحدأن يدعىحق ملكيته . . فالـكل عبيد الله . . والله هو المالك .

والأولوية هنا للمحتاج . . ولأن ابن السبيل هو الآكثر احتياجا فهو الأولى والاحق بما فى ضروع الابل . . من الآخر الذى يرعاها ويحتفظ بها . .

هذه هى الخلفية التاريخية عند العرب الذين خاطبهم القرآن: ﴿ وَالذِّينَ فِي أَمُوالْهُمْ حَقْ مُعْلُومٌ ، للسَّاءُلُ وَالْحُرُومُ ، .

حق معلوم :

إنه شيء يختلف كل الاختلاف عن الصدقة والبر والاحسان والكرم والاريحية . .

حتى معاوم :

والحق إن لم تعطه ، فللناس حق أخذه وإجبارك على أداء الحقوق الأهلما .

بكل ما بهـا من قوة وإجبار مشروع ، ليس سؤالا ولا مِنْسَّة . .

'خ\_ن

وبهذا الفهم أحل أبو بكر دماء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محدا رسول الله، ويقيمون الصلاة، ويمنعون الزكاة. .

وريما كانت بداية انهيار الوحدة الاجتماعية فى المجتمعات الاسلامية هى تصور الزكاة سلوكا اختياريا ، أو مجرد ضرببة تغنى عنها ضريبة الدخول التى تتجاوزها الآن بكثير . .

( م ۱۸ — الحق المر )

إن الزكاة غير ذلك . . وفرضها على رأس المال لا على الدخل أور الارباح ليس اعتباطا . . إنه تناول لذات حق الملكية . . تأكيد لاشتراك المسلمين جميعا في ملكية ما يخلقه الله ليلا ونهارا . .

فعلو حق الحياة على حق الملكية مبدأ من مبادى. الحياة العربية ... وهذا المبدأ يمكننا أن نضع يدنا على الخيط الأول منه فى نسبج تفكير ابى ذر ...

ولنعد إلى قصة إسلامه:

: ال

خرجت أنا وأخى أنيس وأمنا ، فنزلنا على خال لنا فأكر مناا
 خالنا وأحسن إلينا ، فحدنا قومه . فقالوا له إنك إذا خرجت عن الملك خالف إليهم أنيس » .

أى اتهموا انيسا بعلاقة مامع زوجة خاله . .

د فجاء خالنا . . فتلا علينا الذي قيل له . . فقلت له . . أما مامضي من معروفك فقد كدرته ، ولاجماع لك فيما بعد ، فقر بنا صرمتنا (أي الناقة) فاحتملنا عليها ، وتفطى خالنا بثو به فجعل يبكى . . فانطلقنا حتى نولنا بحضرة مكة ، فنافر أنيس عن صرمتنا وعن مثلها ، فأتيا الكاهن فكم لانيس . فأتانا بصرمتنا ومثلها معها ، .

فهذه الرحلة خرج فيها مع أخيه وأمه ، ونؤلوا بخالهمالذى اكر ، هم. ولكن أباذر ما كان ليغفرله حتى مجرد الشك باخلاقهم ، ولا أن يتعلل

بأن الناس يقولون .. فان بجرد الاستماع إليهم ، ونقل حديثهم مه مرفوض فى صراحة أبى ذر .. فرد عليه كرمه ، وقطع علاقته به بكل وضوح وجلاه .. وتركوه وقد غطى رأسه بثوبه وانخرط فى البكاه ، مدركا بشاعة ما فعل بضيوفه إذ أساء الظن بهم ، ودفعهم إلى ردضيافته ثم القطيعة ..

وما أن وصلا إلى مكة ، حتى يستغفل أنيس رضىالله عنه حضريا ، بعكس ماجرت به العادة من استغفال الحضرى لابن البادية . ! فيراهنه على ناقته ، ويذهب به إلى الكاهن ، وفي دواية أن و أنيسا ظل يمدح السكاهن حتى حكم له ، وعاد لابي ذر و ا المه الذي بدل الناقة الواحدة التي ذهب بها . !

ويحكى أبو ذر قصة إسلامه :

وصليت يا ابن أخى قبل أن ألتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين . . قلت لمن ؟ ( ابن أخيه يسأل . . لمن تصلى وأنت لم تقابل رسول الله ليرشدك إلى الله ) قال أبو ذر : لله . . قال فأين توجه . . قال أتوجه حيث يوجهني ربي ، أصلى عشاء حتى إذا كان من آخر الليل القيت كأنى خفاء ( الثوب ) . . حتى تعلوني الشمس. فقال أنيس : إن لى حاجة بمكة فاكهني ، ثم ذهب فأ بطأ ، فلما عاد ، قلت له ما صنعت ؟ قال لقيت رجلا بمكة على دينك . .

تأمل تعبير شقيق أبي ذر: « رجلا بمكة على دينك ، وليس أن أبا ذر على دين الرجل الذي بمكه . . يقول أبو ذر : « يزعم أن الله

أرسله . . قلت فما يقول الناس ، قال يقولون شاعر . . كاهر . . . . . ساحر . . وكان أنيس أحد الشعراء . . قال أنيس لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم . . ولقد وضعت قوله على طرق الشعراء فما وجدته شعرا . . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون . . قال قلت فاكفني حتى أذهب فأنظر . . .

وتأمل علاقته بأخيه . . . اكفى حتى أذهب ي . . واكفى هنا تعنى فى ظنى تولى أموره أثناء غيابه لأنه فى رحلاته لايتزود إلا بالماء ا

فأتيت مكة فاستضعفت رجلا منهم ، فسألته أين هذا الذى تدعونه الصابىء . فأشار إلى وقال الصابىء . . فمال على أهل الوادى بكل مدرة وعظم (أى انها لواعليه ضربا بكل ماوجدوه فى متناوليدهم) فحررت مغشيا على، قال فارتفعت حينار تفعت كأنى نُصيباً حمر (أى كأنه النصب الذي يذبحون عليه من كثرة ما به من دماء 1) قال فأتيت زمزم ففسلت عنى الدماء ، وشربت من مائها ، فليثت بها يا ابن أخى ثلاثين ما بين لليلة ويوم مالى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تسكسرت عكن بطنى وما وجدت على كبدى سخفة الجوع (أى لم يحس بأى أثر للجوع) .

فهذا هو طعام البدوى قاطع الطريق . . فكيف به إذا أسلم ؟

الزهد فيه كانطبعا ،صفاه وزكاه الإسلام، أوقل إن الرضا بالكفاف في البادية الفقيرة أصبح بالإسلامزهدا، والرخاء يتدفق متحديا كل قناعة، متحناكل زهد .

والمواقف الاجتماعية، والفلسفية، والطبقية، والافتصادية، لاتتخذ

بمجرد الارادة فى اتخاذها ، بل هى ثمرة استعداد فطرى فى الإنسان ، وأفواها ما صادف هذه الفطرة واتفق معها ،وأضعفها هو ذلك الذي يفتعل ، ويتكلف على غير استعداد من اخلافيات معتنقه .

### ويكمل أبو ذر:

فبينها أهل مكة فى ليلة قراء ، لا يطوف بالبيت إلا امرأتان . . تدعوان أسافا ونائلة ( وهى صنان من آلهة العرب فى الوثنية، قيل أنهما كانا لرجلوامرأةارتكبا الفاحشة فى الكعبة فسخاحجرين فعبدهما العرب)

والمرأتان مستغرقتان فى العبادة ، ومناجاة الاله والالهة . . بكل جلال المناجاة ، يقتحمهما أبو ذر ، فيفزعهما بأبشعما يمكنأن تفزع به إمرأة . . والمرأة العابدة بالذات . . وفى مكان تعبدها، وخلال مناجاتها وفى صميم عقيدتها ، وبين يدى إلهما شخصيا . .

يقول أبو ذر . . فأتنا على فى طوافهما . . فقلت : وأنكحا احداهما الآخرى ! .

ويبدو أن المرأتين تظاهرتا بعدم السماع لهول ما سمعتا ، فهو أكبر من أن يصدق . . فعادتا مرة أخرى تطوفان حتى وصلتا إليه وهما تناديان أسافا ونائلة . . فقال أبو ذر قولا اشد غلظة ، لا يمكن لمكاتب معاصر أن يذكر ألفاظه ، ولا يترك لسامعه أو سامعته مخرجا للتأويل أو ادعاء شبهة في الفهم أو بجالا للاعتذار عن قصد قائله . .

و فانطلقتا تولولان وتقولان : لوكان ههنا أحد من أنفارنا .. ، فاستقبلهما رسول الله وأبو بكر وهما هابطتان ، قال مالكما ؟ .. قالنا

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استلم الحجر وطاف بالبيت هو وصاحبه ، ثم صلى ، فلما قضى صلاته ، قال أبوذر فكنت أول من حياه يتحية الإسلام ، قال فقلت : السلام عليك يارسول الله .. فقال وعليك ورحمة الله .. ثم قال من أنت : قال قلت من غفار . . . ،

وهنا واقعة لا أظنها قد فسرت حتى الآن \_ فى حدود علمى \_ واست بالذى يزعم أنى سآتى بما لم تعرفه الأوائل! .. ولا أدرى هل استوقفت أحدا بغير ما أوحت به عبارة أبى ذر وهو يحاول أن يفسر رد فعل و غفار ، من جانب الرسول ..

يقول أبوذر أنه لما عرف الرسول بنفسه : ﴿ أَهُوى الرسول بيدهُ فُوضَعُ إِصْبِعُهُ عَلَى جَبِهِتُهُ ﴾ أو ﴿ فَاهُوى بيده إلى جَبِهِتُهُ هَكُذَا ...

وهى حركة يأتيها الإنسان عندما يتذكر أمرا ، أوبمعنى أصح عندما عِذكر بأمر ، أو يدهش بأمركان عنده منه خبر . . وربما يعجب كيف فاته هذا الامر وكان الإحرى به أن يذكره ، دهشا من وقوع ماكان يعمرف أنه سيقع . .

أبو ذر يقول ﴿ فَقَلْتَ فَى نَفْسَى : كَرَّهُ أَنَّ الْتَمْبِيَّ إِلَى غَفَارُو فَذَهْبِتَ آخَذُ بِيدَهُ ، فَقَدَّعَنَى صَاحِبُهُ ﴿ أَى رِدْنِى أَبُو بِكُر ﴾ وكان أعلم به مَنَى ؛ ثم رفع رأسه ، ثم قال من كنت همنا ؟ قلْت قد كنت هنها منذ خس عشرة ، قال فن كان يطعمك ؟ قال قلت ما كان لى طعام إلا ما وز مزم المستنت حتى تكسرت عكن بطني ما أجد على كبدى سخفة جوع . قال إنها مباركة ، إنها طعام طعم » .

ما الذي أدهش رسول الله ؟

أهو إيمان رجل من غفار ؟

لا . . رسول الله يعلم أنه جاء للناس كافة . . وبعد أن تحادث معه أرسله إلى قومه يدعوهم للاسلام ، وما كان قوم أسرع من إسلام عفاز ، أسلم نصفهم ، وأجل نصفهم الآخر إعلان اسلامه حتى يصل النبي إلى يثرب (المدينة) . .

فاسلام غفاركان يسرا لا غرابة فيه ولا عجب . . ورسول الله كان الآحرى به أن يدهش \_ إن كان ثمة دهشة \_ من هذا الذى آمن قبل أن يرى النبي . . بل من الذى يحييه بقوله السلام عليك يارسول الله ، حتى قبل أن يدعوه النبي للاسلام . . ولعله الصحابي الوحيد الذى سعى على الاسلام وما سعى مسلم إليه به في ذلك الحين . . وهو كان خامس مرجل ، كما تقول الروايات .

شى. آخر غير غفار وأخلاقها هو الذى جمل النبي يضرب جبهته بعده ثم يستمر في هذا الوضع فترة من الوقت استغرقت محاولة أبي ذر ألتدخل ، بأن يرفع يد النبي ويشرح له الامر ، ونهى أبي بكر له . . ثم الاحظ قول أبي ذر ﴿ وَكَانَ أَعْلَمُ بِهِ مَنْ ﴾ أي أن أبا بكر فهم شيئاً غير

الذى فهمته أنا (أبو ذر) وعرف أن هذه الاستغراقة لغير ما توهم أبو ذر . . وأنه ما من شرح يقدمه يبددها أو يزيل مسبباتها . .

ولوكان الأمر ما ظنه أبو ذر لـكان ثمة تعليق من رسول الله على غفار . . ولـكان كما عرفنا من خلق رسول الله عليه عليه ثمة حمد وشكر لله تعالى أن هدى غفاراً .

ولكن الحديث اتجه بعيداً عن غفار . . ولم يعد إليها إلا فى نهاية اللقاء عندما بعثه رسول الله إلى غفار داعيا للاسلام ، وأمره بالبقاء مناك وعدم الحضور حتى ينتشر الاسلام ويهاجر النبي . . بل إن أبا ذر لم يعد للبنى بعدها إلا بعد أناجتاز الاسلام مرحلته الحرجة (بعد غزوة الخندق) .

و تلاحظ فى الحديث أن رسول الله لم يعلق بشى، ولا قدم تفسيراً للحركته هذه ، ولا سأله أبو ذر . . ولا ندرى أفهم من استغراق الرسول ، ونهى أبى بكر له عن التدخل ، أنه موقف ليس له أن يسأل عنه ، أم صرف عن بإرادة من يصرف القلوب كيف شاء ؟ 1 وبإرادته نتساء ل نحن اليوم . . ما الذى أثار عجب رسول الله ؟

سؤال لست أزعم أن أحداً يملك أن يجيب عليه . . ولكن تفاصيل

<sup>(</sup>۱) لاخط أيضاً الأسلوب الذي لجأ إليه أبو ذر في توضيح موقفه ، فهو لا يحاول شرح موقفه بلسانه بل « ذهبت لآخذ بيده » ! !

الحديث توحى أن نبأ من الساء كان عند رسول الله عن ذلك القادم من غفار . .

ما هــو؟

الله ورسوله أعلم . .

وتفسير أستاذنا و البهى الخولى ، لحركة النبى صلى الله عليه وسلم يُـــ و مستعظما أن يأتى من تلك القبيلة من يرغب فى الإسلام وهو ما يزال يدعو إليه سرآ . . . .

وذلك استنتاجا من ظن أبى ذر: , فقلت فى نفسى كره أن انتميت. إلى غفار ، .

ولكنه استنتاج غير مقنع ، بنى على ظن حدثت به أبا ذر نفسه ،. ولم يقم الدليل على صحته . .

فالنبي لم يكره أن ينتمى أبو ذر لغفار ، بل أرسله إليها ، وسرعان. ما أسلمت غفار ودعا النبي لغفار (غفار غفر الله لها) . . ثم إنه لاصلة واضحة بين التفسير وما دار بخلد أبي ذر ، فهو لم يقل : دهش النبي لا نني سمعت بالإسلام . والدهشة هنا يفترض فيها أن تمتزج بالسرور والرضا . . فهذا اللون من الدهشة لم يود في ظن أبي ذر ولا استشفه . . وإلا لا بتهج بسرور رسول الله . . ولما حاول أن يأخذ بيده لينهي سروره ! .

والرسول لو دهش ، واستعظم إسلام غفار على بعدها ، وبداية..

العهد بالإسلام ، ليكان أول قوله: والحمدالله، أو سبحان الله ، أو ماشاء الله له أن يبدى من علامات الرضا . . وما فى سلوك النفس أن يضرب الإنسان جهته بيده ، ثم يطرق برهة إذا لمس صدق ماوعده ألله ، وأتاه دليل انتشار الدعوة ومسارعة القاصى إليها . . فهو موقف تهليل الاستغراق وتأمل !

قد يقال أن رسول الله أشفق أن يذيع أمر الإسلام قبل أن تتهيأ ظروف المجاهرة وما يحيطها من مكاره وصعاب . . وبعزز هذا التفسير أمره لابي ذر بأن يذهب ولا يعود حتى ينتشر الاسلام . . حُولُكُن يُعْتَرَضُ عَلَى هَذَا النَّفْسِيرِ بِأَنْ رَسَّرُلُ اللَّهَ كُلْفَهُ أَنْ يَدْعُو غَفَارِاً اللاسلام ، ولوكان هذا التفسير صحيحاً ، لـكان الاحرى أن يأمره بكتمان اسلامه حتى يأذن له. . لأن معنى تسكليفه بدعوة غفار للاسلام أن تسلم قبيلة بأكملها على طريق القـــوافل فتشيـع الآمر أضعاف ما يسيطيع أبو ذر أن يفعل وحده ، فرسول الله دعاه إلى المجاهرة بالاسلام والدعوة له . . و لم يعلق رسول الله ولاسأله كيف علمت والاسلام ، فاللقاء كان في مكة ، ومكة كلها كانت تتحدث عن الاسلام حتى أن أخا أبى ذرعاد بنبأ الرجل الذى هو على دين أبي ذر . ! وحتى أَن المرأتين لما سمعتا قدحه في الآوثان عرفتا فوراً أنهالصابيء . . وحتى أَنْ المستضعف ما إن سأله أبو ذر عن رسُول الله في المدينة حتى صاح هذا هو الصابيء ، وسارع الناس الذين كانوا على علم سابق بمن هو الصابيء وما يدعو إليه ، وكانوا قد اتخذوا موقفاً بالفعل منه ،

ومن دعوته ، وبمن ينتمى إليه ، عبروا عنه فى شكل الأحجار والعظام وكل ماتناولته أيدسم . .

فالإسلام ليس سرا . وإسلام أبي ذر في مكة لا يعنى بالحتمية أنه عرف في غفار . ومعرفة غفار به ليست مستحيلة ولامدهشة إلى حد أن يضرب الرسول جبهته بيده ، ويتوجس أبو ذر ، ويفهم أبو بكر، مو يقدر رهية اللحظة ومعنى استغراق الرسول ، ويوشك أبو ذر أن محتج وأن يفسر بطريقته ، فيكفه أبو بكر ، ويدرك أبو ذر أن الام عنير ما يظن . . وأن أبا بكر يعرفه ، « لانه كان أعلم بصاحبه » .

كل ذلك يجعلنا نقول ـ طامعين فى أجر المجتهد المخطىء ـ أن خلك اللقاء ما كان أول علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر القادم من غفار . . أو أن اللحطة لم يستغرقها ذلك اللقاء بل لعلما تفتحت عن يروى تخطت الزمان والمكان ، . . .

## الله ورسوله أعلم . .

ثم ذهب مع رسول الله إلى منزل أبى بكر حيث أكل من زبيب الطائف . قال : . وكان ذلك أول طعام أكلته بها ( بعد ١٥ يوما مز

قال: ﴿ وَكَانَ كُلُكُ اوْلَ طَعَامُ أَلَيْتَ رِسُولُ اللّهِ صَلَى اللّهُ عَلَيْهُ وَسَالًا اللّهُ عَلَيْهُ وَسَا ﴿ وَصُولُهِ ! ﴾ ثم غبرت ما غبرت ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسا ﴿ فقال : أنه قد وجهت لى أرض ذات نخل ، ولا أراها إلا يثرب ، فهرا ﴿ أنت مبلغ عنى قومك عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيها . . . . ويقول ابن الآثير: أنه بايع رسول الله في هذا اللقاء على ألا يخشي في الله لومة لائم ، وأن يقول الحق مهما كان مرا ...

وسنرى أن ابا ذر قد وفى لهذه البيعة أشد ما يكون الوفاء ، فماكان. يخشى فى الله لومة لاثم . . وكان يقول الحق مرا ، بلكآمر مايكون. الحق ويكون قوله ..

يقول: و فأتيت أنيسا ( اخاه ) فقال ماصنعت ؟ قلت : صنعت أنى قد أسلمت وصدقت . . قال : مابى رغبة عن دينك . فإنى قدأسلمت وصدقت ، قأتينا أمنا فقالت : مابى رغبة عن دينكما ، فإنى قد أسلمت وصدقت ، فسافرنا حتى أتينا قومنا غفارا فأسلم نصفهم وكان يؤمهم ابن رحضة الغفارى وكان سيدهم . . . .

لاحظ أن أباذر هو الذى حمل الإسلام إلى قومه ، ودخلوا الإسلام، بدعوته . . ثم هو لا يؤمهم فى صلاتهم . . وتذكر كيف أن رسول الله رفض أن يوليه إمارة . . فالرجل ما كان قد هيء لقيادة . . والامافاته أن يؤم مسلمين دخلوا الإسلام على يديه . .

تنتهى قصة اللقاء الأول بين رسول الله وألى ذر . . وهو لقاء يكشف لنا عن خطوط ما يمكن أن نسميه الحلفية الخلقية والنفسية لشخصية أبى ذر ..

- فهو قاطع طريق من قبيلة تستحل الشهر الحرام .
  - وهو يصلى لله قبل أن يسمع بالإسلام.
    - فان سمع به شد الرحال إليه مؤمنا .

- وهو عنيف في رفضه للأوثان .. غليظ في نقده لها .
  - ثم هو لايعيش إلا على الماء ١٥ يوما .
  - ثم ذلك اللقاء العجيب .. وإطراقة رسول الله .
- فاذا أسلم بعثه رسول الله إلى قومة ودعاه ألا يعود حتى بنتشر الإسلام .

ثم لانسمع عنه شيئا ، والإسلام يمضى من مكة إلى المدينة .. ويحارب الرسول وينتصر فى بدر ، ثم يهزم فى أحدوينال منه المشركون، ثم ما بين أحد والخندق من غزوات وأزمات وانتصارات .. فغزوة الحندق حيث يؤتى المسلمين من بين ايديهم ومن خلفهم ، ومن فوقهم ومن تحتهم .. ثم ينصرهم من هزم الاحزاب وحده ..

و يعلن الرسول تحول الإسلام من الدفاع إلى الهجوم: « لاتغزوكم قريش بمدها .. بل أنتم تغزونها » .

ويعود أبو ذر لينظر من جديد في مجتمع المدينة .. ويكون اللقاء الثانى ، ولا يخلو من نادرة .. فانه لما جاء إلى رسول الله .. تأمله الرسول وقال وأنت أبو نمل ، .. والنمل والذر مترادفان في العربية، قال: أبو ذر يارسول الله ! ..

كيف كانت صحبة أفي ذر برسول الله في مجتمع المدينة ، حيث كان يجرى إعداد المسلمين لبناء دولة الإسلام .. وحيث كان رسول الله خير من يعرف معادن الرجال ، وأقدر خلق الله على أن يكلف الرجل ما بطبق ..

كان لأبى ذر مكانة خاصة عند رسول الله ، عبر عنها أبو ذر بعد بذلك اللقب الذىكان يتحدث به عن الرسول لايختار غيره .

#### و خلیلی ، . . .

وكان رسول الله يبتدى. أبا ذر إذا حضر، ويفتقده إذا غاب ه . هـ وقد روى هـذا أبو الدرداء الذى اصطدم به أبو ذر كأعنف مايكون الصدام كما سنرى . .

ويوم غزوة مؤتة عندما ظن المسلون أن أبا ذرقد تخلف . . ثمى جاء يمشى وحده قال له رسول الله أجمل قول يسمعه جندى من قائده. ومسلم من نبيه : إن كنت لمن أعز أهلى على تخلفا . . فصلوات الله عليه يعتبره من أهله . . بل وأعز أهله عليه تخلفا . .

وقال رسول الله من يلقائى على الحال الى أفارقه عايها . قال . أبو ذر: أنا يا رسول الله . . فقال عليه الصلاة والسلام . . وصدقت . ثم التفت إلى أصحابه فقال: ماأظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر . . من سره أن ينظر إلى زهذ عيسي . ابن مريم فلينظر إلى أبي ذر ، واختيار رسول الله التشبيه بعيسى بن مريم له دلالته . . فإن زهد عيسى بن مريم ، كان زهدا في الدنيا وما فها ، زهد من لم يترك تشريعا ولا نصا واحدا يمكن أن ينسب لشئون الحكم . والإفتصاد والمال .

فرهد أبي ذر ، هو إزهد الصادف عن الدنيا ، لا المتصدى لها ،. المتحمل لمستولياتها ، القادر على أن يخوض عبابها ، بما فيه من حق ، ومافيه من باطل، ثم ينجولاله ولا عليه . . كماكان يتمنى عمر بن الخطاب. إمام الزاهدين العاملين . .

وأبو ذر قد تعاهد مع رسول الله علىأن يلقاه على الحالة التي يفارقه على الحراد على تنفيذ عهده هذا ، شديد الرضا عن عليها . . وكان شديد الاصرار على تنفيذ عهده هذا ، شديد الرضا عن نفسه إذا وفي بعهده هذا . . وأنا أقربكم مجلسا من رسول الله صلىالله عليه وسلم يوم القيامة . . وذلك أنى سمعته يقول : وإن أقربكم منى عليه وسلم يوم الدنيا كهيئته يوم تركته فيها . . وإنه والله ما منكم من أحد الا وقد تشبث بشيء منها غيرى »

فهو قد اختط لنفسه خطه تمكنه من تنفيذ ما ارتبط به ، وتحقق له. ما وعد به : أن يكون أقرب الناس إلى الكال .

ورسول الله قد اختاره لهذا الدور وأعده له . . دور ، المثال .. الله ينبه ويوقظ آمال المحرومين . . ويروع جبروت المالكين . . صوت يقول! لحق . . حتى ولوكان الحق غير بمسكن . . فإن الدنيا تستحيل الى ظلمات خانقة ، وتنحدر إلى الهاوية ، وتفقد صبغتها الإنسانية ، إذا ما اختنى حتى صوت الحق . .

طلب أبو ذر من رسول الله أن يوصيه فقال : « حب المساكين. وجالسهم »

قال أوصنى قال: « لاتخف فى انه لومة لائم، وقل الحق ولوكان مراه. وقال: « إن خليلى عهد إلى أن أى مال: ذهب أو فضة، أوكى عليه. ( ادخر أو احتجز ) فهو جر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله ، قال : ﴿ إِن خَلِيلِي عَهِدَ إِلَى أَن دُونَ جَسَرَ جَهِمْ طَرِيقًا ذَا دُ-يَضَ ﴿ لَهُ مَرَالَنَ تَرَلَّ عَلَيْهَا القَدَمَ ﴾ ومزلة، وأنا أن نأتى عليه وفى أحمالِنا اقتدار أحرى أن ننجو من أن نأتى عليه ونحن مواقير ،

وقد التزم أبو ذر حرفيا بما عهد إليه خليله . . كان يرفض أن يبق في بيته درهما من فضة أو ذهب ، بلكان يلجأ في ما يحتفظ به من مال لقوت عياله إلى أسلوب غريب ، إذ يستبدل له بفلوس من نحاس ورصاص ! وهي كثيرة العدد ، ثقيلة الوزن ، بل لعلها أثقل على حاملها في مزالي جسرجهنم يوم القيامة من الذهب والفضة . . بل وأدعى للريبة فقد استغلها بعض خصومه في الشام عند بعث عثمان في طلبه بناء على شكوى معاوية والى الشام، فخرج يحمل كيسا من النقود يثقل على الرجل حمله . .

فقال الخصوم: أنظروا إلى الذي يدعونا للزهد وهو يحمل اكداسا من المال، فقالت روجته: إن هي الافلوس من نحاس.

ولكنه لم يكن بالشكلى الذي يقف عند حد استرضاء النصا بدورانه حوله . . لا ، فالحكمة التي آمن بها وخلدها بسلوكه واضحة . . لان اكتناز الاموال أوتجمع رأس المال وتكدس الثروات ، لايمكن أن يتحقق بهذا النوع من العملة ، فا بنته كانت تذهب لتشترى الطعام وهي تحمل الثمن في و قفة ، ولعل الذين يذكرون الخردة القديمة، وكبر حجمها يدركون كم كانت تحمل ابنته إذا ذهبت للسوق . . بلوكان الباعة يردونها

 <sup>(</sup>١) بعضهم الآن يلبس دبلة من الماس ليجتنب تحريم الذهب! كأن ابا ذركان
 - بوسعة أن يسقيدل الذهب والفضة باللؤاؤ مثلا!

ويرفضون أخذ هذه ( الفلوس ) منها زاعمين أنها بهرجة . . وأظن أنه رغبة عن ثقلها ومئونة حفظها . . وصموبة عدها ..

فتجميع الثروات لايكون إلا بالذهب والفضة. . واكتناز الثروة في شكل نحاس أو رصاص يفضح صاحبه ويثير الشبهة حوله . ولعل الذين يدرسون الدور الذي لعبه المعدنان ( الذهب والفضة ) في تكوين الوأسمالية الحديثة ، يتمنون لو أن دعوة أبي ذر سادت الدنيا . . بل إن دولا كثيرة قد نحت منحى أبي ذر فألفت أوراق النقد ذات الفئة الكبيرة حتى لايسهل الاكتناز وتهريب الثروات ..

وكما النزم بأن يلتى الرسول كما تركه ، التزم بأن يقول الحق مهما يكن مرا . .

والأصل فى الحقائه مر . . ولكن أبا ذركان يتخير أمره . . وهو الذى اقترح على امرأتين عابدتين أن تزوجا المهما الهتهما ، فماكان يتخير الألفاظ .

تأمل لقاءهالقاسی لایی موسی الاشعری .. وأبو موسی صحابی جلیل ، یقبل علی أبی ذر فیعانقه فی محبة الرواد وتشوق بعضهم لبعض قائلا: (أهلا بأخی) فیدفعه أبو ذر فی عنف وغلظة قائلا: (ابعد عن الست بأخی منذ تولیت).

فهو يرى أن تولى السلطة يقطع الآخوة ، وأن تولى السلطة فساد.. وهى نظرية قالها بعده بأكثر من ألف سنة ستيوارت مل. (كل سلظة فساد ، والسلطة المطلقة فساد مطلق ).

۲٫۸۹ --- الحق المر )

فهل كان أبو ذر يدين كل من و تولى و .. وكل كبار الصحابة تولوا . . ؟ ! .. إن سلوكه يكشف عن صدوف و تفور من السلطة .. فهو قد هاجر من المدينة منذ وفاة أبى بكر وأفام بالشام ، ولانعلم له مواقف مع عمر . . ثم لا يعود إلى مسرح الاحداث إلا مع تغير الدنيا وشوق المحرومين إلى كلمة الحق المر ..

و تأمل موقفه من , أبى الدرداء ، فقد مر عليه أبو ذر فوجده يبتى بيتا له ، فقرعه قائلا : , حملت الآجُـرَ على أعناق الرجال ؟ ! ، .

وكل من بنى بيتاً أو حتى كوخا . . لابد أن بعض الرجال قد حلوا الآجر له . . ولكن الطريقة التى يعرض بها أبو ذر القضية تثير أبعاداً لاحد لها . . وتدين كل من استخدم الرجال منذ أن حل و خوفو ، الآجر على أعناق الرجال لبناء الهرم ، إلى بيت أبى الدرداء المتواضع ..

يقول أبو الدرداء: ﴿ إِنَمَا هُو بَيْتُ أَبِنْيَهُ ﴾ . . فيمود أبوذر فيكرر سؤاله التقريعي ، وكأنه يخاطب الجنس البشرىكله: ﴿ حَلْتُ الآجرِ عَلَى أَعْنَاقَ الرَّجَالُ ﴾ ١٤ .

ويحتد أبو الدرداء ويقول: ﴿ لَعَلَكُ وَجَدَتَ فَى نَفْسَكُ عَلَى مَنَ ذَلَكَ ؟ . . وكأنما استفر حاسة الحق المر فى أبي ذر . . فإنه به يردعنيه ردا جافيا عاريا لا يتخير له ألفاظاً فيقول له: ﴿ لُو أَنَى وَجَدَبُكُ فَى عَذْرَةَ أَهَلَكُ ، كَانَ أُحِبِ إِلَى عَا رَأْيِتَكُ فَيْهِ ﴾ .

و وعذرة، كلمة معناها أوساخ وأقذار القوم. وأبو الدرداء صحابي جليل شهد من المواقع مالم يشهد أبو ذر ، بل ومشهو دله بالزهد، قدقيل فيه أنه كان يدفع الدنيا عنه بالراحتين والصدر ، وله فى الجنة قصر لم ترعين مثله ، ولم تسمع به أذن . . ولم يخطر على قلب بشر . . ولمكن . . لأنه يبنى بيناً له ، يستحق من أبى ذر هذا التعنيف القاسى الموجع . . .

ولا ينبغى أن نتوهم موقفاً طبقياً فى هذا الحوار ، أو نتصور دأبا الدرداء ، يمثل الاغنياء أو الماللكين ، . وأباذر ، يمثل المحرومين أو العمل المأجور . .

لا .. . أبو الدرداء ، بدوره لايتورع عن الثورة والغضب والتقريع إن رأى بذخا أو ترفا في غير موضعه . . فقد ذهب إلى عرس وسلم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فلما دخل وجدهم قد غطوا الجدران بقاش أخضر (فرش القرح أو مايشبه الصيوان) فغضب أبو الدرداء ، وقال لعبد الله بن عمر : ماهذا يا ابن عمر . . أتسترون الجدار ؟ ! فاستحيا عبد الله بن عمر وقال في خجل ، و غلبنا عليه النساء . . ، وتلك كانت نقطة الضعف في ابن عمر ، رقته وضعفه مع النساء ، حتى لقد كانت هي حجة عمر في عدم جدارة عبد الله بالخلافة . .

ورد أبو الدرداء: , لم أكن أخشى عليك أن تغلبك النساء ..والله لا أكلت لك طعاماً ، وخرج ..

وأبو الدرداءهنا يتبع وصية رسول الله عندما رأى عائشة زينت.

بيتها بقماش وضعته على الجدران ، فلما رآه عليه الصلاة والسلام جذبه حتى هتسكه وقال : . ياعائشة ، إن الله تعالى لم يأمرنا فيما رزقنا أن تكسر الحجارة والطين . .

من أسهل التفاسير أن نصف الصحابة ،كما يصف الجنود، فنزعم أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه يقف فى أقصى اليمين . . فهو يرى تغطية الجدران ، وعلى يساره يقف أبو الدرداء يرفض أن تكسى الجدران ، وعلى يسار اليسار يرفض أبوذر أن تقوم الجدران أصلا 1. .

ولكن لنؤجل حديث اليمين واليسار هذا حتى تستكمل بعض ملامح أسلوب أبي ذر.. وحدّته وجفاءه حتى فى مجاملاته ..

لمنا نزل و أبو ذر ، الربذة ، أقيمت الصلاة ، وعليها رجل يلى الصدقة ، فقال تقدم يا أبا ذر فصل بنا ، فقال أبو ذر : لا ، تقدم أنت ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : و اسمع وأطلع ، هإن كان عليك عبد مجدع ، فأنت عبد ولست بأجدع ! . .

وكان الرجل عبداً أسود اسمه مجاشع من رقيق الصدقة .

تخيل رجلا فاضلا تقول له . تفضل سيادتك .. فيقول لك : اللا ، تفضل أنت . . والله لو أحقر منك لتركمه يتقدمني 1 .

لاشك أن صاحبنا قد ساءه هذا التكريم أكثر بمـا شرفه ا

وحتى يسقط فى يد اليسار . فإن أبا ذر عندما احتضنه أبو هريرة عقال له : مرحبا بأخى . سأله أبو ذر : هل تطاولت فى البنيان ؟ قال

أبو هريرة .. لا . . قال أبو ذر : أنت أخى . . أنت أخى. . وأبو هريرة غير أثير عند اليسار . !

وكان رأى أبى ذر فى الجنس البشرى: , هل ترى الناسماأ كثرهم1 ما فيهم خير إلا تتى أو تائب . . . . .

عاهد خليله على أن يقول الحق مهما يكن مرآ . . وأن لا يخثى في الله لومة لاثم . وشهد له على بن أبي طالب ، خير من شهد : « لم يبق اليوم أحد لا يبالى فى الله لومة لا ثم غير أبى ذر . . ولا نفسى . . وأشار إلى صدره . .

ومن ذا الذى يضع أبا ذر على يسار على ؟ . . قد كان أبو ذريقبض راتبه ويحوله إلى فلوس من نحاس ورصاص . . حتى لايكنز الذهب والفضة . . أما على رضوان الله عليه ، ف كان يلجأ إلى أسلوب أحسم ، كان يفرق كل مافى بيت المال من أموال ، ثم يأمر به أن يكنس ويرش يحب ذلك ويكرره دائما ! . . أو كما نقول اليوم \_ يجعل بيت الماك انظف من الصينى بعد غسيله . . فلا شبهة اكتناز بعد أن تكنس الحزانة العامة و ترش !

ولكن عليا رضى الله عنه عند سأل: من قتل عثمان ، فارتمع مائة ألف سيف تقول كلنا قتلناه . . رأى أن يؤجل التحقيق ، حتى يستقيم أمر المسلمين وتجتمع كلمتهم . .

وعلى لم ير تحريم تولى الوظائف العامة ، بل قبل الحلافة وقاتل عليما وقتل وهو يتولاها . . بينما لما أدركت الوفاة أبا ذر ، وهو في

الربذة ، وحيداً . . مصداقا لقول رسول الله . . بكت امرأته ، فَقال ما يبكيك؟ قالت لابد من تكفينك وليس عندى ثوب يسع لك كفنا . . فقال لاتبكي فإني سمعت رسول الله يقول ذات يوم وأناعنده فى نفر . . ليمو تن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين ، فحكل من كان معي في ذلك المجلس مات في جماعة وقرية ، ولم يبق غيرى . وقد أصبحت بالفلاة أموت ، فراقى الطربق فإنك سُوْف ترين ما أقول لك . . قالت : وأنى ذلك وقد انقطع الحج اقال: راقى الطريق فإني والله ما كذبت ولاكذبت ، فبينها هي كذلك . إذا هي بقوم تخب بهم رواحلهم كأنهم الرخم ، فأقبل القوم حتى وقفوا عليها . . فقالوا : مالك ! فقالت : امرؤ من المسلمين تكفنونه هِ تَوْجِرُونَ فَيْهِ . . قالوا من هو ؟ قالت أبو ذر . قالت ففدوه بآبائهم وأمهاتهم (أى قالكل منهم فداه أبي وأى ) هم وضعوا سياطهم في تحورهم يبتدرونه . . فقال أبشروا فأنتم النفر الذين قال فيكم رسول الله . . ثم قال أصبحت اليوم حبث ترون ، وَلُو أَنْ لَى ثُوبًا مِن ثَيَابِي ييسعنى لم اكفن إلا فيه ، فأنشدكم بالله لايكفننىرجلكان أميراً أوعريفاً أو بريدًا ! فـكل القوم نال من ذلك شيئًا إلا فتى من الانصار . .كان مع القوم ، قال أنا صاحبه . . الثوبان في عيبتي ( الخرج أو الحقيبة)من غزل أمى . . وأحد ثوبي هذين اللذين على . . قال : فأنت صاحبي هٰکفنی . . . .

وهكذا صدقت نبوءة رسول الله ، ومات وحده فى الفلاة . . وصدقت نبوءة رسول الله وكفنته عصبة من المؤمنين ، ولو أن أبا ذر قد صدمهم وروعهم ، إذ اتهمهم جميعاً فى ذمتهم المالية ، ورفض أن يكفر فى ثوب اشتراه رجل من إمارة تولاها ، أو عرافة ، أو بريد كان يتولى نقله . . لأن هؤلاء جميعاً تحوطهم شهة الاختلاس ا ويدخل ما لهم الشك والظن . . وهم الذين فدوه بآ بائهم وأمهائهم . . ولكنه لم يكن بالذى يغادر الدنيا إلا وآخر كلماته د الحق المر ، .

ومات وقد أعلن رأيه فى السلطة .. كل السلطة .. كل المناصب مفسدة .. كل الأموال تغرى بالباطل ، وكل من تولى وتحكم فى الأموال متهم .. ألا يقوم قانون من أين لك هذا على نفس الفلسفة! بل ألم تكن هذه \_ إلى حدما \_ فكرة عمر .. عندما كان يرسل مندوب الخزانة العامة يقاسم الولاة ثروتهم .

إن وعمر، رجل الدولة المسئول ، كان يعين الولاة ويعلم أنه يستعين ببشر عرضة للاغراء والانحراف ، ويجعل من تفسه مثلا خالداً للحاكم الذى تتطلع إليه البشرية في تشوقها للعدل والنزاهة .. ثم يفرض وقابته الصارمة على الولاة ليصل بالحركم إلى أقصى ما يمكن من مطابقة الواقع للمثل ..

ولكن تبقى صيحة أبي ذر ضرورية لفضح السلطة وتنبيك المحكومين . . وإدانة استغلال النفوذ . . إنه إصبح لتهام موجهة بصفة دائمة لكل من يتولى وظيفة عامة . .

ويغير سلطة الاتهام .. لا يسود القانون ، ولا يقوم العدل .. ولا يرتدع الذين في قلوبهم مرض . . فإن شئت فقل إن أبا ذر كان المدعى العام ضد الاغنياء .. والسلطة ..

وقصة حديث ويمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامة .

أمة وحده » :

أن أبا ذر تخلف فى غزوة مؤتة ، لأن ناقته كانت عاجزة ، فنزل عنها وحمل متاعه على ظهره ، وما كان يحمل الكثير ، فقد عرفناه لا يتزود فى رحلاته إلا بالماء 1 ورأينا كيف ظل فى مكة ١٥ يوما و ١٥ ليلة

لا يتزود إلا بماء زمزم فإذا به يسمن حتى تتكسر عكن بطنه . . وإذا به لا يجد سخفة الجوع على كبده . .

ورأی معسکر المسلمین شبح رجل یسعی عن بعد . . فقالوا : رجل یمشی وحده یارسول الله . .

فتمنى رسول الله أن يكون ذلك القادم هو أبا ذر لحب رسول الله، وحبه ألا يتخلف أبو ذر عن شرف الجهاد . . قال رسول الله : وكن أنا ذر ، !

فلما اقترب بشر المسلمون النبي .. . هو والله أبو ذر ، فقال النبي. قولته الصادقة :

د يمشى وحده .. ويموت وحــــده .. ويبعث يوم القيامة أمة وحده ي

وقد رأينا أبا ذر يمشى وحده ساعيا إلى الجيش فى ظروف قاسية رأينا كيف صدقت نبوءة رسول الله . . ومات أبو ذر وحده فى لفلاة . . وكفنته العصمة المؤمنة . . ولاديب في صدق نبوءة رسول الله : « وسيبعث يوم القيامة أمة-وحده » .

كيف .. ولماذا ؟

أمة المرء فى قاموسنا الدينى .هم الذين يتبعون دعوته.. ومعنى الحديث وأن أبا ذر سيكون وحده يوم القيامة ، فلن يتبع دعوته أحد . . فما هى الأدلة التى يطرحها التاريخ ، والتى تعيننا على فهم هذه النبوءة الصادقة ؟ ``

هل كان أبو ذر يمثل حركة أو تيارا أو يعكس مطالب اجتماعية مطروحة للنطبيق؟ أو هل يصح أن نقول أنه اليسار الإسلامي ، إلى غير ذلك من التشبيهات والتعبيرات التي أطلقت في السنوات الاخيرة؟

قبل أن تناقش هذه القضية يحسن بنا أن نستكمل صورة أبي ذر . مع الرسول ..

فقد كان رسول الله يعلم مستقبل أبي ذركأن يراهأ مامه مرسوما...

أراد مرة أن يخرج في رحلة مخوفة غير مأمونة العواقب فنصحه وسول الله ألا يخرج . ويلح أبو ذر في طلب الاذن بالخروج فيحذره وسول الله قائلا: لكأنى بك قد قتل ابنك، وأخذت امرأتك وجنت تتوكأ على عصاك 1 .

ورغم ذلك يخرج بزوجته وولده ، ويعود متوكثا على عصاه قد.. قتل ابنه وأسرت زوجته ا

والمتتبع لصحبته معالرسول يحددكأنه عليه الصلاة والسلام يحرض.. على أن يبقيه فى الاطار الذى يسر له (كليم ميكر لما خلق له) .. دور..

'النذير الصادع بقول الحق المر . . ولكن رسول الله يبعده عن مراكز السلطة ، بل ويبعده عن المجتمع الجديد في المدينة ، ويعرف تناقضه معه حتى قبل أن يقوم هذا المجتمع بصورته الجديدة بعد أن تدفق الثراء وامتحن المسلون بالسراء بعد أن صبروا على امتحان الضراء . .

طلب أبو ذر من رسول الله أن يوليه الإمارة على إحدى الجهات، فرفض الرسول قائلا: ويا أباذر إنك ضعيف .. وإنها أمانة .. وإنها يوم القيامة خزى وندامة . . إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها .. إنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لاتأمرون على اثنين ، ولا تولين مال اليتيم ،

ماذا تعنى وضعيف، هنا .. وقد رأينا شدته وجرأته ، بل هو وحده الذى بايع على أن يقول الحق مهايكن مرا . . ولما أسلم خرج إلى أندية قريش يضربونه ثم يقوم ليضربوه .. وقد عرفنا كيفكان يستخدم عصاه فى مجلس أمير المؤ منين عثمان يضرب بها كعب الاحبار . . ورأينا شدته فى النقد . .

فكيف يكون أبو ذر ضعيفاً ؟

إلا لأن القيادة والامارة أو مسئولية الحسكم ، قضية فنية معقدة ، وفعل الخير فيها لا يتم بمجرد الرغبة فيه . بل بالقدرة عليه .

وثورية قاطع الطريق العربى . . تقف عند حد أخذ حق الحياة أو انتزاع حق الحياة بمن يمنعه . أمه تنظيم وضع اجتماعى يكفل حق الحياة اللجميع . . فقضية لا يقوى عليها الرافض ولا المنتزع حقه بالقوة . ورسول الله يحب لأبي ذر ما يحب لنفسه ، أى أن يأتى يوم القيامة تقيا من انحرافات السلطة والمال ، لذا ينصح أباذر ألا يلى الإمارة على اثنين ، ولا يتولى مال اليتيم ، ولكن رسول الله تولى أمر المسلمين جميعا . . وتحمل مسئولية ما لهم . . والفرق هو فى قوله صلى الله عليه وسلم : . إنك لضعيف ، .

ورسول الله لا يخشى على مال اليتيم من أمانة أبى ذر . . ولكنأى يتيم يخشى على ماله من وصى يحول ثروته إلا رصاص ونحاس . . من وصى يؤمن أن كل كيس صر على دينار أودرهم ( ذهب أوفضة) غهر « مكواة ، تكوى بها الجنوب فى النار .

الوصاية على مال اليتيم تعنى ادارته . . حفظه وصيانته واستثماره ، وأبوذر آخر من يصلح لهذه المهمة . .فهو العدو الآلد لفسكرة الاستثمار:

« لا ينبغى للاغنياء أن يقتنوا مالا . . ، ا وهو شعار لم يتحقق قط حتى ولا في الصين !

، عهد إلى خليليأن أى مال : ذهب أو فضة أوكى عليه فهر جمرعلى صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله ، .

والثالث يضركولا ينفقه على عيالك من حله، ودرهم تقدمه لآخرتك والثالث يضركولا ينفعك. ياأيها الناسقدة نلكم حرص لاندركونه أبدا، هذه هى صورة المجتمع النموذجى ، شرط أن يكون سلوكا عاما ، وإلا تحول الأخيار فيه إلى متسولين . . وانهارت الدولة ، إذا آمن حكامها بفلسفة على بن ألى طالب ، فانفقت كل ما فى الحزينة العامة على الشعب . . وكنسته ورشته ، ثم واجهها طارى م يحتاج إلى المال، فخذلتها الشعب . . وكنسته ورشته ، ثم واجهها طارى م يحتاج إلى المال، فخذلتها

الرعية ، وأكتنزوا المال وحجبوه عن الدولة .

أما وهذا المجتمع المثالى غير بمكن ، فى حدود ما مر على البشرية من نظم ، فإن أبا ذر يجب أن ببتى بعيدا عن السلطة ، حتى لا يعرضِ القيم النبيلة لامتحان عسير . .

وبوصية رسول الله امتنع على أني ذر أن يتولى السلطة ، ولم نسمع ان أحد عرضها عليه ، لافى زمن أبى بكر ، ولا فى عهد عمر وعثمان بعده . وهو قد التزم بوصية خليله فما سعى إليها ولاقبلها ، ورفض رفضا قاطعه « أن ينصب له راية ، كما دعاه بعضهم . . أى يدعو إلى نفسه . .

فالنبي صلوات الله عليه وسلامه ، قد عرف أبعاد دور أبي ذر . . وعاهده عهد الحليل لحليله ، وأن يقول الحق مهما يكن مرا . . وأن لا يخشى في الله لومه لائم . . وأن لا يتولى القيادة على اثنين فلايقترب من السلطة ولا يحمل مسئولية الحكم . ، ولا يبقى في المجتمع إذا مادخل مرحلة الافتناء والعمران والتطاول في البنيان .

فمكانه خارج مؤسسات المجتمع الرسمية ، خارج فئاته الما لكة .. وهو أيضاً ممنوع من قيادة حركة أو شق عصا الطاعة أو الثورة.. يسأله الذي: وكيف أنت إذا كانت عليك أمراء يستأثر ون بالنيء؟.. تأمل السؤال!.

ه م

وتأمل أنه يوجه لابي ذر بالذات ١ .

و يرد وأبو ذر ، : و إذنوالذي بعثك بالحق ، أضرب بسيني حتى آلحق لك . . . . .

إجابة إسلامية كاملة . . وموقف لا يتردد أبوبكر وعمر وعثمان وعلى في اتخاذه . .

ولكن أبو ذر !

ماذا يقول رسول الله ؟ . .

﴿ أَفِلا أَدَلَكُ عَلَى مَا هُو خَيْرَ مِن ذَلَكَ ؟ . . اصبر حتى تَلْقَانَى ! . . وبتنبأ الرسولمرة أخرى بانه سيختلف معأمرائه فيطلب أبوذره الاذن من رسول الله بقتالهم . . ولكن الرسول يقول له . . . اسمع . وأطع . . ولو لعبد حبثى . .

لذلك لم يستجب للذين دعوه للثورة .. بل كان أكثر الصحابة

قانونية في جماده . . والنزاما بالعمل في إطار النظام . . ولعله من المثير والجدس بالتأمل أن هذا الصحابي الجليل المتهم

باليسارية ، والراية التي يتجمع تحتها كل المفسرين اليساريين الآن . • هو وحده، أوقل إنه أحد المصادر الرئيسية لـكل أحاديث طاعة

. الحـــكام . .

هو الذي قال: ﴿ لَا تَذَلُو االسَّلْطَانَ فَإِنَّ مِنْ أَذَلَ السَّلْطَانُ فَلَانُو بِهَلَّهُ.. وهو نص لو أخذ بحرفيته لشل كل ثورة ، وأدانكل ممارضة أو مقاومة للسلطان! بينما يقترح عمر أن تقتل الأمة الحاكم المنحرف . .

ويقول أبو ذر: « والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبه لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ، ورأيت أن ذلك خير لى » .

ورفض حتى أن يقاوم الرجل الحـكام الذين يسلبونه ماله! فهو مع الشرعية إلى النهاية . .

كان يلتزم حدود الدور الذى اختاره لنفسه ، واختارته له إرادة. الله . . أن يكون صوت الحق المر . . لا تقترب من السلطة ، لاحاكما. . ولا ثاثرا . .

كذلك نصحه رسول الله: ﴿ إِذَا بِلْغِ البِنَاءُ سَلَّمًا فَا خَرْجٍ ﴿ وَأَشَارِ بَيْدِهُ إِلَى جَهِةَ الشَّامِ . .

أى إذا امتد عمران و المدينة ، إلى مسافة ثلاثة أميال فارحل عنها.

وقد رأينا مبلغ الحدة التى اتسمت بها منافشته مع أبي الدرداء لمجرد أنه رآه يبنى بيتا . فاى اضطراب كان سيثيره أبو ذر وهو يرى. البناء يمتد والعمران ينتشر حتى يتخطى المدينة ؟ .

فكم من أصحابه كان سيخاصم ويختصم معهم وهو يرى البيوت. تتناثر هنا وهناك . . وهو يرى صحابة رسول الله يبتنون البيوت ، ويقتنون متاع الدنيا . . أليس من الخير لمثل هذا الذى وعد الرسول. أن يأتى يوم القيامة كما تركه ، أليس من الخير أن يخرج من مجتمع كان.

من المستحيل أن يبقى كما تركه الرسول 1 . . فما يقوى على البقاء. فيه إلا أحد اثنين:

. من يقبل التغيير ويسأل الله السلامة . .

. أو من يتصدون للمسؤليات ويحملون الناس على الجادة ، ويبذلون جهدهم كى يردوا إلى الناس بعض الحق الذى يعرفون أنه يغتصب كان عمر من هؤلاء ، وهدوا وحكموا وأقاموا عدلا ما رأت البشرية مثله ، وبقوا وما تغيروا ، انتصرت القيم فى سلوكهم ، وجاهدوا لنصرها فى أمة تتغير ، ومجتمع يتدفق عليه الثراء ، ويمتحن كا قلمنا بالسراء وفتنتها أكبر ، كما قال عبد الرحمن ابن عوف ، معتذرا للشاب الذى سمى إليه من أطراف الوطن الإسلامي فرأى الصحابي يزرع بيديه ويحول الماء مقبلا على الدنيا كافباله على الآخرة . . .

وخرج أبو ذر من المجتمع ، زهد وما تغير . . نأى بنعسه ، وحفظ. وعد خلىله . .

وهذا هو الأصل فى خروجه إلى « الربذه ، فليس صحيحا أن عثمان ، نفاه . . فهو قد خرج إلى الشام بعد وفاة أبى بكر ، وبقى هناك ، فلما اشتدت الاضطرابات بعد مقتل عمر ، وتعددت الآذان المتشوقة لصيحات أبى ذر . . أخرجه معاوية إلى المدينة . . وبعد لقاء مع عثمان . . طلب الإذن بالخروج من المدينة . .

وفتأذن لى فى الخروج . . فإن المدينة ليست لى بدار ، . .

. واستغرب عثمان أن يكره صحابى سكنى المدينة أو يرفضها دار أ . . فيقول : « أوتستبدل بها إلا شرا منها ؟ ! » .

وفسر أبو ذر رغبته بقوله:

د أمرنى رسول الله أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلما » .

ورد عثمان: فانفذ لما أمرك به . .

ثم رواية عن اعطاء عثمان له • أربعين من الابل وبملوكين • •

ويمكن أن نسقط هذه الإضافة . . ولكن المؤكد أنه قال له : - و فلا تبتعد عن المدينة حتى لاترتد أعرابيا ، فقد كان رسول الله يقول ثلا بى ذر إذا ما غلبته حدته : ﴿ أَمَا فَارْقَتُكُ أَعْرَابِيتُكُ بِعَد ؟ » .

كانت الاضطرابات تحتاج كل العواصم الإسلامية ، والتغيير العنيف في حياة الإنسان وقيمهم وأخلاقهم ، يهزكل شيء . . فاكان ولا بي ذر ، مادامت السهاء تريد أن تتم كلمتها ، وتيقية في دور قائل الحق المر ، إلا أن يخرج إن الربذة . . في الصحراء . . على بعد ٣ أميال من المدينة .

وليس هذا بالمنفى . . وهو لا يتعذر الوصول إلى المدينة إن أراد الثورة ، بل لعله هناك يستطيع ــ لو أراد ــ أن يقيم معسكرا المثائرين والمتمردين يغزو به المدينة . .

ولم تـكن عليه حراسة تمنعه من مغادرة الربذة لوأراد ، إلىأى من الامصار التي تضطرم بالفتن والاضطرابات ، والتناقض بينقيم المجتمع الذى بناه الرسول وواقع الحياة الجذيدة التي يبنيها من دخلوا حديثا في

دين الله ، وجاءوا بكل تراثهم الاجتماعي . . كان يستطيع الانتقال إلى أن بلد إسلامي ، بدليل أنه لم كان بالربذة ، زاره أحد أصحابه فوجد عنده امرأة سوداء شعثة . . فقال له ألا تنظر إلى ما تأمرني به هـــذه السوداء ؟ تأمرني أن آتى العراق . . فإذا أتيت العراق ، مالوا على بدنياهم . . ألا أن خليلي عهد إلى . . ثم روى حديث جسر جهنم ، ومزالقه ، وخطورة أن يمر المره عليه يحمل أكداس الذهب والفضة .

فهوكان يملك \_ إذا أراد \_ أن يذهب إلى العراق فيلتف حوله الناس بدنياهم ، واكنه يرفض ذلك النزاما بوعده لرسول الله . وهو يربط بين السلطة واكتناز الذهب والفضة ربطا محكما، لامفر من الوقوع في الثانية إذا ما ماقبلت الأولى . . ولعله كان بذلك أكثر فهما لقوانين المنطور الاجتماعي في عصره من الثائرين الذين دعوه لينصب لمراية . . .

المهم أن فكرة النفى مستبعدة وواهية الأساس ، وهى من اختراع الذين حشدوا كل الطعون ضد عثمان رضى الله عنه .

هو منفى اختيارى . . يفرضه صاحب القيم على نفسه ، استجابة لن لاينطق عن الهوى ، فى مرحلة تأبى قوانين الحياة أن تستجيب لإحلام الطاهرين . . . .

دخل عليه رجل فلم يحد شيئًا فى بيته ، فقال :

ـ يا أبا ذر أين متاعكم ؟ .

فقال: لنا بيت نوجه إليه صالح مثاعنا ( يعنى فى الآخرة نؤثث بيتنا الذى هناك بصالح الاعمال ).

۳.0

فقال الرجل: لابد لك من متاع مادمت هنا . . قال أبو ذر : صاحب المنزل لايدعنا فيه .

الرجل يرى أنه مادمنا فى هذه الدنيا ، فلابد لنا من وسائل العيش فيها ، ولكن أبا ذر يرى أنه لايملك بيت الدنيا ، وصاحب البيت لايلبث أن يخرجه من دار الفناء هذه إلى دار البقاء والحلود . .

فهو على سفر فى هذه الدنيا . . وقد عرفناه لايتزود فى سفره ِ بأكثر من الماء ، وشتان بين سفر وسفر ، وزاد وزاد ! .

وهو ما كان بالداعية كما عرف الناس الدعاة ، وقد رأيناه ينافر أبا الدرداء على بيت يبنيه ، فيدفع أبا الدرداء إلى رد قاس ما كان يحب أن يقوله . .

وقبل ذلك رأيناه يواجه المرأتين فى الكعبة بقول لايمكن أن يفتح بابا للفهم والايمان . .

بل لقد رفض حتى أن تكون له مدرسة ورفض حتى أن ينشر على الناس العلم الذى عرفه ، فقد شهد له على بن أبي طالب شهادة خطيرة فقال : « وعى أبو ذر علما , عجز فيه ، ثم أو كأ عليه فلم يخرج منه شيئاً . . وكان شحيحا حريصا : شحيحا على دينه ، حريصا على العلم ، .

والجدير بالتأمل أن , على بن أبى طالب ، رضى الله عنه يستخدم نفس اللفظ المحبب لدى أبى ذر فى الحديث عن الذين : , أوكوا ، على الذهب والفضة 1 . وفابو ذر ، العالم لم يقدم علمه للناس . . ومن ثم فلهم العذر أن لم يتبعوه ، فقد علم وعمل بما علم . . التزم بكل ما أوصاه به خليله . . و لكنه و أوكى ، أى أغلق على هذا العلم ، فلم يخرج منه شيئا . .

وواضح أنه رضى الله عنه لم يكن معلما ، وقد رأينا كيف أنه دعا غفارا للاسلام ثم لم يؤمهم للصلاة . . .

فهو رجل حالت كل العوامل بينه وبين أن يكون معلما ، أوزعيما سياسيا ، أو قائد حركة ، أو صاحب مدرسة ، بمعنى الإلتزام والتنظيم والترابط . . فهو قاطع طريق في بداية حياته ـ كما رأينا \_ أى ثائر فردى يكتفى بأن يعيد تقسيم الثروات بأسلوبه الخاص ، وفي كل هجمة يثب فيها ، ولا يمكن أن نسمى ذلك حركة أو موقفا اجتماعيا متكاملا ، يمكن أن يفضى إلى تغيير في بنية المجتمع القائم . . أو يعيد الطبقات فيه .

مم هو يذهب فيسلم وحده ، ويعود لقومه فيهديهم الله به الاسلام، ثم لانسمع له واقعة ، حتى يعود لصحبة رسول الله ، فينصحه ألايتولى الإمارة ولو على اثنين . . ثم هو الذي يختصه رسول الله بأحاديث الطاعة للسلطان . حتى يصبح رضى الله عنه مصدرا رئيسيا للفقه النظامي الداعى لطاعة ولى الآمر ، والرافض للتغيير بالثورة . . .

وعندما استدعاه عثمان رضى الله عنهما . . بعد شكوى معاويةالذى خشى من دعو ته على الأمن فى الجبهة الإسلامية مع الروم ، أو إن شئت على الدولة الإسلامية التى كان يبنيها فى الشام .

فلما دخل على عثمان ، تناجى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما (أى احتدا فى نقاش أخوى حر ) ثم انصرف أبو ذر مبتسما . . فقال له الناس : « مالك ولامير المؤمنين ؟ ! ، قال : « سامع . . مطيع . . ولو أمرنى أن آتى صنعاء أو عدن ، ثم استطعت أن أفعل لفعلت . .

وروى من شهد الإجتماع التاريخي بين عثمان أمير المؤمنين وأبي ذر قصة هذا الإجنماع فقال:

« دخلت مع أبي ذر فى رهط من غفارعلى عثمان بن عفان من الباب الذى لا يدخل عليه منه ، قال وتخوفنا عثمان عليه ، قال فانتهى إليه ، فسلم عليه ، قال ثم ما بدأ بشىء إلا أن قال « أحسبتنى منهم يا أمير المؤمنين ؟ والله ما أنا منهم ، ولا أدركهم ( أى احسبتنى من الداعين إلى الفتنة وخلع طاعتك ، والله ما أنا منهم . . ولا أصل لما وصلوا إلى الو أمرتنى أن آخذ بعرقوتى قتب لأخذت بهما حتى أموت ، .

واستأذنه أبو ذر فى الخروج إلى الربذة ، فأذن له عثمان كما رأينا ، بعد أن عرف وصية النبي إليه بالخروج ، قبل وقوع الفتنة ، وفى الرواية أن عثمان عرض عليه هبة من الإبل وغيرها ، وأن أباذر قبل ، وفى رواية أخرى أنه صاح بأعلى صوته رافضا أموال قريش ودنياها ..

وصدق رسول الله : رمامن ذى لهجة أصـــدق من أبي ذر ، . . ولكن الصدق حالة ذاتية ، فالمرء قد لا يكون مصيبا ولكنه صــادق فيما يقول .. صادق فيما يجاهد الناس به . . وصلوات الله على من لا ينطق عن الهوى ، فإنه لم يقل : , من ذى رأى أصدق من أبى ذر ، بل قال , لهجة ، . . وقد تقول غير الصواب . . ولكنه الصدق ، أى ما تؤمن به . .

وأبو ذر عندما نني لعثمان أن يكون منهم، كان صادقاً ، فاحدثته نفسه لحظة واحدة ، أن يثير فتنة ، أو أن يشق عصا الطاعة ، ولو أدرك عثمان يوم حاصره الثائرون لقاتل دون بابه . . غير أنه ما من مؤرخ يستطيع أن يقول أن كلمات أبى ذر لم تساهم فى تحرك هذه الجماعات التى زحفت على المدينة تريد عدل عمر . فى أمة غير أمة عمر ا . . . . تريد من خليفة رسول الله أن يبق عليها مجتمع الرسول فى مجتمع بعيد إلى حد بعيد عن صحابة رسول الله .

وما من شك فى أن كلماته حجة حاسمة فى يد الذين حركوا الزاحفين إلى المدينة . . الطيبين منهـــم . . أو أطراف الأخطبوط الصهيوني العالمى الذى بدأ يتحرك منذ أن وصل رسول الله إلى المدينة . .

ولكن أبا ذر كان صادقاً ، فما كان منهم ، ولا كان يسعى سعيهم، ولا ظن أن الأمر يصل إلى ما وصل إليه ..

ولا يمكن لمنتسب إلى التفكير العلمى الحديث ، أن يضع أبا ذر إماماً لما يسمى باليسار ، أو معبراً تمام التعبير عن هذا اليسار ،ولا أن يخلع عليه صفة أكثر المسلمين اشتراكية . .

فا كان أبو ذر يلتزم إلا بقضية واحدة هي انفاق الأموال، انتقال الثروة من يد الاغنياء إلى الفقراء، رفض الثروات، وقيام بحثمع ينقسم بين أغنياء يحبسون الثروات، ويستأثرون بها، وفقراء لا يجدون ...

وفض ادعاء جانب من المجتمع أحقيته فى هذه الثروة ، فهى مال المسلمين جميعاً لأنها من فضل ربهم جميعاً . .

أو قل إنه كان يشر قضية على جانب كبير من التعقيد والآهمية والخطورة: قضية تراكم الثروات ، فهى جوهر المأساة فى التاريخ الإنسانى . . ومفتاح الاستغلال ، وأداة انقسام المجتمع إلى طبقات ، ولكنها أيضاً ، الطريق الوحيد لقيام الحضارة .

فأبو ذركان ضد تراكم الشروات ، يكره الذهب والفضة لانهماأداة الاكتناز ، وبالتالى تراكم الشروات ، ولكنه فى قضايا إجتماعية أخرى، يغيرها لا تكتمل يسارية ولا تستقيم اشتراكية . . لا نجده فى مثل موقفه من قضية الشروات . فأبو ذر هو الذى يختلف مع ابن عمه فيقول لله و يابن الامة ، . . يعيره أنه ابن جارية . . رقيق . . ولوكان أبو حراً ، بل وعم أبى ذر نفسه !!

ويعاتبه خليله : , أما ذهبت عنك أعرابيتك , . .

ونجد عتاب الرسول هنا رقيقا . . لأن أبا ذر يعــــير ابن عمه ،

وهو ند" له ، مهما تكن الوضعية القانونية لأمه ، ولأن وقوع الإنسان في حالة الرقظرف عارض ، ومن مجم فإن الاحساس بالتعالى على الرقيق أو ابن الرقيق ، يستنكره نبي المساوأة المطلقة ورسول الله إلى خلقه بالقيم الإنسانية في قمة تألقها . . إلا أنه لا ينبعث من عنصرية . . أصيلة ، ولا يخشى أن يشكل قاعدة لتفرقة عنصرية . . فالرق حالة عارضة .

ولكن هذا العتـاب الرقيق أو اللوم الرفيق من الخليل لخليله ؟ « أما فارقتك أعرابيتك ، يتحول إلى ثورة غاضبة ، وغضب ثائريفزع له أبو ذر ويرتعد ، فيدفعه إلى موقف النقيض فى أقصى صوره . .

يغضب الرسول على خليله أبى ذر غضبة تصل ذروة ما يعرف عن رسول الله فى غضبه عندما يلمح تفرقة عنصرية ، عندما يختلف أبو ذر . . يا ابن السودا . .

هنا إحساس بالتمبيز، لمجرد الاصل، لصفة لا دخل للانسان فى اكتسابها، أو فقدائها، ولا أمل فى تخطيها، هنا حاجز ليس من صنع البشر ولا بوسعهم أن يوبلوه، فليس من حق بعضهم أن يجلس غوق سور اللون محتقرا من يتصور أنهم أسفل السور .. لان لونهم يخالف لونه . .

هنا يصيح الرسول: وطف الصاع ؛طف الصاع ، أى تجاوزا لأمر كل حد ، ولم يعد يمكن السكوت عليه ، ثم يعلن فى مواجهة أبى ذر و ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء .. ويدرك أبو ذر مدى غضب خليله ، ويدرك أنه فى هذه المرة ليس. معاتبا ، ولا منتقدا ، بل رافضا زاجرا معترضا على موقف يتنافى مع أصول الفهم الاسلامى . .

و سرعان ما ينام قاطع الطريق على الأرض ،ويضع خده على الرمال. طالبا من بلال أن يطأ خده بنعله ، مكفرا عن جريمته بالحديث عن التفرقة العنصرية .

صورة تهز قلب كل حر في أمريكا اليوم .

صورة تثألق فيها النبوة إلى ذرى لا ينالها بشر .

صورة تسمو فيها المبادى. الاسلامية الأصيلة فوق كل التقسيمات. والخانات ، فلا يمين ولا يسار ؟ وما حاجى هذا الدين أحد إلاغلبه ..

أين أبو ذر من عمر الذى يقول عن بلال : ﴿ أَبُوبِكُرُ سَيْدُنَا وَأَعْتَقَ. سَيْدُنَا ﴾ أى بلالا .. وعمر فى قومه وقبيلته أعز من أبى ذر ، وعمر محانت فى الاسلام أعز من أبى ذر ، فقد أعز الله الاسلام بعمر ، وشهد من المشاهد مالم يشهد أبو ذر . . وهو وزير النبى وخليفته . .

بل أين أبو ذر فى جرآته وحدته وقسوته ، وهو يعير بلال بأنه ابن السوداء ، فإذا جبهه وحى النبوه خر فيما يشبه السجود ــ أستغفر الله ــ عند نعل بلال 1 .

إنهم جميما أصحاب رسول الله وتلاميذه.

وتبقى صيحته خالدة على مر الزمان وعير كل المـكان .

فا أحوج أمريكا اليوم إلى صوت يدوى فوق تمثال الحرية . طف الصاع . . و ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء ، ولا شك أن الغضبة النبوية قد علمت أبا ذر ألا يفرق بين الناس بسبب لو نهم ، بل نجده قد اتخذ على عادته موقفه الاستشهادى ، عند الطرف الاقصى ، فيتزوج أمة سوداء 1 ولكن مع التزامه ، بل ومغالاته فى احترام أبناء السوداء نجده يمارس ذلك باحساس لايفارقه عن مكاتهم ا

ولا شك أن هناك أسبابا عديدة ، تاريخية ، ونفسية وبيولوجية ، وبعضهم يضيف إليها الآن جنسية خلقت هذا الاحساس بالتفرقة-العنصرية ، وتفضيل اللون الابيض على الاسود .

وتتجلى عظمة الإسلام في أنه رفض كلهذه الاسباب، ووضع الاساس. الموضوعي للابمان بالمساواة ، ثم طبق هذه المساواة في أكمل صورها كذلك استطاعت تعاليمه أن تفرض هذه المساواة حتى على الذين. لم يستطيعوا أن يقتلعوا الاحساس بهذا التفوق . . بل كان إحساسهم. هذا وإدراكهم أنه يتناقض مع تعاليم الاسلام دافعا لهم إلى المغالاة في احترام الجنس الاسود . .

فأبو ذر ـكا رأينا ـ يتزوج سحماء ( سوداء) ويفسر ذلك بقوله. د أتزوج من تضعني أحب إلى عن ترفعني .

فهو يرى أن السحماء أى السوداء تضع الرجل . . . وموقفه سليم. لاعنصرية فيه من ناحية السلوك الاجتماعي ، بل هو يفرض على نفسه

<sup>(</sup>١) من العملية الجنسية ، و قد البيض على مايشاع خطأ عن تفوق السود .

مالايفرضه أى مؤمن بالمساواة بين الاجناس ، إذيتزوج أمرأة سودا.. ولكنه رغم هذا كله ، مقتنع بأنها زوجة تضعه ولاترفعه ..

وهو يدعو العبدإلى التقدم للصلاة قائلا: قد أمرت أن أسمع وأطبع ولو لعبد حبشى . . فأنت عبد حبشى ، وفى رواية , ولو لعبد أجدع ، فأنت عبد ولست بأجدع ، 1 .

هنا يتفوق الإسلام على أبى ذر ، فالإسلام أجاز إمامة العبد الاسود، والكنيسة الغربية لم يصل إليها كردينال أسود إلا فى النصف الثانى من القرن العشرين ، و بعد استقلال افريقيا ، وبهدف تضليل الافريقيين لاهدايتهم .

بينها كان أول قائد لجيش الدولة الإسلامية ضد العدو الخارجي.. أسامة بن زيد.. أسود أفطس.. فأبو ذر لم يمثل اليسار، ولا كان أكثر الصحابة اشتراكية إن صحت التسمية .. وماكان بالداعية، وإن ألهبت كلما ته حماسة المتعطشين لتوزيع الثروات، وأقضت مضاجع الاغنياء حتى أنه لما وصل إلى المدينة .. . كثر الناس على كأنهم لم يرونى من قبل ..

ولحص الطبرى تأثيره الاجتماعى فقال د إن أبا ذر جعل يقول : يامعشر الاغنياء واسوا الفقراء . . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فما زال حتى ولع الفقراء بمثلذلك وأوجبوه على الاغنياء، وحتى شكا الاغنياء ما يلقون من الناس ، .

ولكن كلما وقف يعظ انفض الناس من حوله . . ربمـا خوفا من

جواسيس معاوية . . وربما لأن الأمركما قال أبو ذر , مازال بي الأمر عالمعروف والنهى عن المنكر حتى لم يبق لى قول الحق صديقا ، أوكما أجاب سائلا , يا أباذر مالك إذا جلست إلى قوم تركوك ؟ قال : إنى المهاهم عن كنز المهال .

فى الثائرون فى عهده ما كانوا ليرفضوا كنز المال . . بل كانوا يريدون جانبا أكبر عند توزيع الثروات ، كما فعل الزنج بعد أبى ذر بأدبعة قرون ، قلبوا المجتمع فاستعبدوا البيض ا

فماكان الفقراء الثائرون في عهد أبي ذر يويدون إلا أن يحتلومواقع الاغنياء . . وماكان بوسعهم أن يتصوروا المجتمع إلا على هذا النحو ، في لحظة من التاريخ ماكان يمكن أن تقوم حضارة إلا عبرا نقسام المجتمع إلا أغنياء وغير أغنياء . .

وعندما اختلف أبو ذر ومعاوية في المحاورة المشهورة :

يسأل أبو ذر معاوية: مايدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ي مال المسلمين مال الله؟ يرد معاوية وجل الدولة! مرحمك الله يا أبا ذر! ألسنا عباد الله والمال ماله، والخلق خلقه، والإمر أمره؟..

فيرد , أبو ذر , في لهجته الحاسمة التي لاتطيق جدل المناطقة ، ولاتعرف المبارزة الرشيقة بالالفاظ ـــ , فلا تقله ، .

ويرد معاوية بدبلوماسيته وذكائهالعجيب . .

ح فإنى لا أقول أنه ليس لله ، ولكن سأقول : مال المسلمين . . .

ولكن يصعب أن نقرر أى القولين , مال المسلمين ، أو ,مال الله ، ليشكل قاعدة اشتراكية أوسع .

أليس القول بأن المال مال الله ينفى حق أى فرد أو جماعة فى أن. تستأثر به أو أن تتولى حق تقسيمه ؟ .

بينها القول بأن المال مال المسلمين يعنى أن من حق أمير المسلمين. أن يتولى تصريفه ؟ .

ولكن يرد على ذلك أن ولاية أمير المؤمنين على المال تكون هنا نيابة عن المسلمين ، المالك الاصلى للمال . فهو باسمهم ولحسابهم يتصرف في المال . وأخطر من ذلك أن القول بأن المال مال الله قد يخلق الاساس لمن يقول أنه يتصرف ـ نيابة عن الله ـ في ماله .

هذه كلها قياسات تدفع إليها لجاجة المنطق . . ولكن عمر أسقط قدسية الملكية انطلاقا من أن الله هو المالك . . بينما خشى أبو ذر أن تكون نسبة المال إلى الله مدخلاللاستثثار . . ولو أنه لم يشرح ولم يحادل.

فالذين يستأثرون بالفي. ( مروات الامة الإسلامية ) قد وجدوا في. الإسلام في مختلف العصور ، والذين يكنزون الذهب والفضة لم يخلمنهم. يجتمع ولا قرن في التاريخ الإسلامي .

وليس أبو ذر وحده الذى دافع عن عدالة التوزيع ، ولاكانأ كثر\_ المطالبين وضوحا . فهذه القضية كانت تشغل بال الصدر الأول من المسلمين بلااستثناء، وكان يقلقهم أو قل يروعهم رؤية مجتمع ينقسم فيه الناس إلى أغنياء وفقراء، وأكثر ما يروعهم أنه يقوم باسم الإسلام، وبسيوف الذين أرادوا أن تمتلىء الدنيا عدلا .. وفي ظل تعاليم الإسلام، التي ترفض التفرقة ، وتأبى اكتناز الثروات .

وقد حاول كبار الصحابة جهدهم أن يوقفوا هذا التحول بسلوكهم فيما يملكون .. وبموقفهم من الاغنياء ..

يقول على « إن الله تعالى فرض على الاغنياء فى أموالهم بقدر مايكفى فقراءهم ، فإن جاعوا أو عروا أوجهدوا فبمنع الاغنياء . . . وحق على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه ، .

أى أن سبب الفقر ، بل كل المظالم الاجتماعية هم الاغنياء .

وعندما مات عبد الرحمن بن عوف ، ورأوا ضخامة تركته ، تساءل عثمان بن عفان , عن صاحب هذا المال ، ولوأنه تصدق وأعطى وقام على ماله كخير ما يقوم المسلم . . ؟ ! ، فرد كعب ، أنه , يرجو له خيرا ، . .

فعثمان يتساءل عن مصير عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المشهود لهم بالجنة . ويثير شكه وقلقه ضخامة الثروة فى حد ذاته ، ويجد أنه حتى لوقام صاحب المال عليه كخير مايقوم المسلم فان ذلك لاينفى التساؤل والقلق والشك . وكعب رغم أصله اليهودى ، لايقطع ولايجزم بل ( يرجـــو ). له خيرا ..

وسؤال عثمان واحتمالات كعب، تحمل كلها معنى الإثبام للمال والشك في مصير جامعه .. وتنبع منكون المال في ديننا متهم.. وتسكدس الثروات بقلق الضمير الإسلامي ، مهما تسكن مصادره ومصارفه .

ولكن أبا ذر يرفع عصاه ويعلن «وما يدريك يا ابن اليهودية أن صاحب هذا المال يود يوم القيامة لوكان ماله عقارب تلسع قلبه ! »

وعمر أرادأن يلحق أوائل المسلمين بأواخرهم ، أى يقسم دخل الأمة بالتساوى . . ( فليس أحد بأحق من أحد في هذا المسأل ) وقرر أن يأخذ فضول مال الاغنياء فيردها على الفقراء .

ومعنی هذا القول أنه كان ينوی أن يطبق لاول وآخر مرة فی التاريخ شعار (لكل حسب حاجته).

لأن الفضل مازاد عن الحاجة . . ففى الحديث عن رسول الله و من كان له فضل زاد. كان له فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له ، و من كان له فضل زاد. فليعد به على من لازاد له . فذكر من أصناف المال ماذكر حتى رأينا أنه لاحق لاحد منا في فضل .

ربما لوبقى هؤلاء الرجال، أصحاب رسول الله، لا كتشفوا لنا ا طريقاً لم تعرفه البشرية حتى اليوم، طريقاً تتراكم فيه الثروات وتستشمر وتنمو، ثم تقسم بالعدل فلا يستأثر بها الاقوياء. طريقا يحقق الرفاهية للمجتمع والمساواة لأفراده. ربمــا لوعاش. صحابة الرسول ..

ولكن ماكان للبشر أن يخلدوا فى الأرض .. وقد مات صحابة الرسول وجاءت رعية لاتريد الغنى فحسب ، بل وترضى بالفقر وتقبله كأنه العدل ومثل هذه الرعية ماكانت لتسمع صيحة أبى ذر ..

قهذا لصوت الصاروخ فى الدولة الإسلامية .. ما اتبعه أحد ولن يتبعه أحد طالما ظلت الدنيا على هذا النظام الذى اصطنعه الإنسان ...

ولكن ...

ما أوحش الدنيا من غير صوت يصيح .

والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم. بعذاب أليم) ..

وما أبشع العلاقات الإنسانية بغير صرخاته . . تنبه الغافل وتوقظ الضمائر ، وتشحذ ثورة الفقراء ، وتؤرق ليل الأغنياء القساقة الظالمين ..

ما أوحش الدنيا بغير قائل للحق المر .. ومستمع له . تم الكتاب يحمد الله



## فهسرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
0	خطبة الكتاب
18	مدخل
44	من أحوال المصطفى
٧٥	حکایات عن عمیر
111	المسلمون والسياسة
109	محمد رسول الله
۱۸۰	من مقدمة كتاب
4.0	الإسلام ووالحبشة
**	الإسلام الرأسالية
777	أبو ذر والحق المر

تم بحمد الله طبع هذا الكتاب في ١٥ من شعبان ١٣٨٨ هجرية الموافق ٦ من نوفمبر ١٩٦٨ ميلادية

## صدر للمؤلف

نقد	190.	هصريون لا طوائف
•	1901	الجبهة الشعبية
,	1904	قانون الأحراب
يطلب من مكتبة عمار	1904	روسی وأمریکی فی آلیمن
يطلب من الدان القومية	197.	شرف المهنة
ومكتبة عماربالقاهرة		
نقد	1978	الغزو الفكرى الطبعة الاولى
•	1977	و و الطبعة الثانية
مكتبة الامل بالكويت	1971	و الطبعة الثالثة
		الماركسية والغزو الفكرى
نقد	1970	<ul> <li>الطبعة الأولى</li> </ul>
الدار القومية	1977	• الطبعة الثانية
مكتبة الامل بالكويت	1977	دراسة فى فكر منحل الطبعة الأولى
مكتبة الامل بالكويت	197A	دراسة فى فـكمر منحل الطبعة الثانية القومية والغزو والفكرى
, ,		أخظر من النكسة
<b>)</b>		الطريق إلى مجتمع عصرى
مكتبة عمار بالقاهرة		الحق المر

جميع المؤلفات تطلب
من: مكتبة الأمل \_ السالمية \_ الـكويت
مكتبة عمار ١٣ \_ شارع الجمهورية بالقاهرة
أمام مسرح الجمهورية

دار لعص الطباعة

احمد حمدى احمد شعبان 11 فيانع سعد الله بالميربالامير سالقامرة